مَوَاقِفُ وَعِبَرٌ

زاد للدعاة وموعظة للمؤمنين

د. محمد محمد داود

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

دار المنار
للنشر والتوزيع
٩ ش حسن العدوى - الحسين - القاهرة
ت: ٥٩١٥٠٨٥

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾

[الأنعام / ٩٠]

إهــــداء

- إلى من اصطفاهم الله لأشرف رسالة فى الوجود، رسالة الدعوة إلى الله تعالى، وإمامهم فيها سيدنا المصطفى رسول الله ﷺ
- إلى من مدحهم الله وأثنى عليهم بقوله تعالى:
﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾
- إلى الدعاة العاملين أهدى هذه المواقف.

محمــد داود

كَـرِّرْ علىَّ حـديثَـهمْ يا حـادى

فـحـديثُـهم يَجلُو الفـؤادَ الصَّـادى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبى الله ورسوله سيدنا محمد رحمة الله للعالمين، وبعد :

فهذه المواقف يرجع الفضل فى إعدادها لإذاعة القرآن الكريم، حيث طلب منى أخى الأستاذ / شحاتة العرابي، المشاركة في برنامج « مواقف إسلامية ». ولاقت الدعوة ترحيبًا منى بسبب ميلى في خطب الجمعة والدروس الدينية إلى ربط المعانى الفاضلة لآيات القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف بالمواقف العملية فى حياة سيدنا رسول الله ﷺ وصحابته الكرام والتابعين؛ لتكون هذه المواقف تطبيقًا عمليًا لتعاليم الإسلام بين يدى المستمع، فيزداد فهمه ووعيه بدينه؛ وفى هذا تيسيرٌ للتأسى والاقتداء. هذا من جانب.

ومن جانب آخر ففى هذه المواقف تسهيل لأسباب الهداية من خلال الموعظة التى تتركها - هذه المواقف - في قلوب المستمعين، فتكون دعمًا معنويًا للمؤمن فى طريق زيادة الإيمان بالله تعالى، وعونًا للمؤمن على القيام بتكاليف الإيمان من فعل الخيرات وترك المنكرات.

وقد أشار علىّ أخى فى الله، صاحب الفضيلة الشيخ / سيف النصر عبدالفتاح الدسوقي، مدير وعظ الجيزة أن أجمعها فى كتاب؛ لتكون زادًا للدعاة وموعظة للمؤمنين.

والذى أود أن أشير إليه هنا هو أن التعليم من خلال الموقف هدى نبوى كريم، ولون من الأساليب التربوية فى السنة المطهرة، التى قدمت لنا تنوعًا سخيًا من الأساليب التربوية الهادفة، كى يصطفى الداعى والمربى والمعلم والمرشد من بينها الأسلوب الذى يناسب حال المتعلم.

فهناك من الناس من يحتاج إلى مزيد توضيح وبيان عملى، وتأتى الوسيلة التعليمية لتأخذ دورًا بارزًا فى هذا المجال، وكان النبى ﷺ يستعين بهذه الوسائل لمزيد من التوضيح والبيان : من ذلك رسمه ﷺ خط الأجل وخط

الأمل، واستعمال العصى واليد والأصابع .. إلخ.

ومن بين الأساليب التربوية فى السنة المطهرة التعليم عن طريق الموقف، ولتحقيق ذلك منا تأسيًا بسيدنا رسول الله ﷺ سبيلان :

الأول : عن طريق المواقف الحيّة من واقع الأحداث، من خلال ربطها بهدى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

الثانى : عن طريق الاستعانة بمواقف من عصر النبوة والتابعين والسلف الصالح، وبحلل الموقف فى ضوء القرآن الكريم والسنة، وذلك لتظل الموعظة حية تنتقل بين الأجيال لينتفع بها الناس، وإلى هذا النوع تنتمى المواقف موضوع الكتاب الذى بين أيدينا.

وتعالج هذه المواقف موضوعات متنوعة، منها ما يعالج مسائل فى الإيمانيات، ومنها ما يعالج مسائل فى العبادات، ومنها ما يعالج مسائل فى الأخلاق، ومنها ما يعالج مسائل فى المعاملات.

وأسأل الله تعالى أن ينفع بهذه المواقف وأن يتقبلها منى، وأن يجزى كل من علمنى أو أعاننى خير الجزاء وأوفاه، كما أسأل الله تعالى أن يفقهنا فى ديننا، وأن يهدينا إلى الحق والصواب، وأن يرزقنا الإخلاص فى السر والعلن، وأن يكرمنا بالقبول، فإنه ولى ذلك والقادر عليه.

وصلى الله على سيدنا محمد رحمة الله للعالمين

والحمد لله رب العالمين

راجى عفو ربه

د. محمد محمد داود

مكتبة العلماء

بالمركز الإسلامى بالعمرانية

ت / ٥٦٨٥١٢٢

فاكس / ٥٦٩٤٢٠٢

١ - متوكل على القافلة

عـزمت جـمـاعـة من طلبـة العلم على الحج، وأحب الإمام أحمد بن حنبل أن يطمئن عليهم، ولفت انتباهه شأن أحدهم، حيث استعد كل واحدٍ من الجماعة بالزاد والنفقة إلا هذا الطالب فما جَهَّزَ شيئًا !!

فسأله الإمام أحمد بن حنبل عن سبب ذلك، فقال :

إنما أنا متوكل على الله !!

فقال له الإمام أحمد : ألست مع القافلة ؟!

فقال الطالب : بلى، إني معهم.

فقال له الإمام أحمد : أنت متوكل على القافلة.

(*) رواه : الخلال عن أحمد بن محمد الرازي عن أبي معين الرازي عن الإمام أحمد، ص٧٠.

هذا موقف تربوى يقف بنا على حقيقة التوكل على الله عزّ وجل، ويعالج وهمًا شاع بين الناس، حين يتركون أنفسهم عالةً على من حولهم، وعبئًا على إخوانهم ظنًا منهم أن هذا توكل على الله تعالى.

لذلك لم يَرْضَ الإمام أحمد بن حنبل لطالب العلم أن يترك الأسباب فلا يعد الزاد ولا النفقة، ويترك نفسه عالةً على القافلة ويقول : أنا متوكل على الله، فأرشده الإمام بقوله : أنت متوكل على القافلة.

● إنّ الله تعالى أمرنا فى قرآنه الكريم أن نأخذ بالأسباب، والآيات فى هذا المعنى كثيرة، من ذلك قول الله تعالى : ﴿ **وَقُلِ اعْمَلُوا** ... ﴾، وقوله: ﴿ **فَاسْعَوْا** ... ﴾، وقوله : ﴿ **فَانتَشِرُوا** .... ﴾.

فكيف يكون ترك ما أمرنا الله به توكلاً على الله ؟!

إن فعل السبب طاعة لأن الله أمرنا أن نأخذ بالأسباب.

وترك السبب معصية لأنه مخالف لما أمرنا الله به.

● والتوكل هو اعتماد الطالب على الله تعالى، واعتقاده الخالص بأن النافع هو الله، وأن الضار هو الله؛ ولذلك قال بعض السلف الصالح: التوكل هو أن الجوارح تعمل والقلوب تتوكل.

وغياب أحد الأمرين (عمل الجوارح أو توكل القلوب) يحول التوكل إلى شيء آخر؛ فغياب الأخذ بالأسباب مع القدرة عليه يؤدى إلى التواكل، وغياب اعتماد القلب على الله يؤدى إلى الشرك؛ لذلك وصف العلماء المحققون من السلف الصالح حقيقة التوكل فى ثلاث كلمات، هى فى قولهم :

« فعل السبب طاعة، وترك السبب معصية، والاعتماد على السبب شرك بالله تعالى ».

وقد جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله، أخلّي ناقتي وأتوكل أم أعقلها وأتوكل؟ فقال ﷺ: «اعقلها وتوكل على الله»[(١)].

ويُبصِّرنا رسول الله ﷺ بثمرة التوكل الحق بقوله ﷺ: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا وتروح بطانًا»[(٢)] أي: تذهب الطير أول النهار جائعة، وترجع آخر النهار ممتلئة البطون.

ووعد الله من توكَّل عليه أن يكفيه، قال تعالى: ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾ [الطلاق/٣]. أي: كافيه.

وجعل الله التوكل الحق من صفات المؤمنين، قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾ [الأنفال/٢].

ودرس آخر في هذا الموقف؛ وهو أهمية الملاحظة في العملية التربوية؛ كي يتحقق المعلم والمربي من صحة التطبيق وصواب الفهم عند طلبته. وهو هدي نبوي كريم، فكان النبي ﷺ كثيرًا ما يلاحظ أصحابه ويوجههم ويرشدهم. وفي هذا الموقف أثمرت الملاحظة تصحيح مفهوم خاطئ وقع فيه أحد الطلبة ظنًّا منه أن هذا من التوكل؛ وصحح الإمام أحمد له الفهم وأرشده.

---

(١) أخرجه الترمذي في «الزهد» باب «التوكل على الله» (٢/٦٥/ح ٢٣٤٤) وقال: حديث حسن.

(٢) رواه الترمذي (رقم ٢٥١٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (رقم ١٢١٢).

٢ - من أى البلاد أنت ؟

لما أخرج أهل الطائف رسول الله ﷺ منها بعد أن آذوه، جلس النبى ﷺ إلى جوار حائط بستان لعتبة وشيبة ابنى ربيعة، فأرسلا إليه قطفًا من عنب مع غلامهما عَدَّاس، الذى وضعه بين يدى النبى ﷺ.

فمد النبى ﷺ يده قائلاً : باسم الله، ثم أكل.

فقال عدَّاس :

هذا كلام غريب لا يعرفه أهل هذه البلاد.

فقال له النبى ﷺ : «من أى البلاد أنت ؟».

قال : من نينوى.

فقال النبى ﷺ :

«من بلد الرجل الصالح يونس بن متى».

قال : أو تعرفه ؟!

قال النبى ﷺ : «ذاك أخى، كان نبيًا وأنا نبى»، فأقبل عَدَّاس يُقَبِّلُ رأسَ رسول الله ﷺ ويديه، وأعلن إسلامه.

(*) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية جـ ٢ /ص ١٧.

هذا الموقف الإيماني يفيض بالدلالات الحكيمة، والدروس النافعة في الدعوة إلى الله عز وجل. وأول هذه الدروس: هذا الأسلوب الودود من رسول الله ﷺ في الدعوة إلى الله تعالى، والذي يقوم على الحوار المقنع دون تعجل للنتائج، بالإضافة إلى رعاية مشاعر من أمامه.

ويظهر ذلك واضحًا في حوار النبي ﷺ مع عَدَّاس حين قال النبي ﷺ : «باسم الله»، فقال عَدَّاس : هذا كلام غريب لا يعرفه أهل هذه البلاد، وأحب النبي ﷺ أن يتعرف على عَدَّاس من خلال التعرف على البيئة التي نشأ فيها، ففي هذا مفتاح لمعرفة أسلوب تفكير عَدَّاس وعقيدته التي تسكن قلبه، والفكر الذي يملأ رأسه حتى يكون الكلام الموجه إليه مناسبًا لحاله، وهذا من حكمة رسول الله ﷺ . فلما أعلن عَدَّاس أنه من (نينوى) عَرَّف النبي ﷺ هذه البلد بأحب الأوصاف وأشرفها كي يستميل قلب عَدَّاس، فكل إنسان يبش ويفرح حين يسمع ثناءً على بلده ومدحًا لها، فقال النبي ﷺ : «بلد الرجل الصالح يونس بن متى». وشَجَّعَ هذا عَدَّاسًا أن يستكشف العلاقة بين رسول الله ﷺ وبين يونس بن متى – عليه السلام – فقال للنبي ﷺ : أو تعرفه ؟!

فقال رسول الله ﷺ : «ذاك أخي، كان نبيًا وأنا نبي»، وهنا وصل عَدَّاس لحالة إيمانية امتلأ فيها قلبه إيمانًا ونورًا، فقام مسرعًا يقبل رأس رسول الله ﷺ ويديه ويعلن إسلامه.

ومن الإشارات الإيمانية في هذا الموقف أيضًا، التي ينبغي أن نلفت الانتباه إليها: النفسية التي كان عليها رسول الله ﷺ بعد طرده من الطائف، وما ناله من سب وشتم وأذى من عبيدها وصبيانها، فعندما جاء ذكرهم على لسان عَدَّاس لم يصدر من رسول الله ﷺ أي كلمة بشأنهم، لم يَدْعُ عليهم .. وكأنه لم يحدث منهم ما حدث.

فالأمر الذي يهتم به ويتحرك له رسول الله ﷺ هو الدعوة إلى الله تعالى.

أيضاً رسول الله ﷺ لم يتعجّل دعوة عَدّاس إلى الإسلام، بل مضى معه في الحوار، حتى أقنع عقله وملأ قلبه إيمانًا وحبًا لهذا الدين.

كل هذه المعاني يؤكدها القرآن الكريم، من ذلك قوله تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل/١٢٥].

حيث تؤكد الآية رعاية حال المتلقي وخطابه بما يناسب حاله، فمن كان من أهل الحكمة كان خطابه بالحكمة، ومن كان من أهل الموعظة كان خطابه بالموعظة الحسنة، ومن لم يكن من أهل الحكمة ولا من أهل الموعظة، وإنما كان من أهل الجدل، كان خطابه بالجدل، بشرط أن يكون الجدال بالتي هي أحسن.

٣ - كأنك نبي

رأى سعد بن أبي وقاص رجلاً يسبُّ عليًا وطلحة والزبير، فنهاه، فلم ينته، فقال له سعد : إذن أدعو عليك، فقال الرجل :

أراك تتهدَّدني كأنك نبيّ !!

فانصرف سعد، وتوضأ، وصلى ركعتين ثم رفع يديه، وقال : اللهم إن كنت تعلم أن هذا الرجل قد سَبَّ أقوامًا سبقت لهم منك الحسنى، وأنه قد أسخطك سبُّه إياهم، فاجعله آيةً وعبرةً.

فلم يمض غير وقت قصير، حتى أصابته دابته، فما زال يتخبط بين قوائمها حتى مات.

(*) راجع الطبقات الكبرى (٢٢١ - ٢٢٢)، الاستيعاب (٢/٦٠٦ - ٦١٠).

هذا الموقف يحمل عبراً هادية وعظاتٍ بالغة :

● **العظة الأولى** : هذا الخلق العظيم من سيدنا سعد بن أبي وقاص ﷺ حيث إنه لم يقابل السيئة ولا السبَّ بالسبِّ، وإنما كفَّ لسانه، وهذا شأن المؤمن كما وصفه رسول الله ﷺ : «ليس المؤمن بطعانٍ ولا بلعانٍ ولا الفاحش البذيء»[(١)].

● **العظة الثانية** : هي إسداء النصيحة لوجه الله تعالى، فنصح الرجل أن ينتهي عن السب والإساءة لهؤلاء الأخيار من صحابة رسول الله ﷺ إعمالاً لقول النبي ﷺ : «الدين النصيحة» قلنا لمن يا رسول الله؛ قال : «لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم»[(٢)].

● **العظة الثالثة** : تحذير أهل المعاصي حين لا تنفع معهم النصيحة، فقال سعد للرجل : إذن أدعو عليك. ولكنه الكبر والغرور من الرجل الشاتم، فقال لسيدنا سعد بن أبي وقاص ﷺ : أراك تتهدَّدُني كأنك نبي!!

● **العظة الرابعة** : هي إخلاص التوجه إلى الله تعالى، وتفويض الأمر إليه سبحانه وتعالى. حيث انصرف سيدنا سعد وتوضأ وصلى ركعتين، وكان الدعاء في غاية الحكمة؛ حيث لم يزكِّ على الله أحداً، ولم يفرض في دعائه شيئاً يرضي نفسه وهواه، بل جعل الأمر كله لله تعالى؛ يظهر هذا من قوله :

«اللهم إن كنت تعلم أن هذا الرجل قد سَبَّ أقواماً سبقت لهم منك الحسنى، وأنه قد أسخطك سبُّه إياهم، فاجعله آية وعبرة».

● **العظة الخامسة** : الحذر من معاداة أولياء الله تعالى والصالحين من

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١ / ٤٠٥ .
(٢) أخرجه مسلم في «الإيمان» باب «بيان أن الدين النصيحة» (١ / ٢ / ٣٦) .

عباده، فقد استجاب الله تعالى لدعاء سيدنا سعد بن أبى وقاص ﷺ وذلك لأن الله يتولى الصالحين من عباده ويدافع عن عباده المؤمنين، قال الله عزّ وجلّ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الحج/٣٨].

وفى الحديث القدسى : «من عادى لى وليًا فقد آذنته بالحرب»[١].

أيضًا يستفاد من هذا الحديث أن منزلة سيدنا سعد عند الله تعالى عالية وغالية، وأن الله أكرمه بهذه الخصوصية، وهى أنه مستجاب الدعوة.

وتفيد السنة النبوية المطهرة أن سيدنا سعداً ﷺ طلب ذلك من رسول الله ﷺ، قال : يا رسول الله، أدْعُ الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة، فأرشده النبى ﷺ إلى طريق ذلك بقوله ﷺ : «يا سعد، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة»[٢]، ودعا له النبى ﷺ فى موقف آخر فقال له : «اللهم سدّد رميته وأجب دعوته»[٣].

---

(١) أخرجه البخارى فى «الرقاق» باب «التواضع» (١٠/٣٤٨/ جـ ٦٥٠٢ مع الفتح).
(٢) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/٢٩٤) وقال : رواه الطبرانى فى الصغير وفيه من لم أعرفهم.
(٣) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٣/٥٠٠)، وأبو نعيم فى الحلية (١/٩٣)

٤ - من أدب التَّعفُّف

أصبح أبو سعيد الخدرى رضي الله عنه وليس فى بيته طعام، وقد ربط على بطنه حجراً من الجوع.

فقالت له امرأته : ائت النبى ﷺ فاسأله؛ فقد أتاه فلان فأعطاه.

فقال لامرأته : لا، حتى لا أجد شيئًا، وبعد حين، طلب طعامًا من امرأته فلم يجد شيئًا.

فأتى النبى ﷺ وهو يخطب، فأدركه وهو يقول :

«من يستغن يغنه الله، ومن يستعفف يعفه الله».

قال أبو سعيد :

فما سألت أحداً بعد ذلك، وما زال الله يرزقنا حتى ما أعلم أهل بيت من الأنصار أكثر أموالاً منا.

(*) أخرجه البخارى (٢ / ١٣٩، ١٥١، ٨ / ١٢٤).

هذا الموقف يربى فينا قوة التحمل والرضا والتعفف، ويبشرنا الموقف بأن عاقبة الصبر تكون خيراً. كما يفيض الموقف بالدلالات الآتية:

● **الدلالة الأولى**: أن الإنسان إذا فتح على نفسه باب المسألة والاحتياج فإن النفس لا تقنع ولا تشبع، ويتعود الإنسان على الأخذ السهل دون كفاحٍ وعملٍ، وفى الحديث النبوى الشريف: «وارضَ بما قسم الله لك تكُن أغنى الناس»[(١)].

إنَّ الإسلام يربى فى الإنسان قيمَ البناءِ والاعتماد على النفس، ولا يرضى لأتباعه أن يكونوا عبئًا على الغير، أو أن تشيع بينهم القيم الاستهلاكية. وما أحسن قول الإمام البوصيرى:

والنفسُ كالطفلِ إن تهمله شبَّ على ... حبِّ الرضاعِ وإن تفطمه ينفطم

● **الدلالة الثانية**: سرعة استجابة صحابة سيدنا رسول الله ﷺ لهدى النبى صلوات الله وسلامه عليه، فما أن سمع أبو سعيد الخدرى قول رسول الله ﷺ: «ومن يستغن يغنه الله». حتى رجع عن السؤال وامتثل لهدى سيدنا رسول الله ﷺ. وفى هذا أسوة حسنة لكل مؤمنٍ يرجو الله واليوم الآخر أن يجعل السنة النبوية موقع العمل والتطبيق؛ وهذه حقيقة إيمانية أكدها القرآن الكريم: **﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾** [الحشر/٧].

فالسمع والطاعة لهدى الله ورسوله ﷺ هما حقيقة الاستجابة التى أمرنا الله بها فى القرآن؛ قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾** [الأنفال/٢٤].

---

(١) أخرجه الترمذى (٢٣٠٥)، وأحمد فى المسند (٢/ ٣١٠).

● **الدلالة الثالثة** : ثمرة وبركة العمل بسنة رسول الله ﷺ ، فبركة السنة لمن يعمل بها. وحين امتثل أبو سعيد الخدري لقول رسول الله ﷺ : «ومن يستغن يغنه الله ومن يستعفف يُعفه الله» وسَّع الله رزق أبي سعيد الخدري، وزاده من فضله وأغناه عن السؤال.

وهذا ما عبَّر عنه أبو سعيد في الموقف بقوله :

«فما سألت أحداً بعد ذلك، وما زال الله يرزقنا حتى ما أعلم أهل بيت من الأنصار أكثر أموالاً منا». ومن هنا ندرك أن البركة في اتباع هدى الله ورسوله والعمل بهما، كيف لا والنبي ﷺ لا ينطق عن الهوى.

وفي الحديث : «من اقتصد أغناه الله، ومن بذَّر أفقره الله، ومن تواضع رفعه الله ومن تجبر قصمه الله»[1].

---

(١) أخرجه الهيثمي في المجمع (١٠ / ٢٥٦)، قال : رواه البزار، وفيه ممن أعرفه اثنان، الحديث عند الطبراني في الأوسط بغير هذا اللفظ، راجع الترغيب والترهيب (٤ / ١٩٧).

٥ - المسارعة إلى الخيرات

لما عزم النبى ﷺ على غزوة تبوك، كان المسلمون يعانون من جَدْبٍ شديدٍ، حتى اضطر النبى ﷺ إلى رد من لا يملك راحلة عن الجهاد.. فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع.

عند ذلك صعد النبى ﷺ المنبر، وحث المسلمين على الإنفاق، فوقف عثمان بن عفان ﷺ وقال: عليَّ مائة بعير بأحلاسها ورحالِها يا رسول الله.

فنزل النبى ﷺ درجة وحضَّ الناس على الصدقة. فوقف عثمان مرة ثانية، وقال: عليَّ مائة بعير أخرى يارسول الله. فتهلل وجه النبى ﷺ: ونزل درجة، وحثَّ الناسَ على الصدقة، ثم أسرع عثمان إلى بيته وجاء مع النوق بذهبٍ وفضةٍ ووضعهما بين يدى النبى ﷺ.

فقال النبى ﷺ: «غفر الله لك يا عثمان ما أسررت، وما أعلنت، وما أخفيت وما أبديت، وما هو كائن إلى يوم القيامة».

(*) أخرجه ابن أبى شيبة فى المصنف (٧/٤٩٣) وهى مذكورة فى غير موضع من كتب السير.

هذا الموقف العظيم يجسد لنا الهمة العالية في التضحية، من أجل إقامة دين الله تعالى .. وصاحبُ الموقف هنا هو سيدنا عثمان بن عفان ﷺ: إنه ذو النورين، زوج ابنتي رسول الله ﷺ، وصاحبُ الهجرتين، ولا عجب ولا دهشة من حجم هذا العطاء العظيم، فإن من يقدم نفسه لله تعالى فإن تقديمه للمال أهون عليه وأيسر.

وهكذا يصنع الإسلام بالنفوس؛ حيث يخلصها من الشُّح والبخل، ويزكي فيها روح العطاء والتضحية.

ويظهر من هذا الموقف دلالاتٌ إيمانية، أهمها :

إنفاق الإنسان مما يحب، واصطفاؤه أفضل ما عنده، فيه تعبير عن حسن إيمانه بربه، كما يحمل له البشرى عند الله تعالى، قال تعالى :

﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران / ٩٢].

وكذلك في هذا الموقف قد بشّر النبي ﷺ عثمان ﷺ بقوله: «غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت وما كان منك وما هو كائن إلى يوم القيامة».

دلالة أخرى في هذا الموقف وهي أن النبي ﷺ لم يفرض على أحد من أغنياء المسلمين شيئًا من النفقة، رغم شدة الموقف وما أصاب الناس من جَدْبٍ شديد، بالإضافة إلى ظروف التجهيز لغزوة تبوك، واكتفى النبي ﷺ بحثّ الناس على الصدقة، ولعل الحكمة من هذا أن يعلم الأمة روح المشاركة عن رغبة وحب، وأن تسهم طواعية دون إجبار في كل موقف أو ضائقة تتعرض لها الأمة، وليعظم الثواب عند الله تعالى لهم، وتتعلم الأمة روح المبادرة والمسارعة لفعل الخيرات.

٦ - شُكر المُنعِم

خرج النبى ﷺ - وقت الهاجرة - فوجد أبا بكر وعمر - رضى الله عنهما - فسألهما :

«ما أخرجكما فى هذه الساعة ؟»

فقالا : والله ما أخرجنا إلا شدة الجوع .

فقال النبى ﷺ :

«وأنا والذى نفسى بيده ما أخرجنى غير ذلك» .

ثم انطلقوا إلى دار أبى أيوب الأنصارى رضي الله عنه فأتاهم بخبز ولحم وتمر ورطب . فلما أكلوا وشبعوا ، قال النبى ﷺ :

«خبز ولحم وتمر ورطب !!» ودمعت عيناه ثم قال :

«والذى نفسى بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة» .

(*) أخرجه مسلم فى «الأشربة» باب «جواز استتباع غيره إلى دار من يثق برضاه» (١٣ / ٢١٠ مع شرح النووى) .

هذا موقف نبوي كريم يحمل قيمًا تربوية هادية، أهمها :

شكر الله المنعم على كل ما ينعم به على عباده حتى الأكلة والشربة؛ كي ينال المؤمن الثواب من الله تعالى، ويصبح الطعام والشراب من ألوان الطاعات التي يتقرب بها العبد لله تعالى . فإذا نوى المؤمن وقصد بالطعام أن يتقوى به على طاعة الله وعلى العمل النافع، وأكل دون أن يعيب طعامًا، ولا يأكل إلا إذا أصابه الجوع، وإذا أكل لم يشبع فمن هدى النبي ﷺ قوله : «نحن قوم لا نأكل إلا إذا جعنا، وإذا أكلنا لم نشبع» كذلك يحرص على التسمية في أوله، وبعد أن ينتهي من الطعام يتوجه لله المنعم بالحمد والشكر، نال المؤمن بطعامه على هذه الصفة أجرًا عظيمًا من الله، وصار هذا الطعام عملاً صالحًا يثاب المؤمن عليه . وهكذا ينبغي للمؤمن أن يربط كل أموره بربه عز وجل .

هذه النفس الصافية والروح المتعلقة بربها التي تتوجه إليه في كل شأنها بالشكر والحمد ، ولعل في دمع عيني رسول الله ﷺ عند ذلك إشارة إلى غفلة كثير من الناس عن شكر ما بين أيديهم من نعم، فأحب أن يلفت انتباه الأمة إلى أن المؤمن مسئول عن كل نعيم أنعم الله به عليه حتى الأكلة والشربة، فما بالنا بما هو أكثر من ذلك من صحة الأبدان والأمن والأولاد والأزواج والأموال . . وغير ذلك من نعم الحياة الدنيا ، هذا فضلاً عن النعم الغالية التي تأتي في مقدمة كل النعم، وهي نعمة الإيمان ونعمة الدخول في خير أمة أخرجت للناس ونعمة الطاعة ونعمة رسول الله ﷺ ، والسؤال من الله للمؤمن عن هذه النعم يوم القيامة يدفع المؤمن إلى أن يؤدي حق الله فيها، من صدقة وزكاة وإعانة للناس وتواضع لله وألا يتفاخر ولا يتعالى بها، وأن يجعلها معونة له فيما يرضي الله تعالى : ﴿ **وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ** ﴾ [الضحى/ ١١].

٧ – اقتصَّ منى يا أُسَيد

فى ذات يوم كان أُسَيْد يُطْرِفُ الناس بطرائفه، فغمزه النبى ﷺ فى خاصرته، كأنه يستحسن ما يقول، فقال أُسَيد : أوجعتنى يا رسول الله !

فقال النبى ﷺ : «اقتص منّى يا أُسَيْد».

فقال أُسَيد :

لم يكن علَيَّ قميص حين غمزتنى يا رسول الله.

فرفع رسول الله ﷺ قميصه عن جسده الشريف، فاحتضنه أُسَيد وجعل يقبِّله، ويقول :

بأبى أنت وأمى يا رسول الله، إنه لَبُغْية كنت أتمناها ! !

(*) مستدرك الحاكم (٣ / ٢٨٨ – ٤ / ٣٣١).
وهذا الموقف ورد شبيه له مع سواد، فقد مرّ رسول الله ﷺ يوم بدر بصفوف المسلمين يعدلها وفى يده قدح، فمرّ بسواد بن غزية وهو متقدم عن الصف، فطعنه فى بطنه بالقدح وقال : استو يا سواد.
فقال : يا رسول الله اوجعتنى وقد بعثك الله بالحق والعدل فاقدْنى.
فكشف عن بطنه فقال : اقتص منى يا سواد.
فاحتضنه وقبل بطنه.
فقال ﷺ : ما حملك على هذا ؟
قال : حضر من أمر الله ما ترى، فاردت ان يكون آخر العهد بك ان يمس جلدى جلدك.
فدعا له الرسول ﷺ بخير.

هذا موقف نبوى كريم، به دلالات إيمانية هادية، وقيم تربوية نافعة . من ذلك :

الدلالة الأولى : استحسان النبى ﷺ لصنيع أُسَيْد من هذه الطرائف التى تدخل السرور على قلوب أصحابه . وفى هذا إشارة واضحة إلى أهمية الترويح فى حياة المسلم لتجديد نشاطه ودفع الرتابة والملل عن حياته، لكن الترويح مشروط بألا يجرَّ إلى مُحرَّم كالاستهزاء بالغير أو نحو ذلك، أو يُضيع فرضًا من الفرائض أو حقًا من الحقوق .

وكان رسول الله ﷺ يمزح مع أصحابه، لكنه كان لا يقول إلا حقًا، من ذلك قوله لامرأة عجوز - ذات مرة: « لا تدخل الجنة عجوز » فتغير وجه المرأة، فقال لها النبى ﷺ : « لأن الله سيعيد إليك شبابك وجمالك »[١] .

وهذا فقه نحتاج إليه فى حياتنا المعاصرة، فالمغالاة من بعض الناس فى منع الترويح والطرائف من حياة المسلم، ظنًا منهم أن فى هذا مزيداً من تقوى الله عز وجل، هذه المغالاة غير مقبولة . والذى نهى عنه رسول الله ﷺ هو كثرة الضحك، كى لا تتحول حياة المسلم كلها إلى لهو وصخب، وأدب الطرائف والترويح فى الإسلام أن يكون فى حدود ما أحل الله عز وجل .

والدلالة الثانية : هذا الحرص الواضح من سيدنا رسول الله ﷺ على تمكين أصحاب الحقوق والمظالم من حقهم، حتى وإن كانت هذه المظلمة شيئًا يسيرًا . وفى الحديث الذى أخرجه مسلم عن أبى أمامة أن رسول الله ﷺ قال : « من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة » . فقال الرجل : وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله ؟ فقال : « وإن كان

---

(١) رواه الترمذى فى الشمائل مرسلاً، وأسنده ابن الجوزى من حديث أنس بسند ضعيف، قاله العراقى فى تخريج الإحياء (٧ / ٥٠٠) .

قضيباً من أراك »(١) .

وفى هذا الموقف الذى بين أيدينا يضرب النبى ﷺ المثل الأعلى لأمته، ويقدم لهم الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة فى تمكين أصحاب الحقوق من حقوقهم، حتى وإن كان شيئًا يسيراً نستهين به فيما بيننا .

الدلالة الثالثة : هذا الحب العظيم الذى يملأ قلب أُسَيْد، فكانت رغبته الودودة فى أن يُقبل جسد رسول الله ﷺ، كي يمس جسده جسد رسول الله ﷺ، فلجسد رسول الله ﷺ من الخصائص التى أكرمه الله بها فى الدنيا والآخرة، ما يحتاج إلى كتب كاملة، وقد ألف العلماء فى شمائله ﷺ وخصائصه الجسدية الكثير من الكتب، من ذلك : شمائل الترمذى، واللفظ المُكرَّم بخصائص النبى صلى الله عليه وسلم للخيضرى .

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، واجمعنا به يوم القيامة، واسقنا من يده الشريفة شربة هنيئة لا نظمأ بعدها أبداً .

---

(١) أخرجه مسلم فى « الإيمان » ح ٢١٨، وقوله ﷺ : « قضيباً من أراك » أى : عود من هذا الشجر .

٨ - سر القبــول

شُغِلَ رجل بحب ثناء الناس ومدحهم، فالتقى برسول الله ﷺ وقال له :

يا رسول الله، إني أقف الموقف أريد وجه الله، وأريد أن يذكرني الناس.

فلم يرد عليه النبي ﷺ . فنزل فيه قول الله تعالى : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف/١١٠].

(*) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير.

هذا الموقف يقدم معانى ودلالات أهمها :

الدلالة الأولى : أنه يقدم لنا تحديداً دقيقًا لصفة العمل الذى يُرجى له القبول عند الله تعالى. وشأن هذا الرجل فى الموقف الذى بين أيدينا شأن كثير من الناس يدفعهم لإجادة العمل حُسن السمعة، أو الشهرة، أو مشاعر الأحباب... إلخ.

والإسلام يرقب بعناية فائقة ما يقارن ويصاحب أعمال الناس من نيّات، وما يلابسها من مشاعر وعواطف. ولا يرقى العمل، ليكون موضع القبول عند الله تعالى إلا إذا تخلص من شوائب النفس وخلص لمرضاة الله وحده، وهذه حقيقة تؤكدها آيات القرآن الكريم، وظهرت واضحة فى هذا الموقف.

قال الله تعالى :

﴿ **إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا** ﴾ [الإنسان/٩].

وقال تعالى :

﴿ **الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ * إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ * وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ** ﴾ [الليل ١٨ : ٢١].

ولتصحيح اتجاهات القلب وتجريدها لله تعالى، قال النبى ﷺ : «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى...»[١].

إذن صلاح النية وإخلاص الفؤاد لرب العالمين يرتفعان بالعمل الدنيوى ليكون طاعة لله تعالى.

وأما الدلالة الثانية : أن العمل لا اعتبار له عند الله تعالى إذا جاء مخالفًا

---

(١) رواه البخارى (١/ ٢، ٨/ ١٧٥)، وأبو داود (٢٢٠١).

لهدى القرآن والسنة، فصلاحية العمل بموافقة هدى القرآن وهدى سنة رسول الله ﷺ.

ونخرج من هذا الموقف بأن العمل الذى يرجى له القبول عند الله تعالى مشروط بشرطين، هما : الإخلاص، والموافقة للكتاب والسنة.

الدلالة الثالثة : أن وجود أحد الشرطين فى العمل: الإخلاص، أو موافقة الكتاب والسنة، وافتقاد أحدهما ليس كافيًا، ليكون العمل عبادة يرجى لها القبول عند الله تعالى.

فالرجل كان يعمل العمل الصالح لكنه مصاب بداء الرياء وطلب ذكر الناس والشهرة، فانتفى الإخلاص.. فضاع العمل وسقط. ويقول النبى ﷺ : «إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ : من كان أشرك فى عمله لله أحداً فليطلب ثوابه من عنده؛ فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك به»[١].

---

(١) رواه ابن ماجه (رقم ٤٢٠٢) وأصله فى صحيح مسلم بنحوه (٤ / ٢٩٨٥).

٩ - مهرها الإسلام

كان أبو طلحة فارس بني النجار، وله منزلة محمودة بين قومه، ولما علم أبو طلحة أن أم سُلَيْم توفي عنها زوجها ذهب إلى خِطْبَتِها قبل أن يسبقه أحد إليها، حيث كانت أم سُلَيْم راجحة العقل حسنة الصفات.

فلما ذهب يخطبها قالت له:

يا أبا طلحة، مثلك لا يُرد لكني وأنا مسلمة وأنت مشرك. فقال لها:

لعل هناك من هو أكثر مني ذهبًا وفضة!

فقالت له:

أشهد الله ورسوله إن أسلمت يا أبا طلحة رضيت بك زوجًا من غير ذهب ولا فضة، وجعلتُ إسلامك لي مهراً.

ففعل، فكان المسلمون يقولون:

ما سمعنا بمهر قط كان أكرم من مهر أم سُليم، فقد جعلت مهرها الإسلام.

(*) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/٨).

هذا موقف إيماني كريم، يحمل دلالات هادية، فيها الأسوة وفيها القدوة لجميع المسلمين.

أولى هذه الدلالات هي بيان أثر الإسلام في النفوس؛ فالإسلام يربي في النفوس القيم العالية، ويتجاوز حدود إسعاد النفس بالمال من ذهب وفضة، لأن النفس بالإسلام وهديه تسمو وترقى لتسعد بالمعاني العظيمة والقيم النبيلة، وما أعده الله للمؤمنين عنده في الجنة، فأم سُليم لم تفتن بمكانة أبي طلحة ولا بالذهب ولا بالفضة؛ لأن هناك معنى وغاية أكرم، تسكن قلبها ألا وهي رضوان الله عز وجل، لذلك كانت معتزة بإسلامها.

وفي الحديث، قال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به»(١).

فالإيمان الصادق يجعل المشاعر والعواطف مرتبطة بالله، لا تتبع الهوى فتضل، بل تسارع مستجيبة لهدى الله تعالى عن رضا وطمأنينة، فالمؤمن يرضى بما يرضى الله به.

ودرس آخر يظهر من موقف أم سليم حين رفضت الزواج من أبي طلحة حتى يُسلم، وهو أن رغبة المؤمن فيما عند الله تعالى تفوق كل رغبة عنده في متاع الدنيا العاجل، فعلْم أم سليم بأن ما عند الله خير وأبقى، ولرغبتها في تحصيل ثواب إسلام أبي طلحة، وعدته إن أسلم أن تجعل إسلامه مهرًا لها، رغم مكانتها بين قومها ورغبة أشراف القوم في خطبتها، لكنها آثرت الآخرة.

وصدق الله العظيم: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل/٩٦].

ولأن هذه الأسرة قامت على الإيمان ورضا الله تعالى؛ باركها الله وأسبل

---

(١) أخرجه الحافظ في الفتح (١٣/٢٨٩).

عليها نعمة السعادة والرضا وأسعد كلاً منهما بصاحبه.

وفى هذا قدوة صالحة لبنات حواء أن يكون معيار الاختيار، كما وضح النبى ﷺ: «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير»[١].

ولعل فى هذا الموقف الأسوة الصالحة لبناتنا وأولياء الامور بان يكون فى طيب خلق الخاطب وحسن دينه عوض عن المهر المرتفع والمطالب التى تطلب من الخاطب فى زماننا وترهقه من أمره عسراً، وتجعل الزواج أمراً عسيراً، بسبب خضوعنا لعادات بالية وتقاليد زائلة تقوم على التباهى والتفاخر بالماديات التى يعتز بها الناس، من مسكن واسع وفرش وثيرة ومهد مرتفع ونحو ذلك. وكل هذا مخالف لهدى الإسلام الذى ييسر الحلال للناس. وفى الحديث النبوى الشريف: «من بركة المرأة يسر مهرها»[٢].

وأين نحن من يسر رسول الله ﷺ فى الزواج؟ لقد كان يزوج الفقراء العلماء من أهل القرآن بما معهم من قرآن، وكانت الصالحات ترضين بالقرآن مهراً.

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٢/١٦٩) وابن ماجه فى السنن (ح ١٩٦٧).
(٢) رواه أحمد (٦/٧٧، ٩١)، وإسناده جيد.

١٠ - هكذا أمرنا أن نفعل بآل بيت نبينا ﷺ

صلى زيد بن ثابت رضي الله عنه على جنازة، فقربت إليه بغلته ليركبها، فجاء ابن عباس رضي الله عنه فأخذ بركابه، وأمسك بزمام الدابة.

فقال له زيد :

دع عنك هذا يا ابن عم رسول الله ﷺ.

فقال له عبد الله بن عباس :

هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا.

فقال له زيد :

أرني يدك يا ابن عم رسول الله ﷺ.

فأعطاه يده، فإذا بزيد يُقَبِّلها ويقول :

ونحن هكذا أمرنا أن نفعل حبًّا بأهل بيت نبينا.

(*) أخرجه الحاكم وقال: صحيح الإسناد على شرط مسلم، قاله العراقي في تخريج الإحياء (١ / ٥٠)..

هذا موقف كريم بين اثنين من أئمة صحابة سيدنا رسول الله ﷺ، وممن قاموا بأمانة التبليغ عن سيدنا رسول الله ﷺ.

وفي هذا الموقف تربية على الخلق الكريم، حيث نرى هذا التواضع من سيدنا عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - إجلالاً لسيدنا زيد بن ثابت رضي الله عنه فيمسك الدابة ويأخذ بزمامها إكرامًا وإجلالاً لعلم سيدنا زيد بن ثابت، كاتب الوحي، ورأس أهل المدينة في القراءة والعلم، ولمّا نهاه سيدنا زيد عن هذا التواضع الشديد، أظهر سيدنا عبد الله بن عباس نيته الخالصة وحكمته الرشيدة، فقال: «هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا».

ما أحوجنا جميعًا إلى التأسي بهذا الأدب الرفيع في إجلال أهل العلم! كيف لا، والله قد رفع أقدارهم وأعلى مكانتهم ؟! قال الله تعالى: ﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** ﴾ [المجادلة/ ١١].

والله سبحانه وتعالى حين أراد أن يجعل لآدم - عليه السلام - منزلة كريمة، ما كان ذلك بمال ولا شيء من زينة الحياة الدنيا، وإنما كان ذلك بالعلم. قال تعالى:

﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [البقرة/ ٣٠ : ٣١].

فأهلية آدم للخلافة كانت بالعلم.

وهذا الموقف الكريم يقدم لنا الأسوة الطيبة والقدوة الحسنة في محبة آل بيت سيدنا رسول الله ﷺ.

وليتأمل المؤمن أننا فى صلاتنا بعد التشهد نصلى ونسلم عليهم بعد سيدنا رسول الله ﷺ، وذلك فى صيغة الصلاة الإبراهيمية التى أرشدنا إليها رسول الله ﷺ :

« اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، فى العالمين إنك حميد مجيد »(١).

وفى القرآن الكريم نجد قول الله تعالى :

﴿ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود/٧٣].

ولهذا رأينا فى الموقف كيف أخذ سيدنا زيد ﷺ يد سيدنا عبد الله بن عباس – رضى الله عنهما – وقبلها، ثم أعلن عن النية والحكمة من ذلك بقوله : « وهكذا أمرنا أن نفعل حبًّا بأهل بيت نبينا ».

(١) أخرجه البخارى ومسلم، وصيغة الصلاة على النبى ﷺ مذكورة بعدة ألفاظ.

١١ - شُمُنى يا حُذيفة

كان حذيفة بن اليمان ﷺ إذا جلس بجوار منافق أحس به، حتى اشتهر بين الصحابة بأنه يشمُّ رائحة النفاق.

ولمَّا ائتمنه النبى ﷺ على أسرار المنافقين جاءه عمر بن الخطاب ﷺ وقال له:

أعطاك النبى ﷺ قائمة بأسماء المنافقين وائتمنك على أسرارهم، فهل عمر منهم يا حذيفة ؟!

فقال له حذيفة:

يا عمر، أنت من المبشرين بالجنة.

فقال له عمر:

شُمَّنى يا حذيفة، هل تجد فىَّ شيئًا من رائحة النفاق؟!

وحذيفة يكرر:

يا عمر أنت من المبشرين بالجنة.

(*) حوار عمر مع حذيفة، أخرجه مسلم [١/١٢٨ - ١٣٠ ح/٢٣١ (١٤٤)].

هذا الموقف يقدم لنا عظة بليغة في الحذر من النفاق، وذلك لخطورة النفاق من وجهين :

الوجـــه الأول : أن النفاق أمر خفي غير واضح وضوح الإيمان أو الكفر، دليل ذلك أن الله تعالى في أول سورة البقرة وصف المؤمنين في خمس آيات، ووصف الكافرين في آيتين، ووصف المنافقين في تسع آيات؛ وما ذلك إلا لخفاء النفاق.

الوجـــه الثـــاني : خطورة عاقبة النفاق، فقد توعد الله المنافقين بالدرك الأسفل من النار يوم القيامة، قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا** ﴾ [النساء/١٤٥].

وقـــال تعـــالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ** ﴾ [التحريم/٩].

فقد كان صحابة رسول الله ﷺ على حذر من مرض النفاق، أو أن يوجد بهم أدنى صلة أو رائحة تربطهم بالنفاق، لذلك أسرع عمر بن الخطاب ﷺ إلى حذيفة ﷺ ليطمئن على نفسه.

دلالة أخرى في هذا الموقف وهي : هذا الخشوع من سيدنا عمر ﷺ فهو رغم منزلته في الطاعة ، وعند رسول الله ﷺ ، ورغم أنه من المبشرين بالجنة، إلا أنه خائف، يصدق عليه قول الله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ** ﴾ [المؤمنون/ ٦٠].

ولما سألت السيدة عائشة – رضي الله عنها – رسول الله ﷺ عن هذه الآية: هل هو الرجل يسرق ويزني ويفعل السيئات ويخاف إذا رجع إلى ربه أن يعاقبه الله عليها؟ قال لها : لا يا عائشة، إنما هو الرجل يصوم ويصلي ويتصدق

ويفعل الخيرات ويخاف إذا رجع إلى ربه ألا يتقبل الله منه ذلك، يا عائشة أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون[١].

وهذا شأن الفائقين في كل موقع، إنما هم على حذر ويقظة من أن يصيب عملهم شائبة أو خلل.

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير عن عائشة - رضي الله عنها -.

١٢ - لم يبق لي شيءٌ يُباع

جاء سائل إلى سيدنا علي بن أبي طالب ﷺ يسأله عطاءً، فكتب له :

لم يَبْقَ لي شيءٌ يُباعُ بدرْهَمٍ
تُغْنيكَ حالةُ مَظْهَري عن مَخْبَري

إلاَّ بقيةُ ماءِ وجهٍ صُنْتُهُ
من أن يُباعَ ونِعْمَ أنتَ المُشتَري

فأعطاه الإمام علي عطاءه كاملاً، وكتب له :

عاجَلْتَنا فأتاكَ عاجلُ برِّنا
قُلاًّ ولو أمْهَلْتَنا لم نَقْتِرِ

فخُذِ القليلَ وكُنْ كأنكَ لم تَبِعْ
ما صُنْتَهُ وكأننا لم نَشْتَرِ

(*) ذكره الإمام الغزالي في الإحياء (٣ / ٣٥٥) بغير هذا السياق.

هذا الموقف يربي فينا خلقًا إيمانيًا أمرنا الله به في قرآنه، قال الله تعالى : ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة/٢٦٣].

إن بعض الناس ينظر لصاحب الحاجة من الفقراء والمساكين وغيرهم بترفع، وأنه الأعلى والأفضل والأكرم، وربما صاحَب العطاء استقلال واستهانة بالفقير، وربما صاحبت العطاء كلمات تجرح المشاعر وتنال من كرامة الفقير، وكل هذا يحدث حين يضعف الإيمان بالله تعالى، وأما حين يزيد الإيمان في القلب فإن المؤمن يدرك أن المعطي على الحقيقة هو الله تعالى.

وحين يُكرم الله عبداً من عباده فيُجري على يديه خيراً، ويجعله سبباً لنفع إخوانه المؤمنين، فينبغي أن يُرجع الفضل لصاحب الفضل وهو الله رب العالمين، وألا يرى لنفسه فضلاً في هذا العطاء، ويعلم أن الله يختبر عبده بالغنى كما يختبره بالفقر.

ورحم الله ابن عباس – رضي الله عنهما – حيث قال : عباد الله، لو شاء الله لجعلكم أغنياء لا فقير فيكم، ولو شاء لجعلكم فقراء لا غني فيكم، ولكن اقتضت حكمته أن يبتلي بعضكم ببعض.

تجسّدت كل هذه المعاني الطيبة في موقف الإمام عليّ ﷺ من السائل، حيث أجزل له العطاء مع حفظ كرامته ورعاية مشاعره، ولزوم التواضع، وإظهار أنه كان يود أن يكون العطاء أكثر من هذا، يظهر هذا من قوله :

عاجلتنا فأتاك عاجلُ برِّنا

قُلاً ولو أمهلتنا لم نُقتِر

فَخُذِ القليلَ وكُنْ كأنَّكَ لم تَبِعْ

مَا صُنْتَهُ وكأنَّنا لمْ نَشْتَرِ

كذلك ينبغي أن تصطفي ونختار من نسأل، حين نقع في ضرورة أو حاجة، فقد تخير الرجل من يملك قضاء حاجته، ويُرجى خيره، فليس من الحكمة أن نسأل من لا يملك قضاء المصالح أو من لا يرجى خيره.

أيضًا يستفاد من الموقف حُسن السؤال، والتلطف في الطلب، وحسن الإجابة والترفق بالسائل.

١٣ - المَلَك ينتصر لك

بينما رسول الله ﷺ جالس ومعه أصحابه، وقع رجل بأبي بكر رضي الله عنه فسبَّه، فصمت عنه أبو بكر، ثم آذاه الثانية فصمت عنه أبو بكر، ثم آذاه الثالثة فانتصر أبو بكر لنفسه، فقام الرسول ﷺ من المجلس.

فقال أبو بكر :

أوَجَدْتَ عليَّ يا رسول الله ؟

فقال رسول الله ﷺ :

«نزل ملك من السماء يكذبه بما قال لك، فلما انتصرت لنفسك ذهب الملك وقعد الشيطان، فلم يكن رسول الله يجلس إذا وقع الشيطان».

(*) أخرجه أحمد (٢ / ٤٣٦) ، وأبو داود (رقم ٤٨٩٧) .

هذا موقف إيماني يقدم دلالات أخلاقية هادية، منها :

عدم مجاراة أهل الإساءة في إساءتهم، ولا أهل الفساد في فسادهم، وإنما ندفع بالتي هي أحسن، فالحلم يسكت فم السفيه، يؤكد هذا المعنى قول الله تعالى : ﴿ **وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** ﴾ [فصلت / ٣٤] .

وهكذا كان النبي يربي أصحابه على الخلق الكريم، ومن أساليب التربية النبوية أنه قام عن المجلس تاركًا أبا بكر الصديق وحده، بالرغم من أنهما أتيا إلى المجلس معًا، ليبين النبي ﷺ أن الصحبة تكون في الخير، وتنقطع بالمعصية، فشعار المؤمن في الصحبة : «طاعة الله تجمعنا، ومعصية الله تفرقنا» وذلك لأن القصد من الصحبة المعونة على الطاعة والذكر .

ودلالة أخرى تستفاد من هذا الموقف، وهي أن مَنْ كف نفسه عن مجاراة أهل الإساءة إذا أساءوا إليه، فإن الله تعالى يدافع عنه، وينتصر للإنسان الملتزم .. ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ** ﴾ [المدثر / ٣١]، ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا . . .** ﴾ [الحج / ٣٨] .

أيضًا يستفاد من هذا الموقف الكريم تقديم النصيحة وعدم كتمانها حياءً من الصاحب والعزيز على الإنسان؛ فالنبي ﷺ نصح أبا بكر ﷺ بأن يترك الانتصار لنفسه .

وقد قدمت السنة النبوية علاجًا شافيًا لمشاعر الإنسان إذا اضطربت وقت الغضب، كي لا يندفع نحو الخطأ تحت ضغط الانفعال وغريزة الانتقام . وفي الحديث النبوي : «إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس فإن ذهب الغضب عنه وإلا فليضطجع»[1] .

---

(١) سنن أبي داود (٤٧٨١) .

ومن هديه ﷺ في علاج الغضب الوضوء؛ لقوله ﷺ : «إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ»[١] .

أيضًا من هديه ﷺ في علاج انفعال الغضب، قوله حين رأى رجلاً انتفخت أوداجُهُ واحمر وجهه : «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه الغضب هي : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»[٢] .

---

(١) أخرجه أبو داود (ح ٤٧٨٤) ، وأحمد في المسند (٤ / ٢٢٦) .
(٢) أخرجه الترمذي في السنن (ح ٣٤٥٢) .

١٤ – من حِلم رسول الله ﷺ

رُوى أن يهوديًا يُدعى زيد بن سَعْنَة كان له عند رسول الله ﷺ دَيْنٌ، فـأراد أن يطلب دَيْنَه قـبل حلول أجله، فـاعـترض الـيهودى رسـول الله ﷺ فى طريق المـدينة، وقال:

إنكم بنى عبد المطلب قوم مطل (أى: مماطلون فى سداد الدين)، ورأى عمر بن الخطاب ﷺ ذلك فاشتد غضبه وهمَّ بمعاقبة الرجل.

فقال له النبى ﷺ:

«كنَّا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر: أن تأمرنى بحسن الأداء، وتأمره بحسن الطلب. اذهب يا عمر فاقضه حقه وزدْ عشرين صاعًا من التمر».

وكانت نتيجة ذلك أن أسلم اليهودى، وشهد بقية المشاهد مع رسول الله ﷺ.

(*) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٢ / ٣٢، ٦٠٥).

هذا الموقف يحمل فقهًا عظيمًا في حسن المعاملة فيما يتصل بالدَّين، وما ينبغي للمؤمن أن يتصف به من حسن الأداء وحسن الطلب والتقاضي، مع التخلق بالسماحة والعفو، لما لذلك من أثر طيب، ولهذا الموقف قصة هادية، وهي أن زيد بن سعنة كان قد قرأ في الكتب السابقة عن رسول الله ﷺ وعرف صفاته وتأكد منها، إلا صفتين :

الأولى : أن حلمه يسبق غضبه.

والأخرى : أنه لا يزيده جهل الجاهل عليه إلا حلمًا.

وظل زيد يحضر مجالس النبي ﷺ ويتودد إليه، حتى تم هذا الدَّين لفقير في حضرة النبي وبضمانه ﷺ، وأتى زيد عامداً قبل الموعد المحدد لقضاء الدَّين، وطلب دَيْنَه بهذه الصورة الاستفزازية، وتهجَّم على رسول الله ﷺ بما لا يليق من الكلام، حيث وصفه بالمماطلة، واشتد ذلك على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فَهمَّ بمعاقبة الرجل. ولكن صاحب الخلق العظيم ﷺ قال لعمر: « كنا أحوج إلى غير هذا منك : أن تأمرني بحسن الأداء وتأمره بحسن الطلب ».

ثم أمر النبي ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يدخل بيت المال، وأن يجزل له العطاء، فلما دخل زيد بن سَعْنَة مع عمر قال له : أما تعرفني يا عمر؟ قال : من ؟ قال أنا زيد بن سَعْنَة. قال عمر : الحبر اليهودي؟ قال: نعم. قال : فما حملك على هذا ؟ قال : أحببت أن أختبر صفتين في رسول الله ﷺ، هما : أن حلمه يسبق غضبه، وأن جهل الجاهل عليه لا يزيده إلا حلمًا. ثم أسلم زيد بن سعنة وشهد بقية الوقائع مع رسول الله ﷺ .

وفي هذا أبلغ العظات في التأسي برسول الله ﷺ في العفو والتسامح، وصدق الله إذ يقول : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت / ٣٤].

وصلى الله على سيدنا محمد معلم الناس الخير، وعلى آله وصحبه وسلم.

١٥ - من فقه التربية

قال أنس بن مالك ﷺ :

أرسلني رسول الله ﷺ يومًا لحاجة، فخرجت وقصدت صبيانًا يلعبون في السوق لألعب معهم، ولم أذهب لما أمرني به، فلمَّا صرت إليهم شعرت بإنسان يقف خلفي ويأخذ بثوبي، فالتفتُّ فإذا رسول الله ﷺ يبتسم ويقول:

يا أُنَيْس، أذهبت حيث أمرتك ؟» فارتبكت وقلت :

نعم، إني ذاهب الآن يا رسول الله !

والله لقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لشيء صنعته : لم صنعته ؟ ولا لشيء تركته : لم تركته؟!

(*) الحديث في الصحيح بعدة روايات، راجع مجمع الزوائد (٩ / ١٨).

هذا الموقف يحمل دلالات هادية :

الدلالة الأولى : سعة صدر رسول الله ﷺ وعدم انفعاله أو غضبه حين رأى غلامه أنسًا يلعب مع الصبيان، وترك الحاجة التى أمره بها. وفى هذا إدراك منه ﷺ لطبيعة الصبيان ونزوعهم إلى اللهو واللعب، وما قد يصدر عنهم من مخالفات تحتاج فى تقويمها إلى معلم رحيم ومربٍّ كريم لا يعرف الفظاظة ولا الغلظة ولا العنف.

الدلالة الثانية : تظهر فى الأسلوب الودود الذى خاطب به النبى ﷺ غلامه، حيث ناداه باسم التدليل (أُنَيْس)؛ كي تأنس نفسه برسول الله ﷺ.

وفى هذا ما ينبئ عن رحمة رسول الله ﷺ ورأفته ورفقه. كيف لا والله سبحانه وتعالى قد مدحه بهذه الأوصاف في القرآن الكريم؟! ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ [القلم/٤]، وقوله تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنبياء/١٠٧]، وقوله تعالى : ﴿ **حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [التوبة/١٢٨].

وهذا سرٌّ من أسرار نجاح القائد فى موقعه، حين يحتوى بقلبه نفوس من حوله. فى حين حذرنا الله تعالى من الفظاظة والغلظة التى تفرق الأتباع وتشتت الشمل، قال تعالى :

﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ** ﴾ [آل عمران/١٥٩].

الدلالة الثالثة : تظهر من تعقيب أنس رضي الله عنه في وصف معاملته ﷺ له طوال مدة خدمته له؛ حيث يقول : والله لقد خدمت رسول الله ﷺ عشر

سنين فما قال لشيء صنعته : لم صنعته ؟ ولا لشيء تركته : لم تركته؟

وفي هذا دلالة على حكمة النبي ﷺ وتنوع أساليبه في التربية، ومن بينها ضرب الأسوة والقدوة الحسنة، والمتابعة، دون الزجر والأمر أو النهي المباشر، وقد يكون هذا أجدى مع الصبية .

الدلالة الرابعة : حسن معاملته ﷺ لخدمه، فسيدنا أنس ﷺ من رواة الحديث، وسيدنا زيد من قادة الجيش، وأسامة بن زيد –رضي الله عنهما – من قادة الجيش وغيرهم ممن خدموا رسول الله ﷺ .

وفي هذا دعوة محمدية لأولي الأمر وأصحاب الأعمال أن يرفقوا بمن يعملون تحت أيديهم، وأن يعاملوهم كما يعاملون أبناءهم وإخوانهم .

١٦ - بين الأمانة والإمارة

جاء أبو ذر الغفارى ﷺ إلى رسول الله ﷺ وقال له :

يا رسول الله ، ألا تستعملنى ؟

فضرب بيده على منكبه ، ثم قال :

«يا أبا ذر ، إنك ضعيف ، وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزى وندامة ، إلا من أخذها بحقها وأدّى الذى عليه فيها» .

(*) أخرجه مسلم فى «الإمارة» باب «كراهة الإمارة بغير ضرورة» (٤ / ١٢ / ٢١٠ مع شرح النووى) .

هذا موقف تربوى يحمل دروسًا نافعة للأمة فى مجال الإدارة وتوزيع الأعمال المختلفة .

الـدرس الأول : هو أن رسول الله ﷺ لم يتحرك بدافع من عاطفة الحب نحو صاحبه أبى ذر ﷺ فحسب، بل قدّم لنا ﷺ القدوة الصالحة فى مصارحة طالب الرياسة أو الوظيفة بنقص كفاءته ومؤهلاته التى ترشحه للنجاح فيها . ثم بيّن ﷺ أن الإمارة أمانة نسأل عنها يوم القيامة .

الدرس الثانى : أنّ قوله ﷺ : « يا أبا ذر، إنك ضعيف » ليس معناه ضعفًا فى الإيمان، فلقد كان أبو ذر ﷺ من خيار الصحابة وأفضلهم إيمانًا بالله تعالى، ولكن الضعف هنا يفهم من هذا السياق على أنه ضعف كفاءة وإمكانية للقيام بأمر الإمارة .

ويؤكد النبى ﷺ بذلك قاعدة إيمانية، هى أن حُسنَ النية وحده لا يكفى لمعالجة المشاكل وإنجاز الأعمال، بل لابد من الكفاءة والقدرة العملية على إنجاز ما يسند إلى المرء من أعمال .

والقرآن الكريم أرسى هذه القاعدة فى قصة سيدنا يوسف – عليه السلام –، حين لم يقدم نفسه لإدارة شئون المال بنبوته وتقواه فحسب، بل بحفظه وعلمه أيضًا : ﴿**قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**﴾ [يوسف / ٥٥] .

وأبو ذر ﷺ لما طلب الولاية لم يجده النبى ﷺ كُفؤًا لها قادرًا على القيام بأعبائها، فحذّره منها، والأمانة تقضى بأن نصطفى للأعمال أحسن الناس قيامًا بها، فإذا ملنا عنه إلى غيره – لهوى أو رشوة أو قرابة – فقد ارتكبنا بتنحية القادر وتولية العاجز خيانة فادحة .

قال رسول الله ﷺ : «من استعمل رجلاً من عصابة وفيهم من هو أرضى الله منه - أي أصلح - فقد خان الله ورسوله والمؤمنين»[١].

وقد أرشدت السُّنة إلى ان خيانة الأمانة، مظهر من مظاهر الفساد الذى يقع في آخر الزمان، فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يسأله : متى الساعة ؟ فقال له النبى ﷺ : «إذا ضُيِّعت الأمانة فانتظر الساعة»، فقال الرجل : وكيف إضاعتها ؟ قال : «إذا وُسِّدَ الأمر لغير أهله، فانتظر الساعة»[٢].

وهكذا عظَّم الإسلام الأمانة؛ كي يُخلِص الرجل في عمله، ويهتم لإجادته، ويسهر على حقوق الناس ومصالحهم التي وُضِعت بين يديه، وأن يحرص الإنسان على مراقبة الله في عمله لأنه أمانة سوف يُسْأَلُ عنها يوم القيامة.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤ / ٩٢) وقال : صحيح الإسناد، وراجع الترغيب والترهيب (٣ / ١٧٩).
(٢) أخرجه البخاري (١ / ٢٣، ٨ / ١٢٩).

١٧ - من فقه الأزمات

حَرَّض أحد أحبار اليهود شابًا يهوديًا للإيقاع بين الأنصار (الأوس والخزرج)، وأن يذكِّرَهم بيوم بُعاث، الذى انتصر فيه الأوس على الخزرج، فأثمرت الفتنة، وحمل كلٌ من الأوس والخزرج السلاح للقتال، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأسرع ومعه أصحابه من المهاجرين.

فقال لهم النبى ﷺ :

«يا معشر المسلمين، الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألَّف بين قلوبكم؟».

وهنا عرف القوم (من الأوس والخزرج) أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم، فبكوا وعانق بعضهم بعضًا ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ مطيعين.

(*) سيرة ابن هشام (٢ / ١٤٦).

هذا الموقف حسبه من الأهمية أن الله أنزل فيه قرآنًا يُتلى، وهو موقف يقدم لنا درسًا غاليًا في الحذر من الدسائس، ويقدم لنا درسًا في الحفاظ على وحدة الأمة.

فالمسلمون أمة واحدة، ولكن الخطر يأتي من الدسائس التي تريد أن تفرق وحدتهم، وقد بدأت هذه الدسائس منذ عهد رسول الله ﷺ حين جمع الله الأوس والخزرج على الإسلام، وألف بين قلوبهم على يد رسول الله ﷺ وانتهى ما بينهم من شحناء ومعارك، لكن اليهود - قاتلهم الله - غاظهم أن يروا وحدة المسلمين وقوتهم، فأثاروا الفتن والدسائس، وأرسلوا شأس بن قيس يُذكّر الأوس والخزرج بمعارك الجاهلية، وأشعار كل قبيلة وما بها من التباهي والتفاخر بالنصر، فأيقظ فيهم روح القبليّة، فنادى كل فريق: يا للأوس، ويا للخزرج !! يا للسلاح !! وسمع النبي ﷺ فأسرع إلى القوم، ونادى فيهم: «دعوها فإنها جاهلية». أي أن التداعي بالقبلية أمر من أمور الجاهلية التي لا يليق بمن أكرمه الله بالإيمان أن يأتي شيئًا منها. وأنزل الله على قلب حبيبه قرآنًا يُتلى، قال الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ** ﴾ [آل عمران/ ١٠٠].

وتلا النبي ﷺ على القوم قرآن الله عز وجل فبكوا وذرفت أعينهم الدموع، وعانق الرجال بعضهم بعضًا، وانتبهوا وأدركوا أنها نزغة شيطان، وأنها دسيسة يهودي خبيث أراد أن يكيد للمسلمين.

ومن دروس الموقف - أيضًا - أهمية الاعتصام بحبل الله تعالى والاجتماع على القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، فلابد للأمة من شيء تجتمع عليه، يؤلف بينها ويزيل ما بينها من شقاق وخلاف.

قال الله تعالى : ﴿ واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران/ ١٠٣].

ومن دروس الموقف أيضًا: الحذر من الخلاف والفرقة؛ فإنها من أمور الجاهلية، قال الله تعالى : ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [آل عمران/ ١٠٥ : ١٠٦].

وما أحوج أمتنا فى ظروفنا المعاصرة أن تأخذ العبرة من هذه المواقف المحمدية القرآنية، وكفانا فرقة، وكفانا تمزقًا، وإن كان أهل الباطل قد اجتمعوا واتحدوا من أجل باطلهم؛ فأولى بأهل الحق أن يجتمعوا من أجل حقهم.

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد/ ١١].

ومن الدروس المهمة فى هذا الموقف :

أولاً : مسارعة النبى ﷺ فور وصول خبر الفتنة؛ ليدرك المشكلة فى بدايتها، فتكون السيطرة عليها أسرع وأيسر.

ثانيًا: ترى حكمة رسول الله ﷺ فى المعالجة من خلال خطاب الفريقين (الأوس والخزرج) بأسلوب مقنع يذكرهم فيه بما أنعم الله عليهم من أخوة الإسلام وهداية الإيمان، ويحذرهم من عدوهم الأكبر إبليس عليه اللعنة، الذى

نزغ بينهم وحاول أن يوقع بينهم العداوة والبغضاء . فهل يليق بمن ألف الله بين قلوبهم وجعلهم إخوانًا متحابين أن ينتكسوا إلى أخلاق الجاهلية وقبليتها وعصبيتها وقد هداهم الله ؟!

ثالثًا : سرعة رجوع المؤمن إلى الحق، وعدم التمادى فى الباطل، فالصحابة - من الأوس والخزرج - لمَّا بصَّرهم رسول الله ﷺ بالفتنة وأنها نزغة من نزغات إبليس، عادوا طائعين وبكوا وعانق بعضهم بعضًا . وهذا من أدب المؤمن فى سرعة الاستجابة لأمر الله وأمر رسول الله ﷺ .

١٨ - اصطفاء النبهاء

لما قدم النبي ﷺ إلى المدينة ، جاءه بعض أهلها بغلام من بني النجار يُدعى زيد بن ثابت ، فقالوا للنبي ﷺ :

إن هذا الغلام قد قرأ مما أُنزِلَ عليك بضع عشرة سورة ، فطلب النبي ﷺ منه أن يقرأ فقرأ .

فقال له النبي ﷺ :

« تعلَّم كتاب اليهود ؛ فإني ما آمن يهوداً على كتاب » .

فتعلم زيد لغة التوراة « في نصف شهر » حتى استطاع أن يكتب للنبي ﷺ رسائله إلى اليهود ، ويقرأ له رسائلهم إليه .

(*) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥ / ١٨٦) .

هذا الموقف يحمل دلالات تربوية هادية :

الدلالة الأولى : هي حثّ الصحابة على العلم، وهذه حقيقة من حقائق هذا الدين، وحسبنا أن أول ما نزل من آيات الذكر الحكيم كان قوله تعالى : ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ [العلق/ ١: ٥].

وهذه أول نصيحة تسمو بقدر القلم وتنوه بقيمة العلم، وتعلن الحرب على الأمية الغافلة، وتجعل اللبنة الأولى في بناء كل رجل عظيم أن يقرأ وأن يتعلم.

وسما الله - عز وجل - بدرجات العلماء حتى قرنهم بذاته وملائكته في الشهادة بوحدانيته والإقرار بعدالته، فقال عز من قائل : ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ [آل عمران/ ١٨].

ولا غروَ ولا عجب، فأنّى للعقول الضعيفة والمعارف الضيقة أن تدرك جلال الكبير المتعال ؟! وأنّى لمن يعيش على هامش الحياة - بجهله وظلمته - أن يعرف الحقّ عن رب الحياة، أو أن يلمح طرفًا من صفاته العظمى وآياته الكبرى؟!

إن المعرفة الجيدة أسبق عند الله من العمل المضطرب، ومن العبادة الجافة المشوبة بالجهل والقصور. قال رسول الله ﷺ : «فضل العلم خير من فضل العبادة»[١]. وقال ﷺ : «قليل العلم خير من كثير العبادة»[٢]، وقال ﷺ :

(١) أخرجه الهيثمي في المجمع (١/ ١٢٥)، وقال: رواه الطبراني في الأوسط، والبزار وفيه عبدالله بن عبد القدوس وثقه البخاري وابن حبان وضعفه ابن معين.
(٢) أخرجه الهيثمي في المجمع (١/ ١٢٥)، وقال: رواه الطبراني في الأوسط والكبير وفيه إسحاق بن أسيد، قال أبو حاتم: لا يشتغل به.

«أفضل العبادة الفقه»(١)، وقال ﷺ : «يا أبا ذر، لأن تغدو فتعلم آية من كتاب الله خيرٌ لك من أن تصلي مائة ركعة، ولأن تغدو فتعلم بابًا من العلم - عُمِلَ به أو لم يُعْمَلْ به - خير لك من أن تصلي ألف ركعة»(٢).

والسر في هذا الحكم أن عبادة الجهّال - كصداقتهم - قليلة الجدوى، وهم يضرون أنفسهم من حيث يريدون نفعها، ويؤذون أصدقاءهم من حيث يبغون راحتهم، وجهلة العُبّاد يستمسكون بالدين استمساكًا شديدًا ويتعصبون له تعصبًا ظاهرًا، ولكنهم في ساعة رعونةٍ وغباء يقفون منه الموقف الذي يلحق به الأذى والمعرة، ويجرُّ عليه المتاعب الجمة. أما أولو العلم فإن بصيرتهم الذكية تَحْكُم مسلكهم وتلهمهم الرشد، فلو قل عملهم كثر ما يصحبه من سداد وبصر، ولذلك يقول رسول الله ﷺ : «فقيه واحدٌ أشد على الشيطان من ألف عابد»(٣)، ويقول أيضًا : «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم رجلاً»(٤).

وروى عنه ﷺ أنه قال : «فضل العالم على العابد سبعين درجة، ما بين كل درجتين حُضْرُ الفرسِ سبعين عامًا»(٥) وذلك لأن الشيطان يدع البدعة للناس فيبصرها العالم فينهى عنها، والعابد مقبل على عبادة ربه لا يتوجه لها ولا يعرفها.

والعلم الذي يقبل المسلم عليه ويرحل لطلبه إلى أقصى المشارق

---

(١) أخرجه الهيثمي في المجمع (١/ ١٢٥) وقال: أخرجه الطبراني في الثلاثة وفيه محمد بن أبي ليلى، ضعفوه لسوء حفظه.

(٢) أخرجه ابن ماجه في مقدمة السنن (ح ٢١٩) وقال المنذري: إسناده حسن.

(٣) أخرجه الهيثمي (١/ ١٢٦)، وقال: رواه الطبراني في الأوسط وفيه يزيد بن عياض وهو كذاب.

(٤) أخرجه الخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٨).

(٥) أخرجه الهيثمي (١/ ١٢٧) وقال: رواه أبو يعلى وفيه الخليل بن مرة، قال البخاري: منكر الحديث، وقال ابن عدي: لم أر حديثًا منكرًا وهو في جملة من يكتب حديثه وليس بمتروك.

والمغارب – ليس علمًا معينًا محدود البداية والنهاية، فكل ما يوسّع افق النظر ويزيح السدود أمام العقل، وكل ما يوثق صلة الإنسان بربه حث الإسلام على طلبه .

الدلالة الثانية : هى الدعوة إلى تعلّم اللغات الاخرى، حيث أمر النبى ﷺ زيداً بإجادة العبرية . وفى هذا إشارة إلى أهمية تعلم لغات الشعوب وفهمها؛ لأن رسالته ﷺ للناس قاطبة، وجمع الناس على لسان واحد مستحيل، فاختلاف الألسنة من آيات الله تعالى . ونقل تعاليم الإسلام إلى الأمم الاخرى يحتاج إلى تعلّم لغاتهم.

الدلالة الثالثة : هى اصطفاء النابهين والفائقين من الصبيان لمهام العلم؛ كى تكون للدعوة الإسلامية فى مستقبلها ألسنة نابهة تنقل الدين إلى الدنيا كلها بكل اللغات .

١٩ - عِظوه وبَصِّروه

مــر أبو الدرداء ﷺ بجماعة قد اجتمعوا على رجل يضربونه ويشتمونه ، فسألهم عن خبره . قالوا :

رجل وقع في ذنب كبير .

فقال لهم :

أرأيتم لو وقع في بئـر مــاذا كنتم تفـعلون ؟ قــالوا : نخرجه من البئر .

فقال لهم :

إذن لا تســبوه ولا تضــربوه ، وإنمــا عظوه وبصِّــروه واحمدوا الله الذى عافاكم من الوقوع في ذنبه .

قالوا : أفلا تبغضه يا أبا الدرداء ؟!

فقال لهم :

إنما أبغض فعله السيىء ، فإن رجع عنه فهو أخى .

فبكى الرجل المذنب وتاب من فوره .

(*) رجال حول الرسول ص ٣٦١ .

هذا الموقف من أبي الدرداء ﷺ يتسم بالحكمة في إصلاح النفوس، كما يقدم لها فقهًا عظيمًا في كيفية تغيير المنكر.

فأما عن الدلالة الأولى في هذ الموقف وهي درس الحكمة في إصلاح النفوس، فيظهر ذلك من الخطاب المقنع الذي أقامه أبو الدرداء مع الرجال الضاربين للرجل المذنب، ولجأ في حواره إلى ضرب المثل لتقريب المعنى المراد وليكون الكلام أكثر إقناعًا.

فقال لهم : أرأيتم لو وقع في بئر، ماذا كنتم تفعلون ؟! وهذا سؤال يحرك فيهم روح الإنقاذ والإعانة والإغاثة لمن وقع في كرب أو شدة؛ ولذلك كانت الإجابة منهم : نخرجه من البئر.

وبعد أن أسس ومهّد أبو الدرداء لنصيحته التي يرغب في أن يوجهها لهؤلاء الرجال، أصبح الطريق مفتوحًا في قلوبهم وعقولهم لنصيحته. فقال لهم: إذن لا تسبوه ولا تضربوه، وإنما عظوه وبَصّروه. ثم قال يذكرهم بأن ما هم فيه من طاعة، هو من توفيق الله تعالى لهم وفضل الله تعالى عليهم وليس من أنفسهم، فليحمدوا الله تعالى على توفيقه لهم، يظهر هذا المعنى من قول أبي الدرداء للرجال: واحمدوا الله الذي عافاكم من الوقوع في ذنبه.

وأما عن الدلالة الثانية في هذا الموقف فهي: فقه تغيير المنكر، فالعقاب وسيلة من وسائل تغيير المنكر يختص بها ولي الأمر، كل في موقعه، الرجل في بيته، المدير في عمله ... وهكذا. أما على مستوى الدعوة إلى الله تعالى وعلى مستوى العلاقات الاجتماعية فلا مكان لوسيلة العقاب، وإنما تكون المقدمة للحوار المقنع الذي يسيطر على العقول والقلوب فيحدث التحول العظيم للإنسان من مظاهر الشر إلى الخير والفضيلة.

فإن كان العقاب وسيلة للسيطرة على الجسد وأعضائه، فإن الحوار المقنع وسيلة للسيطر على الفكر والمشاعر.

ولقد حوّل رسول الله ﷺ مجتمعًا كاملاً من الضلال إلى الهداية عن طريق الإقناع العقلي والتأثير في المشاعر.

قال الله تعالى: ﴿**لقد منّ اللهُ على المُؤمنين إذ بعث فيهم رسُولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مُبين**﴾ [آل عمران/ ١٦٤].

واهتدى الصحابة بهدى رسول الله ﷺ في إحداث التغيير في المجتمع عن طريق الفكر والقلب، وهذا عمر بن الخطاب ﷺ يعطي شاعرًا كان يهجو الناس بسبب شدة الفاقة والحاجة، فلما أغناه عمر انقطع الشاعر عن هجاء الناس، فأصبح الناس يتحدثون: لقد قطع أمير المؤمنين لسان الشاعر بكرم عطائه.

دلالة ثالثة في هذا الموقف وهي: الأثر الطيب للأسلوب الحكيم لأبي الدرداء في معالجة هذا الشجار والاشتباك، حيث تحول الضاربون إلى واعظين. تحولوا من جهد الإدانة إلى جهد الإعانة، وأيضًا تحول الرجل بقلبه وعقله عن الضلال والذنب وأعلن توبته.

ومن هنا يتضح لنا أن المسيء المذنب يحتاج دعمًا من الصالحين؛ لتقوية روح الخير والإيمان بداخله، بدلاً من أن تحمل عليه بالضرب والعقاب، فيتمادى وتكون عونًا للشيطان عليه.

٢١ - كيف نُربى أبناءنا ؟

دعت أم عبد الله بن عامر بن ربيعة ولدها عبد الله، ورسول الله ﷺ فى بيتها.

فقالت لولدها : تعال أعطك شيئًا.

فقال لها النبى ﷺ : ماذا أردت أن تعطيه ؟

فقالت : أعطيه تمراً.

فقال ﷺ : «أما إنك لو لم تُعْطِهِ لكتبت عليك كذبة».

(*) أخرجه أبو داود فى «الأدب» باب (٨٧).

هذا الموقف يحمل دلالات إيمانية أخلاقية وتربوية هادية :

أولاها : على ورثة الأنبياء من الدعاة وأهل التربية أن يكون لهم في رسول الله ﷺ أسوة حسنة وقدوة صالحة في ملاحظة أسلوب أولادهم وأتباعهم من طلبة العلم، وعرض هذا السلوك على ميزان الشرع، حتى إذا رأوا ما يخالف شرع الله تعالى بادروا بالنصيحة، وسارعوا بالتحذير من مخالفة هدى الله تبارك وتعالى.

وهذا ما ظهر لنا في هذا الموقف؛ حيث نبه النبي ﷺ السيدة ليلى (أم عبدالله بن عامر) إلى أنها لو لم تعطِ ولدها شيئًا لكُتبت عليها كذبة.

ثانيها : التأسي برسول الله ﷺ في تعليمه للأمهات والآباء أن ينشئوا أولادهم على الفضائل والأخلاق الكريمة، وأن يكون الآباء أسوة وقدوة في أفعالهم، فلا يقول الواحد منا لابنه : كن صادقًا. ثم يقول له : إن سأل عنّي فلان فقل له : إني غير موجود، فهذا تناقض بين القول والفعل، وانهيار للأسوة والقدوة.

ثالثها : أهمية التنبيه على خطورة الكذب مهما كان صغيرًا، وأن الله تعالى يؤاخذ الإنسان على ذلك؛ حتى لا يكبر الأطفال وهم يعتبرون أن الكذب ذنب هين صغير تافه يُستهان به. وكثيرًا ما نقع في مثل هذا التناقض في حياتنا المعاصرة حين نعد أولادنا أو أصحابنا أو العمال الذين يعملون تحت أيدينا بوعود لا تُنفذ، فنقول : إذا نجحت يا ولدي فسوف أعطيك هدية .. إذا لم تفعل كذا فسوف أعاقبك.. ونحن لا نفعل شيئًا من هذه الوعود بحجة أننا نمزح، أو على حد التعبير الشعبي : «نجاري الأحوال» وينبهنا رسول الله ﷺ إلى أن هذا كله يكتب على الإنسان كذبًا. فليحذر

المؤمن من هذه الوعود اللسانية التي لا يعرف واقع الفعل لها وفاء.

يضاف إلى هذا أيضًا: الوقوع في الكذب في مجال اللهو والمزاح، ففي هذا الجانب تساهل كبير، وفي هذا قال النبي ﷺ: «لا يؤمن العبدُ الإيمان كله حتى يترك الكذب في المزاح والمراء»(١)، وكان النبي ﷺ يمزح لكنه لا يقول إلا حقًا.

وتبين السنة المطهرة أن الكذب باب من أبواب الفساد والشر، في مقابل أن الصدق باب من أبواب الخير والنجاة، وفي الحديث، قال النبي ﷺ: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق في حديثه حتى يكتب عند الله صديقًا. وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب في حديثه حتى يُكتب عند الله كذابًا»(٢).

وفي الحديث قال النبي ﷺ: «يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب»(٣).

ولما سئل النبي ﷺ: أيكون المؤمن جبانًا؟ قال: «نعم»، أيكون المؤمن بخيلاً؟ قال: «نعم» أيكون المؤمن كذابًا: قال: «لا»(٤).

---

(١) أخرجه الحافظ في الفتح (١/٥٧).
(٢) أخرجه البخاري في «الأدب»، باب قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ (١٠/٥٢٣/٦٠٩٤ مع الفتح).
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٢٥٢).
(٤) أخرجه الإمام مالك في الموطأ (٢/٩٩٠) مرسلاً.

٢٢ - توقير النبي ﷺ

جَهَّزَ عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - ماء الوضوء لرسول الله ﷺ حين هَمَّ رسول الله ﷺ بصلاة الليل فأشار النبي ﷺ إلى ابن عباس أن يقف بجواره، فوقف ابن عباس خلف رسول الله ﷺ .

فلما انتهت الصلاة، قال له النبي ﷺ :

«ما منعك أن تقف بجانبي ؟».

فقال :

يا رسول الله أنت أجلُّ وأعزُّ من أن أوازيك .

فدعا له النبي ﷺ :

«اللهم آته الحكمة».

(*) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٢ / ٥٩) وأبو نعيم في الحلية (١ / ٣١٥) .

هذا الموقف العظيم بين سيدنا رسول الله ﷺ والصحابي الغلام عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – يفيض بالقيم التربوية الهادية :

القيمة التربوية الأولى : هذا الأدب الجم من ابن عباس – رضي الله عنهما– توقيراً وإجلالاً لسيدنا رسول الله ﷺ، وهذا أدب إيماني أرشدنا القرآن الكريم إليه، قال الله تعالى :

﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الفتح/ ٩] .

ولقد أمر الله المؤمنين بالتزام الأدب بين يدى رسول الله ﷺ، وفي مجلسه وفي حضوره، قال الله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات/ ٢] .

القيمة التربوية الثانية : مكافأة أهل المعروف، ولو بالدعاء لهم؛ فنجد سيدنا رسول الله ﷺ يكافئ ابن عباس بمكافاتين على حسن أدبه :

الأولى : تكريمه تكريماً معنوياً إيمانياً بدعوته إلى الصلاة بجوار رسول الله ﷺ .

الثانية : الدعاء له، حيث دعا له النبي ﷺ دعوة مباركة، وهي : «اللهم آته الحكمة» .

القيمة التربوية الثالثة : وهي تخص العلماء وأهل التربية : أن يقربوا إليهم النبهاء من طلبة العلم، فقد قرَّب النبي ﷺ إليه عبد الله بن عباس – رضي الله

عنهما – لمّا رأى فيه خيرًا وذكاءً، فكان النبى ﷺ يجعله رديفًا له فى السفر (أى يركب خلف رسول الله ﷺ)، وكان يدعوه للصلاة خلفه فى قيام الليل، وكان يرشده ويربيه على الهدى الإيمانى المبارك، من ذلك قوله له:

« يا غلام : احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك . . . »[١].

وكانت الثمرة لهذا القرب وهذه العناية المحمدية بهذا الغلام أن بلّغ عبدالله بن عباس ألفًا وستمائة حديث أثبتها البخارى ومسلم رغم أن عمره عند وفاة النبى ﷺ كان ثلاث عشرة سنة، وأصبح هذا الفتى برعاية رسول الله ﷺ له مرجعًا للأمة فى علوم القرآن والإفتاء واللغة والعقيدة.

---

(١) أخرجه الترمذى فى « صفة القيامة » باب « لم يسم » (٤ / ٦٦٧/ ح ٢٥١٦)، وأحمد فى المسند (١ / ٢٩٣، ٣٠٣)

٢٣ - التيسير هدى إسلامي

في ليلة باردة، في غزوة ذات السلاسل، احتلم عمرو ابن العاص رضي الله عنه وأشفق على نفسه إن اغتسل أن يهلك، فتيمم ثم صلى الصبح بأصحابه، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ.

فقال النبي ﷺ:

«يا عمرو، صليت بأصحابك وأنت جنب؟».

فقال عمرو:

خشيت على نفسي وقد قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء/٢٩]. فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئًا.

---

(٥) أخرجه البخاري في «التيمم» باب «إذا خاف الجنب على نفسه المرض أو الموت أو خاف العطش تيمم» معلقا (١ / ٥٤١)

هذا الموقف يوضح سمة من سمات الإسلام، ألا وهي اليسر ودفع الحرج والمشقة عن الأمة، ولقد كان النبي ﷺ يرشد أمته إلى الأخذ باليسر، وكان التيسير هديه ﷺ، قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة/١٢٨].

وقال تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة/١٨٥].

وقال ﷺ: «يسّروا ولا تعسّروا»[١].

والمتتبع لكل عبادة من العبادات يرى أن التيسير واضح فيها، فالطهارة تكون بالماء، فإن فقد الإنسان الماء أو عجز عن استعماله كان له أن يتيمم، وفي الصلاة إن عجز المُصلّي عن الوقوف صلى قاعداً، وإن كان مسافراً فله رخصة القصر بأن يصلي الصلاة الرباعية ركعتين، وله الجمع بين الظهر والعصر، وبين المغرب والعشاء.

وفي الصيام إن كان مريضًا أو مسافراً فله أن يفطر ويقضي بعد ذلك الأيام التي أفطرها.

وفي الحج جعله الله لمن استطاع، فمن لم يستطع يسقط عنه فرض الحج، وفي بعض أعمال الحج للمريض والضعيف أن يُنيب عنه في رمي الجمرات والسقاة، ومن يقومون بخدمة شئون الحجاج يسقط عنهم واجب المبيت بمنى أيام التشريق.

وهكذا المتتبع لكل عبادة، يرى أن اليسر ملازم لها، لكن اليسر مشروط بشرط، وهو أن يكون في إطار الحلال وبعيداً عن الحرام، لما أخرجه البخاري

---

(١) أخرجه البخاري في «العلم»، باب «كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا» (١/١٩٦/ ح ٦٩).

من حديث عائشة – رضي الله عنها – قالت : «ما خُيِّر النبي ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس عنه»[١].

ولا شك أن الأخذ بالأيسر له فوائد وثمرات، أهمها :

أ – التمكن من مواصلة وإتمام العبادة دون مشقة.

ب – ترغيب النفس في حب العبادة وحب الإقبال عليها ليسرها. هذا في مقابل أن عدم الأخذ بالأيسر يُوقع الإنسان في المشقة، ويُوقعه في الملل؛ وفي الحديث، قال النبي ﷺ : «إن هذا الدين يسر ولن يُشادَّ هذا الدين أحدٌ إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا»[٢]، وقال ﷺ : «عليكم بما تطيقون، فوالله لا يَمَلُّ الله حتى تملوا»[٣].

---

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» (٢ / ٦٨٨)، والبخاري في «المناقب» باب «صفة النبي ﷺ» (٦/ ٦٥٤/ ح ٣٥٦٠).

(٢) أخرجه البخاري في «الإيمان» باب «الدين يسر» (١/ ١١٦/ ح ٣٩ مع الفتح).

(٣) أخرجه البخاري في «الإيمان» باب «أحب الدين إلى الله أدومه» (١/ ٢٤/ ح ٤٣ مع الفتح).

٢٤ - أنتم اليوم خير منكم يومئذ

بينما الصحابة يجلسون حول رسول الله ﷺ في المسجد إذ طلع عليهم مصعب بن عمير، ما عليه إلا بردة له مرقوعة بفرو.

فلما رآه النبي ﷺ بكى للذي كان فيه مصعب من النعمة، والذي هو فيه اليوم، ثم قال النبي ﷺ :

«كيف بكم إذا غدا أحدكم في حُلَّةٍ وراح في حُلَّةٍ، ووُضِعَتْ بين يديه صحفة ورفعت أخرى، وسترتم بيوتكم كما تستر الكعبة ؟!».

قالوا :

يا رسول الله نحن يومئذ خير منا اليوم، نتفرغ للعبادة ونكفى المؤنة.

فقال لهم النبي ﷺ :

«لأنتم اليوم خير منكم يومئذ».

(*) أخرجه الترمذي (رقم ٢٥٩٤) وقال : حديث حسن غريب . وراجع أسد الغابة (٤/ ٤٠٧).

هذا الموقف من نبوءات سيدنا رسول الله ﷺ، التي هي من دلائل نبوته، وإخبار النبي ﷺ أمته بهذه النبوءات فيه تنبيه للأمة أن تلتزم قرآن ربها سنة نبيها؛ لتكون في رفقة الصالحين، ولتسلم من الوقوع في المحظور الذي حذر منه ﷺ، هذا في حال النبوءات المنذرة، أما في النبوءات المبشرة فللتحريض الأمة ورفع همتها في العمل الصالح؛ كي تكون من أهل هذه المبشرات.

وهكذا يرى المؤمن في النبوءات الدلائل على نبوة النبي ﷺ، ويرى فيها تعظيم الله لشأن هذا النبي حين يختص بها، كما أن فيها العظة الغالية والبشرى العالية، والإنذار والتحذير.

ومن دلالات هذا الموقف أن فتح باب الترف والملذات لا تجتني الأمة من ورائه خيرًا، ولا يعود على الأمة إلا بالخسارة والهلاك لاقتصادها وشبابها، فشيوع القيم الاستهلاكية يجعل الإنسان عبئًا على مجتمعه، في حين أن شيوع القيم الإنتاجية والقيم الإيمانية والفضائل يرفع من شأن المجتمع ويجعله في مقدمة المجتمعات الحضارية.

وهذه سنة الله الجارية في خلقه، وإلى هذه الحقيقة تشير آيات القرآن الكريم، قال الله تعالى: **﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾** [الإسراء/١٦].

ولقد نعى الله على قوم ولعهم بالملذات وافتتانهم بالمرح واللهو وانحصارهم في مطالب الجسد ودنيا الغرائز السفلي، فقال تعالى: **﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾** [الأحقاف/٢٠].

وعندما يلقون عقوبتهم يذكرون بأن ذلك لفقدانهم العفاف والقصد وانطلاقهم مع الغواية والمجون؛ قال تعالى : ﴿ **ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ** ﴾ [غافر/٧٥].

والحق أن جانبًا ضخمًا من تصدع الأمة الإسلامية يرجع إلى ضياع العفة وشيوع الملذات، ولقد حذر النبي ﷺ أمته من الانحلال النفسي والخلقي، فقال : «إنما أخشى عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم، ومضلات الهوى»[١].

والذي ينبغي التنبيه عليه هنا هو أن الترف سوء استخدام للنعمة، فليس العيب في النعمة .. في المال .. في امتلاك الدنيا، وإنما العيب والخلل في سوء استخدامها، فالإسلام يحث المسلم على امتلاك الحياة؛ ليسخرها في بلوغ المثل العليا والقيم الفاضلة، لا أن يستخدمها في الغرائز والدنايا.

---

(١) مجمع الزوائد (١/١٨٨، ٧/٣٠٦).

٢٥ - لو قلت : إن شاء الله

لما انصرف رسول الله ﷺ من خيبر ، وأصاب الناس التعب ، وطلبوا الراحة ليلاً في الطريق ، قال النبي ﷺ :

« من يوقظنا لصلاة الفجر ؟ »

فقال بلال ﷺ : أنا يا رسول الله .

فنزل الناس وناموا ، وأسند بلال ظهره إلى بعيره ، وغلب النوم القوم جميعًا بما فيهم بلال إلى أن طلعت الشمس . وكان رسول الله ﷺ أول من استيقظ . فنادى بلالاً معاتبًا له .

فقال بلال : ما نمت مثل هذه النومة أبداً .

فقال له النبي ﷺ :

« لو قلت : إن شاء الله ، لاستيقظت يا بلال » .

ثم أمر الصحابة بالوضوء والصلاة .

(*) راجع حياة الصحابة ، ترجمة بلال بن رباح .

هذا الموقف يعلمنا فقه المشيئة الربانية وأدبها . إن آمال الناس فى المستقبل لا تنتهى ، يخطط أهل العقول ويدبرون ؛ كى يتمكنوا من أسباب النجاح ، والمستقبل بيد الله تعالى . ومن يتأمل أحداث الحياة وتقلبها وتغير الموازين وتبدلها يرى صدى المقادير الإلهية والمشيئة الربانية التى لا تسير وفق عواطف الناس ، وإنما أمرها إلى الله تعالى ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران / ١٥٤] .

لذا كان تدبيرنا وتخطيطنا ناجحًا ، إذا وافق قدر الله تعالى ، وإلا فلا وجود له ولا نفاذ له ، ومن هنا كان الأمر الإلهى بتقديم المشيئة فى سائر أمورنا المستقبلية ، وفى هذا إيمان من الإنسان بأن تدبير الله فوق تدبيرنا ، ومشيئة الله فوق مشيئتنا .

وهنالك تطبيقات عملية بشأن المشيئة من القرآن والسنة .

أولها : هذا الموقف بين بلال ﷺ وسيدنا محمد ﷺ . حيث تعهد بلال بأن يوقظ النبى ﷺ وأصحابه لصلاة الفجر دون أن يقدم المشيئة قائلاً : إن شاء الله تعالى ، ونام بلال حتى طلعت الشمس ، وتعجب بلال مما حدث له من غلبة النوم ، فقال النبى ﷺ له : « لو قلت : إن شاء الله لاستيقظت وأيقظت » .

والقرآن الكريم ذكر أن بنى إسرائيل لما أمرهم الله بذبح بقرة فشددوا على أنفسهم بالسؤال عن أوصافها وتحديد معالمها ، فلم يهتدوا إليها إلا بعد أن قالوا : ﴿ وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة / ٧٠] .

وأكد هذا المعنى سيدنا رسول الله ﷺ بقوله : « لولا أن قالوا : إن شاء الله ، ما اهتدوا أبداً »[١] .

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبرى فى التفسير .

أيضًا يأتي في هذا السياق عتاب الله لنبيه سيدنا محمد ﷺ بشأن وعده الكفار بالإجابة عن أسئلتهم غدًا، دون أن يقدم المشيئة، وذلك حين سألوه عن «الروح، وأهل الكهف، وذي القرنين» فانقطع الوحي عن رسول الله ﷺ خمسة عشر يومًا ثم أنزل الله قوله تعالى : ﴿ **ولا تقولنّ لشيءٍ إني فاعلٌ ذلك غدًا ۝ إلا أن يشاء الله** ﴾ [الكهف/٢٣ : ٢٤].

كذلك سيدنا سليمان - عليه السلام - لما قال : «لأطوفن الليلة على أربعين امرأة من نسائي تأتي كل واحدة بفارس يجاهد في سبيل الله» ولم يقل : إن شاء الله، فطاف عليهن فلم تحمل من الأربعين إلا امرأة واحدة وجاءت بشق طفل، وقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «والذي نفس محمد بيده، لو قال أخي سليمان : إن شاء الله، لحملت كل واحدة منهن، ولجاهدوا فرسانًا»[1] وفي ذلك نزل قول الله تعالى : ﴿ **ولقد فتنّا سليمان وألقينا على كرسيه جسدًا ثم أناب** ﴾ [ص/٣٤].

وعليه فالتعبير : «إن شاء الله» يعبر عند المؤمن عن يقين في أن الأمر كله بيد الله، وعن توكل صادق على الله.

[illegible] أن يستعمل البعض التعبير القرآني «إن شاء الله» للشك أو الاحتمال [illegible]ـدية، فهو خروج بالتعبير عن قيمته الإيمانية، ويحرم العبد توفيق الله [illegible]

---

(١) أخرجه البخاري (٤ / ١٩٧)، ومسلم (ب ٥ / ح ٢٥).

٢٦ - حقيقة القرب

كان ربيعة بن كعب ﷺ من أهل الصُفَة، لا أهل له ولا مال ولا سكن، فأحب أن يتقرب إلى رسول الله ﷺ فجهز له ماء وضوئه ليلاً ليقوم الليل، فابتسم النبي ﷺ وأحب أن يكافئه.

فقال ﷺ لربيعة: «سلني».

فقال: يا رسول الله، أسألك مرافقتك في الجنة.

فقال له النبي ﷺ: «أو غير ذلك؟».

فقال: بل هو ذاك يا رسول الله.

فقال النبي ﷺ له: «أعنّي على نفسك بكثرة السجود».

(*) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٥٠٠، ٤/ ٥٩)، وذكره أبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٢).

من أهم المعاني التي شُغل بها المسلمون معنى القرب من رسول الله ﷺ والجوار له والرفقة معه في الدنيا والآخرة . وكان هذا مطلبًا صريحًا، أعلنوه وفاضت به عبارات الوجد والحب، التي يصحبها الدمع الحار والإحساس العميق بفضل القرب من هذا النبي العظيم الحبيب الشفيع الرؤوف الرحيم .

وفي الموقف الذي بين أيدينا ظهر لنا كيف أن الصحابي الفقير، حين قال له النبي ﷺ : « سلني »، لم يسأل شيئًا من الدنيا رغم فقره واحتياجه، ولكنه سأل رفقة النبي ﷺ في الجنة .

فوصف له النبي ﷺ الأسباب التي يتأتى بها تحصيل رفقة رسول الله ﷺ في الجنة؛ فقال له : « أعنّي على نفسك بكثرة السجود » .

والمراد بالسجود هنا، معناه الواسع الممتد الذي يشمل كل الأقوال والأفعال، فإذا ما تحقق العبد بمعاني السجود تحقق له القرب، فقد أخبر النبي ﷺ : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد »[١] .

فقمة الخشوع والخضوع يقابلها القرب من الله تعالى . ويظهر لنا من هذا أن القرب قرب طاعة وتقوى، قرب قلوب وأرواح، ولا يضر هذا تباعد الأجساد في الأمكنة أو الأزمنة . فأويس القرني تباعد به الزمان والمكان عن رسول الله ﷺ ، لكنه اقترب من رسول الله ﷺ بقلبه وعقله، بإيمانه وصلاحه للدرجة التي يأمر فيها رسول الله ﷺ سيدنا عمر ﷺ أن يسأل أويسًا القرني أن يستغفر له إذا التقى به، وفعل سيدنا عمر امتثالاً لسيدنا رسول الله ﷺ[٢]، وواحد آخر اقترب من رسول الله ﷺ بجسده زمانًا ومكانًا، لكنه كان بعيداً عن رسول الله ﷺ بقلبه بكفره وعناده؛ فأبعده الله عن رحمة هذا النبي الكريم .

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة (٢١٥) .
(٢) سنن أبي داود، دلائل النبوة للبيهقي .

وأكد النبي ﷺ في السنة المطهرة أن القرب مقترن بالإيمان والطاعة، من ذلك قوله ﷺ :

«أقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا»(١).

وفي المقابل تؤكد السنة أن المعاصي والمخالفات يرتبط بها معنى البعد والطرد من رحمة الله، من ذلك إخباره ﷺ أن الملائكة سوف تطرد أناسًا عن الحوض، لأنهم ابتدعوا في دين الله تعالى ما ليس فيه، وعلى الإجمال يقول ربنا سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء/٦٩].

---

(١) أخرجه الترمذي في «البر والصلة» باب «معالي الأخلاق» (٤/ ٣٧٠/ ح ٢٠١٨) وقال : حسن صحيح.

٢٧ - عتاب للرسول ﷺ

لمّا كان يوم «حنين» أقبلت قبيلة «هوازن» وقبيلة «غطفان» ومعهم أعوانهم لحرب المسلمين، وكان مع النبي ﷺ عشرة آلاف، لكنهم أدبروا عنه حتى بقي وحده !!

فنادى النبي ﷺ : «يا معشر الأنصار». فأجابوه، وانتصر المسلمون وأصابوا غنائم كثيرة. فقسّمها النبي ﷺ بين المهاجرين ولم يُعْطِ الأنصار شيئًا.

فقال الأنصار : إن كانت الشدة نُدْعَى لها، وإن كانت الغنائم يُعْطَى غيرنا ؟!!

فقال لهم النبي ﷺ : «أما ترضون أن يذهب الناس بالدنيا، وتذهبوا برسول الله».

قالوا : رضينا.

فقال النبي ﷺ : «لو سلك الناس واديًا وسلك الأنصار شِعْبًا لسلكت شعب الأنصار».

(*) أخرجه أحمد في المسند (٣/٧٦- ٧٧)، والطبري في «التاريخ» (٣/٩٣-٩٤)، وإسناده صحيح.

هذا موقف عظيم يُظهر لنا أن الرسالات الكبرى والأمور العظيمة تحتاج إلى رجال على غرار الأنصار، يقدمون أرواحهم وما يملكون، لا يشغلهم مآرب تافه، ولا تميل نفوسهم إلى عرض زائل.

وأسلوب النبي ﷺ في توزيع الغنائم قام على تقدير إيمان الأنصار وإخلاصهم، في حين ألف قلوب الأعراب بالمال الذي تميل إليه قلوبهم، وتشتهيه نفوسهم، وليكون هذا العطاء لهم تشجيعًا على القيام بأعباء الدعوة وتكاليف الإيمان، أما الأنصار فقد وكلهم رسول الله ﷺ إلى إيمانهم الصادق ويقينهم الراسخ.

وفي هذا المعنى يقول النبي ﷺ : «إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليَّ مخافة أن يكبه الله في النار»[١] .

● ثم هذا الدرس العظيم في الوفاء من سيدنا رسول الله ﷺ للأنصار، ولعل في عرض تفاصيل الموقف يكون فيه العظة البليغة : فقد أمر رسول الله ﷺ سعد بن عبادة أن يجمع له الأنصار، بعدما علم من عتابهم له في توزيع الغنائم، فقال لهم ﷺ بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

«يا معشر الأنصار : مقالةٌ بلغتني عنكم، وَجِدةٌ وجدتموها عليَّ في أنفسكم؟ ألم آتكم ضُلالاً فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله؟ وأعداء فألَّف بين قلوبكم ؟» قالوا : بلى، والله ورسوله أَمَنُّ وأفضل.

هكذا يلفت النبي ﷺ أنظارهم إلى قيم الإيمان والفضيلة، وما عند الله من ثواب وفضل.

ثم قال النبي ﷺ : «ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟».

قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ولرسوله المن والفضل.

فقال ﷺ : «أما والله لو شئتم لقلتم، فلصدقتم ولصُدِّقْتُمْ : أتيتنا مُكَذَّبًا

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٣٢) وهو في الفتح (٢ / ٣٠٤) بغير هذا اللفظ.

فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلاً فآسيناك . أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لُعاعةٍ - شيء يسير تافه - من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟».

وصدق رسول الله ﷺ إذ قال : «إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم»[١] فقد أراد الشيطان أن يصوِّر للأنصار أن النبي ﷺ قد نسيهم في توزيع الغنائم.

فلما بلغ رسول الله ﷺ عتاب الأنصار، كان جوابه ردًّا على هذه الوساوس، وجاء خطاب النبي ﷺ يفيض بمعاني التقدير للأنصار، ومشاعر المحبة الفياضة لهم، كما يفيض خطاب النبي ﷺ بمعاني التألم من أن يُتَّهَمَ من أحب الناس إليه بتسيانهم والإعراض عنهم.

وقد لامست كلمات رسول الله قلوب الأنصار، ونفضت عنها ما عَلِقَ بها من وساوس أو هواجس، فارتفعت أصواتهم بالبكاء فرحًا بنبيهم، ابتهاجًا بقسمتهم ونصيبهم، كما كان البكاء لومًا لأنفسهم على ما خالج قلوبهم من هواجس بشأن توزيع الغنائم.

فما المال وما الغنائم في جنب حبيبهم رسول الله ﷺ !؛ إذ يعودون به ويعود بهم، فيكون المحيا والممات بينهم، وأي برهان ينطق بالوفاء والحب أكثر من هذا ؟

ثم متى كان المال في ميزان رسول الله ﷺ دليلاً على التقدير والحب ؟!

ألم يجعل النبي ﷺ نصيبه من الغنائم كنصيب الأنصار؟ لقد وزع ﷺ «الخمس» الذي جعله الله خاصًا به، وزعه ﷺ على الأعراب من حوله.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣/١٥٦، ٢٨٥)، وهو عند البخاري ومسلم بغير هذا اللفظ.

٢٨ - مبالغةٌ في غير موضعها

كان عثمان بن مظعون ﷺ رغم غناه يميل إلى التبتل والعزوف عن الدنيا، فكان دائم الصيام بالنهار والقيام بالليل، حتى تأثرت حال زوجه «خولَة» بحال زوجها، فأهملت مظهرها وهيئتها حتى دخلت يومًا على نساء النبي ﷺ، فرأينها سيئة الهيئة فقلن لها : ما لكِ يا خولة فما في قريش أغنى من بعلك؟! قالت : ما لنا منه شيء، أما ليله فقائم، وأما نهاره فصائم! فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فدعاه وقال له :

«يا عثمان، أما لك فِيَّ أسوة يا عثمان؟! إن لعينيك عليك حقًا، وإن لجسمك عليك حقًّا، وإن لأهلك عليك حقًّا، وإن لربك عليك حقًّا، فصلِّ ونم وصم وأفطر».

(*) أخرجه أحمد في المسند (٦ / ٢٦٨) ، والحاكم في المستدرك (٤ / ٦٠) وذكره الحافظ في الفتح (٤ / ٢٢١).

هذا الموقف يعالج قضية مهمة، وهي كيفية الموازنة بين مطالب الدنيا ومطالب الآخرة، وبين سعي الإنسان لدينه وسعيه لدنياه، ولا شك أن الدنيا في حقيقتها ما هي إلا مطية للآخرة.

نريد أن نتعرف على وسطية الإسلام في هذا الموقف.

فهذا الموقف يقدم لنا هديًا مباركًا، لمعالجة ما يقع فيه كثير من الناس، حين يبالغون في الاهتمام بجانب من جوانب حياتهم ويهملون جوانب أخرى لها حقوق أوجبها الله سبحانه وتعالى، فمن الناس من يُشغل بعمله وينسى أهله، ومن الناس من يبالغ في الاهتمام بالعلم ويقصر في حق أهله، ومن الناس من يشغل بالعبادة عن حال أهله، وكل هذه أحوال غير سوية، وهذا ما حدث لسيدنا عثمان بن مظعون ﷺ، حيث بلغ به التبتل أن جاء إلى رسول الله ﷺ في حديث آخر يسأله أن يطلق زوجه خولة ويسأله أن يترهب ويسأله أن يحرّم على نفسه الراحة، ويطلب العزلة عن الدنيا مطلقًا، وربما كان يظن أن في كل هذا زيادة للتعبد والتبتل والقرب من الله سبحانه وتعالى.

أخرج الإمام مسلم أن سيدنا عثمان بن مظعون سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله نفسي تحدثني أن أطلق خولة، فقال رسول الله ﷺ : «مهلاً يا عثمان فإن من سنتي النكاح»، فقال عثمان: نفسي تحدثني أن أترهّبَ، قال رسول الله ﷺ : «مهلاً يا عثمان فإن رهبانية أمتي الحج والجهاد»، قال: يا رسول الله، نفسي تحدثني أن أترك اللحم، قال النبي ﷺ : «مهلاً يا عثمان فإني أحبه ولو أحببته لأكلته، ولو سألت ربي لأطعمني»[١].

من هذا الحوار يظهر لنا ما انطوت عليه نفس ابن مظعون من الزهد في الدنيا والرغبة عنها، والانقطاع والتبتل والعبادة والذكر، وانعكس حال عثمان بن مظعون ﷺ على زوجه فأهملت نفسها وزينتها، وهذه حالة غير متوازنة لا

---

(١) تلبيس إبليس لابن الجوزي (٢١٩).

يقرها الشرع، وكان الإرشاد الحكيم من سيدنا رسول الله ﷺ لعثمان ولأمثاله، هو أن يتأسى عثمان بحال سيدنا محمد ﷺ في كل جوانب الحياة، ووضح له أن معنى العبادة الشامل لا يتم إلا برعاية هذه الحقوق كلها، برعاية حق الله وبرعاية حق الجسد وبرعاية حق الزوج، أي بإعطاء كل ذي حق حقه، ومن هنا يتعلم المؤمن أن يوازن بين الواجبات والحقوق المنوطة به.

ودرس آخر نتعلمه من موقف عثمان بن مظعون، ألا وهو الخروج من هوى النفس إلى هوى الله تبارك وتعالى، فالنفس قد تزين للإنسان طاعة من الطاعات يبالغ العبد فيها، ويهمل فرائض أخرى ظنًا منه أن ذلك أكثر تعبداً، فعثمان بن مظعون بالغ في الصيام والقيام، وقصر في حق أهله، لكن النبي ﷺ وهو أعبد خلق الله لله وأخشى الناس لربه، يصوم ويفطر ويقوم وينام، ويأتي النساء، وتلك هي سنته لمن أراد أن يتعبد لله عز وجل، ومن رغب عن سنة رسول الله ﷺ إلى هوى نفسه، أو إلى استحسان عقله لم يكن متعبداً لله تعالى.

ودرس ثالث يستفاد من هذا الموقف الكريم أيضاً، وهو أنه ينبغي أن يعرض الإنسان ما برأسه من أفكار وما يجري في قلبه من خواطر على شرع الله تعالى حتى وإن بدت له هذه الأفكار أكثر تعبداً لله، وهذه حقيقة قرآنية أشارت إليها الآيات بقوله تعالى: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ**﴾ [الأعراف/ ٣٢].

وهذه كلها طيبات دعا إليها الإسلام، ودعا إليها رسول الله ﷺ.

٢٩ - ميراث النبى ﷺ

مَرَّ أبو هريرة رضي الله عنه ذات يوم بالسوق، فهاله انكباب الناس وانشغالهم بدنيا الناس.

فناداهم : أنتم هنا وميراث رسول الله ﷺ يُقْسَمُ فى المسجد ؟!

فذهبوا إلى المسجد مسرعين، ثم رجعوا إلى أبى هريرة يقولون له :

ما وجدنا شيئًا يُقسَم بالمسجد.

فقال لهم أبو هريرة :

أما رأيت قومًا يصلون، وقومًا يقرأون القرآن، وقومًا يتذاكرون الحلال والحرام؟ ذلك ميراث رسول الله ﷺ.

(*) قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (١ / ١٢٩) : رواه الطبرانى فى « الأوسط » وإسناده حسن.

كثيراً ما يغفل الناس عن أمور دينهم من مجالس العلم والذكر والعبادة بسبب انشغالهم في طلب الدنيا والاستزادة منها .

ويقدم لنا أبو هريرة ﷺ من خلال هذا الموقف أسلوباً حكيماً في تنبيه الناس وإيقاظهم من غفلتهم، كي يقبلوا على ميراث رسول الله ﷺ .

ولمّا كان الناس قد زُيِّن لهم حب الشهوات من متاع الدنيا : من الأموال وغير ذلك؛ فقد خاطبهم أبو هريرة بما له قيمة عندهم، بالذي يتنافسون من أجله . فقال لهم : أنتم هنا وميراث رسول الله ﷺ يُقسَّم في المسجد، فسارع الناس إلى المسجد ليروا ميراث رسول الله ﷺ الذي يُقسَّم لعلهم يدركون نصيباً منه .

وكانت المفاجأة لهم، أنهم لم يجدوا الميراث الذي ظنوه . . لم يجدوا مالاً ولا متاعًا من متاع الدنيا، فإن الأنبياء لا يورثون مالاً ولا متاعًا؛ وإنما يورثون العلم النافع الذي يَدل الناس على ربهم ويصلهم بخالقهم، ومن هنا قال النبي ﷺ : «العلماء ورثة الأنبياء»[١]، فمن أراد أن ينال الحظ الأوفى من ميراث رسول الله ﷺ فعليه العلم بالقرآن والسنة .

ودلالة أخرى يقدمها لنا هذا الموقف الكريم؛ حيث يقدم لنا درسًا عظيمًا في فقه الدعوة إلى الله عز وجل، وأهمية اجتهاد الداعي إلى الله في اصطفاء الأسلوب الحكيم الذي يناسب حال من يدعوهم .

فالدعوة ليست كلمات محفوظة يلقيها خطيب مُفَوَّه على الناس، وإنما الداعي كالطبيب يتخير من الدواء (نوعًا وكمًا) ما يناسب حال المريض ﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة/٢٦٩] .

(١) رواه البزار ورجاله موثقون ، قاله الهيثمي في المجمع (١ / ١٣١) .

وقد أكد الله تعالى هذه الحقيقة في القرآن الكريم. قال تعالى :

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل/١٢٥].

٣٠ - كيف تصلي يا حاتم ؟

دخل رجل على حاتم الأصم، فوجده يصلي صلاة يظهر عليها الخشوع.. فأعجب بصلاته، وسأله : كيف تصلي يا حاتم ؟

فقال حاتم الأصم :

«إذا أردت الصلاة قمتُ إلى الوضوء، فأسبغت الوضوء، ثم جئت الموضع الذي أريد الصلاة فيه، فأجلس حتى تجتمع جوارحي، ثم أقوم إلى الصلاة فأجعل الكعبة بين عيني، وأجعل الصراط تحت قدمي، وأجعل الجنة عن يميني، والنار عن شمالي، وملك الموت من ورائي، والله ناظر إليَّ، ثم أكبِّر تكبيراً بتحقيق، وأقرأ بترتيل، وأركع بتواضع، وأسجد بخشوع، وأفعل ذلك في صلاتي كلها، ثم أتبعها الإخلاص، ثم أخرج من صلاتي لا أدري أقبلها الله مني أم لا ؟!».

(*) ذكره أبو الليث السمرقندي في تنبيه الغافلين (٤٢٦).

هذا موقف كريم، يقدم لنا إجابة شافية لسؤال يتكرر كثيراً من غالب الناس، الذين يشكون من كثرة الانشغال بأمور الدنيا داخل الصلاة، ويسألون : كيف نصلي صلاة خاشعة ؟ ! . ويصف لنا حاتم في بيانه هذا أن التحضير للصلاة أمر مهم، والاستعداد للصلاة يبدأ من الوضوء، والسنة تؤكد هذا؛ فالنبي ﷺ يقول : « ما من امرئ تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم تُؤْتَ كبيرة، وذلك الدهر كله »[١] .

ومن حسن الاستعداد للصلاة أن يجلس الإنسان في مصلاه حتى ينقطع عن شواغل الحياة، وهمومها ومشاكلها، ويتهيأ للدخول في الصلاة بين يدي الله تعالى .

فإذا قام للصلاة تذكر الكعبة بين عينيه واستحضرها، ثم يتذكر الصراط وأنه تحت قدميه، وأن الجنة تدعوه عن يمينه وأن النار عن يساره، وأن هذه الصلاة آخر صلاة له؛ فملك الموت يطلبه من ورائه، ومهما كان الناظرون والحاضرون المشاهدون له في صلاته فحسبه أن الله رقيب عليه .

هذا الاستحضار والتهيؤ والاستعداد يدفع العقل والقلب إلى الاشتغال بأمر الصلاة . ثم إذا كبر للصلاة تكبيرة الإحرام فإنه يكبر بتحقيق . أي بتحقيق معنى « الله أكبر »، أي : الله أكبر من أي شيء يَشغلني في صلاتي .

ثم إذا قرأ القرآن بترتيل حسن، يشتغل فيه بمعنى ما يقرأ من الآيات؛ فإذا ركع تواضع لربه، وإذا سجد خشع لربه . ثم يتابع هذه الأعمال في صلاته كلها، ويظنها آخر صلاة له، أي : صلاة مُودِّع .

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (١ / ٥٥ / ح ٢٩) ومسلم في « الطهارة »، باب « فضل الوضوء والصلاة عقبه » (١ / ٣ / ١١٢ مع النووي)

ثم يسلم ويخرج بعد صلاته مُشفقًا على نفسه أن يكون بصلاته نقص، أو مر به خاطر لا يرضاه الله تعالى، أو حدث منه ما يجعلها غير جديرة بالقبول.

يخرج من صلاته وهو يتمنى أن تكون صلاته أكثر خشوعًا وإخلاصًا لربه، لا يتباهى بأنه صلى والناس نيام، أو أنه صلى صلاة متقنة، والناس غير ذلك. وإنما يتواضع ويخشع فيكون من أهل قوله تعالى:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ [المؤمنون/ ١ : ٢].

ومن أهل قوله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُوْلَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ [المؤمنون/ ٦٠ : ٦١].

٣١ - إن الله لا يعجل لعجلة أحدكم

لما اشتد أذى المشركين للمسلمين، جاء بعض الصحابة - رضى الله عنهم - إلى النبى ﷺ، وكان متوسداً بردة له فى ظل الكعبة. فقالوا له :

يا رسول الله، ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟

فقال لهم النبى ﷺ :

«والله لَيُتِمَّنَّ الله هذا الدين ولكنكم تستعجلون، وإنَّ الله لا يَعْجَلُ لعجلة أحدكم حتى تبلغ الأمور ما أراد الله».

(*) أخرجه البخارى (٤ / ٢٤٤، ٩ / ٢٦)، وأحمد فى «المسند» (٤ / ٢٥٧).

هذا موقف لصيق بحياتنا المعاصرة، وبخاصة شبابنا الواعد . فكثيراً ما تتعجل النتائج، وتدور بذهن الشباب خاصة خواطر وأفكار، كلها يقع في إطار هذا الموقف النبوي الكريم .

من هذه التساؤلات التي تتكرر :

لماذا الصبر ؟!

لما لا نبطش ؟ وما دمنا على حق ، الا يُعد الصبر موقفًا سلبيًّا ؟!

ويأتي هذا الموقف ليؤكد لنا جملة من الحقائق بشأن الصبر؛ فالأمور تسير وفقَ مراد الله وحكمته، وفعل الحكيم كله حكمة؛ لذلك قال النبي ﷺ لمن يتعجل النصر : « والله ليتمن الله هذا الدين ولكنكم تستعجلون ... » .

إن نظرة الإسلام للصبر نظرة إيجابية ، فالصبر الإيماني قوة صامتة، تُمكّن الإنسان من التحكم في نفسه والسيطرة عليها . إن الصبر في الإسلام سمو بمشاعر النفس لترتبط بتوجيه الله تعالى وتستجيب لأمره؛ فالصبر طاقة إيمانية تُخلّص الإنسان من دوافع الانتقام والانكباب وراء الصيت والشهرة .

ونصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة توضح أبعاد نظرة الإسلام الإيجابية للصبر .

فعن الصبر كقوة تسيطر على النفس ونوازعها، يقول النبي ﷺ : « ليس الشديد بالصرَعة، وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب »[١] .

وعن الصبر كطاقة في التحمل، يقول النبي ﷺ : « القابض على دينه كالقابض على جمر »[٢] .

---

(١) أخرجه البخاري (٨ / ٣٤) ، ومسلم في « البر والصلة » (ب ٣٠ رقم ١٠٧ ، ١٠٨) .
(٢) أخرجه الترمذي (٢٢٦٠) .

وعن الصبر كطاقة دافعة لنيل العلا وتحقيق الطموحات، يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت/ ٣٥].

وعن الصبر كلون من الثبات أمام الكوارث المفاجئة، يقول النبي ﷺ: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»[١].

فينبغي للمؤمن أن يوقن بأن أحداث الحياة تكون وفق تقدير دقيق ومحكم من الله تعالى. قال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر/ ٤٩].

وإننا نسعى ونأخذ بالأسباب، لكن النتائج على الله عز وجل.. وقد يكون تأخر النتائج التي نسعى من أجلها ولها، فيه حكمة لله تعالى وفيه خير لنا.

---

(١) أخرجه البخاري (٢ / ١٠٠)، ومسلم في «الجنائز» (١٥) باختلاف يسير.

٣٢ - أى المال خير ؟!

كان فقراء المهاجرين يسيرون مع عمر بن الخطاب ﷺ فقال المهاجرون :

لو نعلم أى المال خير ؟!.

فقال عمر :

إن شئتم سألت لكم رسول الله ﷺ .

فلما سأل عمر النبى ﷺ أجابه النبى ﷺ وقال :

«ليتخذ أحدكم لسانًا ذاكرًا وقلبًا شاكرًا وزوجة مؤمنة».

(*) أخرجه أحمد فى المسند (٥ / ٢٨٢)، وأبو نعيم فى الحلية (١ / ١٨٣).

هذا الموقف يشير إلى لون من المسارعة والمسابقة في فعل الخيرات بين أصحاب رسول الله ﷺ، فنظر فقراء المهاجرين إلى المال، كان في إطار الحرص على الأعمال الصالحة، وأفضلها درجة عند الله تعالى، وبخاصة أن هناك عبادات لا تقوم إلا بالمال، مثل الحج والعمرة والزكاة.

وضّح رسول الله ﷺ أن أبواب الخير فيها متسع لكل راغب في التقرب إلى الله تعالى، وأن من حرم المال؛ فباب الذكر مفتوح وباب الشكر مفتوح.. وهكذا، حتى إن المتتبع لهدي رسول الله ﷺ يرى أن طرق الخير كثيرة، ومن ضاق عليه باب، فأمامه أبواب كثيرة ميسورة حتى قال النبي ﷺ: «وتبسمك في وجه أخيك صدقة»[1]، وإن لم يجد المؤمن شيئًا مُتاحًا بين يديه يتقرب به لله تعالى، أو ضعف عن أفعال الخير والبر، فرسول الله ﷺ يرشده بأن الإمساك عن الشر صدقة.

أيضًا يشير هذا الموقف إلى تأكيد فضل ذكر الله تعالى، وهو ما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «ليتخذ أحدكم لسانًا ذاكرًا وقلبًا شاكرًا».

والمؤمن حين يتأمل العبادات التي افترضها الله تعالى على عباده، يرى أن للذكر مزية على سائر العبادات. فقد جعل الله لكل عبادة حدًّا معلومًا؛ فالصلاة لها حد معلوم في أوقات معلومة، وهكذا الحج وهكذا الصيام.

أما الذكر فلم يقيده الله بحد ولا وقت، بل جعله مطلقًا، وطالبنا به على قدر الوسع والطاقة، فقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا** ﴾ [الأحزاب/ ٤١ : ٤٢].

وتشير الأحاديث النبوية إلى أن حياة القلب.. حياة الروح لا تقوم إلا بذكر

(١) أخرجه الترمذي (ح ١٩٥٦).

الله تعالى، وأن حاجة القلب والروح إلى ذكر الله تعالى أشد من حاجة البدن إلى الطعام والشراب، من ذلك قول النبي ﷺ : «مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكر ربه مثل الحي والميت»[١].

كما تفيدنا السنة أن الذكر يأتي في مقدمة الأعمال الصالحة، التي ترقى بالعبد لأفضل الدرجات والمنازل عند الله تعالى، من ذلك قول النبي ﷺ : «لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده»[٢].

وهذا الموقف بدلالاته الإيمانية يلتقي مع موقف فقراء المهاجرين مع رسول الله ﷺ، حين سألوه : ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم، فقال النبي ﷺ : «أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدَّقون به، إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة»[٣].

وفي هذا بيان من رسول الله ﷺ لكثرة طرق الخير، وأن ذكر الله تعالى يأتي في قمة أبواب الخير التي تُقرب إلى الله تعالى.

---

(١) أخرجه البخاري (٨/١٠٧).
(٢) أخرجه مسلم في «الذكر والدعاء» (ب ١١ رقم ٣٩).
(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ح ٢٢٨)، ومسلم (٣/٧/٩١ مع النووي).

٣٣ - ومن خير من أبي سلمة ؟ !

لما مات أبو سلمة ﷺ قالت امرأته :

إنا لله وإنا إليه راجعون . اللهم إني أحتسب عندك مصيبتي . وسكتت .

فقال بعض الصحابة - رضوان الله عليهم - لها :

أكملي الدعاء وقولي : وأبدلني خيراً منه .

فقالت لهم :

ومَنْ خيرٌ مِنْ أبي سلمة أول من هاجر مع رسول الله ﷺ ؟ .

فقالوا لها :

قولي ذلك امتثالاً لهدى رسول الله ﷺ ، ففعلت ، فكان من أمرها بعد ذلك أن تزوجها رسول الله ﷺ .

(*) رواه مسلم وأبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه، وذكره ابن سعد في الطبقات (٨/٨٧)

إنه موقف إيمانى كريم يحمل دلالات نافعة، من أهمها :

الدلالة الأولى : الإرشاد إلى السلوك الإيمانى للمؤمن عند المصيبة، وهو التزام الصبر واحتساب البلاء عند الله تعالى، وذلك عملاً بقول الله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ** ﴾ [البقرة/١٥٦ : ١٥٧].

الدلالة الثانية هي: أن نلوذ بالله تعالى، وأن نلجأ إليه ونحن على يقين من أن كل شىء مرتبط بقدره، وأن كل شىء نرى لأنفسنا حقًا فيه، فإن رباط الله به أوثق، وأن حق الله فيه أسبق فإذا أعارنا الله ولدًا أو زوجًا، أو مالاً أو غير ذلك ثم استرد الله عاريته؛ ينبغى أن يكون منا التسليم والدعاء.

ومن هدى النبى ﷺ أن يقول المؤمن عند المصيبة : «﴿ **إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** ﴾ اللهم إنى أحتسب عندك مصيبتى فأجرنى عليها، وأبدلنى خيراً منها»[١]، ولما قالت ذلك أم سلمة مؤمنة مسلمة أمرها لله تعالى، كان من فضل الله عليها ما فاق خيالها، وفاق توقعات عقلها، فقد تزوجها رسول الله ﷺ، وأبدلها الله زوجًا خيراً من زوجها الذى فُقد ورحل عنها، وصارت من أمهات المؤمنين –رضوان الله عليهم أجمعين.

وفضلاً عن الثواب العاجل على الصبر فإن الله ادخر من عظيم الجزاء فى الآخرة للصابرين، وفى الحديث الشريف قال ﷺ : «إن الله لا يرضى لعبده المؤمن إذا ذهب بصفيه من أهل الأرض فصبر واحتسب ثوابًا دون الجنة»[٢].

إلى أى حد يصل ثواب هذا الصبر وهذا الامتثال ؟!

---

(١) أخرجه مسلم وأبو داود والنسائى والترمذى.
(٢) أخرجه النسائى (٤ / ٢٣).

ويجيبنا عن هذا السؤال رب العالمين فإن الله عز وجل قد جعل الحسنة بعشر أمثالها، والله يضاعف لمن يشاء، لكن الصبر جعل الله تعالى الجزاء والمثوبة عليه بغير حساب لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر/ ١٠]، وهذا من سعة فضل الله وكرمه .

الدلالة الثالثة هي : امتثال أدب الدعاء لله تعالى، حتى وإن ظهر للإنسان ان الأسباب عاجزة، أو أن الظروف المحيطة لا تؤدى إلى الإجابة، وذلك لأن الأمور بيد الله تعالى، والله على كل شيء قدير .

يستفاد ذلك من قول الصحابة لأم سلمة : أكملى الدعاء امتثالاً لهدى رسول الله ﷺ . والله سبحانه وتعالى لا يهمل دعوة صادقة، دعاه بها عبدٌ من عباده، وفي الحديث الشريف قال النبى ﷺ : «ما من مؤمن يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا كان له بها إحدى ثلاث : إما أن يعجل الله دعوته له في الدنيا، وإما أن يصرف عنه السوء بمثلها، وإما أن يدخرها له عنده يوم القيامة»(١) .

وهذا ما حدث مع أم سلمة – رضى الله عنها – حين امتثلت الدعاء لله عز وجل، وقالت : «أبدلنى خيراً منه»، وكان من أمرها بعد ذلك أن تزوجها رسول الله ﷺ ، وصارت بهذا الفعل من أمهات المؤمنين – رضى الله عنهن – وهذه الدعوة قد عُجِّلت لأم سلمة – رضى الله عنها – فقد نالت جزاءها فى الدنيا جزاءً حسنًا، فتزوجت من رسول الله ﷺ ، ولها ثواب الصابرين فى الآخرة إن شاء الله تعالى .

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ١٨)، والحاكم فى المستدرك (١/ ٤٩٣)، وذكره الحافظ فى الفتح (١١/ ٩٦) .

٣٤ - خالط الناس بشرط . . .

مَرَّ رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بشِعب فيه عين من ماء عذبة، فأعجبته، فقال :

لو اعتزلت الناس فأقمت في هذا الشعب، ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله ﷺ، فقال له النبي ﷺ :

«لا تفعل، فإن مقام أحدكم في سبيل الله، أفضل من صلاته في بيته سبعين عامًا، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة ؟ اغزوا في سبيل الله، من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة».

(*) أخرجه الترمذي (رقم ١٦٥٠) ، وأحمد في المسند (٢ / ٥٢٤) .

هذا الموقف يحمل فقهًا هاديًا للمسلم، فالمتدبر للموقف يرى فيه مفاضلة بين أمرين :

الأول : اعتزال الناس للسلامة من شرورهم والتفرغ للصلاة والذكر والصوم .

الثانى : مخالطة الناس وتحمل الأذى منهم، مع إرشادهم ونفعهم، والجهاد فى سبيل الله .

ولا شك أن الناس متفاوتون فى درجة تحملهم وصبرهم، فقد يكون اعتزال الناس لائقًا بالضعفاء، ومن لا طاقة لهم على التحمل والصبر والمجاهدة؛ لكن أهل العزم من الرجال يليق بهم أن يسلكوا السبيل الأعلى والأفضل، وهو مخالطة الناس مع تحمل ما يصدر منهم من أذى، مع الإرشاد والنصح والمجاهدة كى نقيم دين الله تعالى، وفى هذا استجابة لأمر الله فى قرآنه : ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ﴾ [الشورى/١٣] .

ولو تهرَّب كل مسلم من هذه الأمانة – أمانة الجهاد والمجاهدة، أمانة الدعوة والإرشاد – فمن يحمى الحق ؟! ومن يدعو إلى الخير ؟! ومن ينشر الفضيلة ؟

لذلك لما رأى النبى ﷺ ببصيرته المؤيدة بنور الله تعالى أن السائل من أولى العزم، وله طاقة فى التحمل أرشده النبى ﷺ إلى اختيار الأفضل والأعلى، ونهاه عن الركون إلى الراحة .

وذلك لأن المسلم صاحب رسالة فى الحياة، ولابد من القيام بواجب هذه الرسالة من التحمل والجلد والصبر والمجاهدة والجهاد فى سبيل الله .

يتأكد هذا المعنى من قول النبى ﷺ للرجل السائل : «لا تفعل، فإن مقام أحدكم فى سبيل الله أفضل من صلاته فى بيته سبعين عامًا، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة؟!» .

فالمسلم حين يخالط الناس بأدب الإيمان، يعود مريضهم، ويواسى محتاجهم، ويرشد جاهلهم، ويحضر مجالس الذكر معهم، ويحضر جنائزهم، وينصر ضعيفهم، حين يفعل المسلم ذلك يكون عنصراً مؤثراً فى مجتمعه.

وعن ابن عمر – رضى الله عنهما – أن رسول الله ﷺ قال : «المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم، أفضل من المؤمن الذى لا يخالط الناس، ولا يصبر على أذاهم»(١) .

والبصيرة الثانية من فقه هذا الموقف هى أدب المؤمن فى الرجوع بفكره وكل شأنه إلى هدى سيدنا رسول الله ﷺ، يستشيره ويقتدى به، ولا يقدم هوى نفسه أبداً على هدى رسول الله ﷺ، يظهر ذلك من قول الرجل : لن أفعل حتى أستأذن رسول الله ﷺ.

وهكذا ينبغى على المؤمن أن يراجع خواطره بعرضها على الشرع، وألا يقدم الإنسان رأيه أو فكره على قرآن الله أو سنة نبيه، بل شأن المؤمن الاتباع من السمع والطاعة، قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [الحجرات/١].

---

(١) أخرجه الحافظ فى «الفتح» (١٠/ ٥١٢)، وأبو نعيم فى «الحلية» (٧/ ٣٦٥).

٣٥ - يصوم عن الحلال ويفطر على الحرام !!

جاء رجل يستأذن رسول الله ﷺ في امرأتين صامتا، فدعا النبي ﷺ المرأتين، ودعا ﷺ بإناء فارغ. ثم قال ﷺ لإحداهما: «قيئي». فقاءت قيحًا ودمًا أسود، ثم قال للثانية: «قيئي»، فقاءت مثل الأولى، فدهش الصحابة من أمر المرأتين.

فقال النبي ﷺ :

«إن هاتين المرأتين صامتا عن الحلال وأفطرتا على ما حرم الله، جلست إحداهما إلى الأخرى تغتاب الناس».

(*) أخرجه أحمد في المسند (٥ / ٤٣١).

هذا الموقف يتضمن دلالتين مهمتين بشأن عبادة الصيام:

أولاهما: خطورة المعاصي على الصوم، فالصوم الذي يُرجى قبوله عند الله تعالى، هو الصوم الذي تصوم فيه جوارح الإنسان كلها عن جميع المعاصي، بالإضافة إلى الامتناع عن شهوتي البطن والفرج.

وقد أخبر النبي ﷺ أن غياب هذه الحقيقة عن صوم العبد يحرمه من فضل الصيام، قال ﷺ: «رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش»[1]، وقال ﷺ: «إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يفسق، فإن سابه أحد أو شاتمه فليقل إني امرؤ صائم، إني امرؤ صائم»[2].

وقد يتبين لنا من الموقف أن المرأتين أضرتا بصيامهما، بسبب الوقوع في الغيبة والنميمة.

ثانيتهما: الحقيقة الجوهرية في عبادة الصوم، التي قد تغيب عن كثير من الناس، وهي أن الله أمرنا بالصيام بالامتناع عن الحلال من الطعام والشراب، وشهوة الفرج من خلال الأزواج فترة من الوقت، أما الحرام فالمؤمن ممتنع عنه في رمضان وفي غير رمضان.

فالغيبة حرام في رمضان وفي غير رمضان، وهكذا سائر المحرمات.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢ / ٣٧٣)، والحاكم في المستدرك (١ / ٤٣١) بلفظ مشابه، وهو عند البيهقي في السنن الكبرى (رقم ١٦٩٠) بنفس هذا اللفظ.
(٢) أخرجه أحمد (٢ / ٤٤٣) وأصله في الصحيحين.

٣٦ – حسن الهيئة من الإيمان

دخل رجل بهيئة بَذَّة (رَثَّة) والنبى ﷺ يأمر الناس بالصدقة، فتصدَّق الناس. فأعطاه النبى ﷺ ثوبين، ثم قال:

تصدقوا، فطرح الرجل أحد ثوبيه.

فقال النبى ﷺ:

«أترون إلى الذى رأيته بهيئة بَذَّة فأعطيته ثوبين، ثم قلت: تصدقوا، فطرح أحد ثوبيه !! خذ ثوبك !».

(*) أخرجه أبو داود فى كتاب «الزكاة» باب «الصدقة عن ظهر غنى» وكذلك الحاكم، والبيهقى.

هذا موقف تربوى يصحح فهمًا مغلوطًا شاع بين بعض الناس، حين يحسبون أن إهمال الهيئة وترك العناية بها من التدين أو الزهد فى الدنيا. وهذا من وهمهم؛ فالإسلام يريد أن يمحو من المجتمع مظاهر البؤس والفاقة.

وقد لا يبالى بعض الناس أن يعيش طاويًا عاريًا، بَيْدَ أن أمثال هؤلاء ينبغى ألا يفرضوا مذهبهم فى الحياة ويحمّلوه على تعاليم الدين نفسه، فإن الإسلام يوجب أن يملك الإنسان من متاع الدنيا ما يرفع رأسه ويحفظ وجهه. وكره النبى ﷺ من الرجل أن يتصدق بما عنده، ويدع نفسه محتاجًا.

فعن جابر رضي الله عنه قال: «جاء رجل بمثل بيضة من ذهب، فقال: يا رسول الله ﷺ، أصبت هذه من معدن فخذها فهى صدقة ما أملك غيرها! فأعرض عنه. فأتاه من قِبَل ركنه الأيمن فقال مثل ذلك، فأعرض عنه، فأتاه من ركنه الأيسر، فقال مثل ذلك، فأعرض عنه ثم أتاه من خلفه، فقال مثل ذلك، فأخذها النبى ﷺ فحذفه بها، فلو أصابته لأوجعته، وقال: «يأتى أحدكم بجميع ما يملك فيقول: هذه صدقة، ثم يقعد يتكفف الناس! خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى»[١].

وعلى المرء أن يتعرف المطالب المعقولة لأهله وولده، وأن ينفق عن سعة فى قضائها، فليس من الدين أن يدع المرء زوجته أو بنيه أو بناته فى حال قلقة من الاحتياج والضيق، ثم يضع ماله فى مصرف آخر، مهما كان خطره، فروابط الأسرة أولى بالعناية وأحق من غيرها، قال رسول الله ﷺ: «دينارٌ أنفقته فى سبيل الله، ودينار أنفقته فى رقبة (أى فى تحرير عبد)، ودينارٌ تصدقت به على أهلك، أعظمها أجرًا الذى أنفقته على أهلك»[٢].

---

(١) أخرجه البخارى (٢ / ١٣٩، ٧ / ٨١)، ومسلم فى «الزكاة» (ب٣٢ رقم ٩٥).
(٢) أخرجه مسلم فى «الزكاة» [باب «فضل النفقة على العيال» (٣ / ٧ / ٨٢)].

والإسلام بهذا الإرشاد الدقيق، يريد أن يرتب النفقات المشروعة ترتيبًا ثمرًا صالحًا؛ فإن الأسرة قوام المجتمع الكبير، والخلية الحية التي يتكون منها بناؤه الضخم؛ فتوجيه العناية إليها أولاً أجدى على الأمة كلها من حرمانها وتحويل حقوقها عنها.

ثم إن في هذا الإرشاد زجرًا لطائفة من الناس يجنحون إلى الإسراف خارج بيوتهم، وبين أصدقائهم أو الغرباء عنهم، فإذا دخلوا إلى أهلهم كانوا أمثلة سيئة للتقتير والبخل!

وأقرباء المسلم أجدر الناس بالإفادة من فضول ماله، ومن حقهم أن ينصرف إليهم أي عطاء تجود به يده. وهذا أول ما يتبادر إلى الفهم السليم، فإنه إذا كان المحتاج لصيقًا بك، فلا معنى لمجاوزته والذهاب بالخير إلى آخر قصيّ، بل إن ذلك قد يزرع الضغينة في نفوس المحرومين ويشعرهم بأن إهمالهم متعمدٌ للنكاية بهم.

فإذا كان التنكيل بذوي القربى هو ما يقصده المعطي، فإن صدقته ترد عليه وتتحول وبالاً. وفي الحديث: «يا أمة محمد، والذي بعثني بالحق، لا يقبل الله صدقة من رجل وله قرابة محتاجون إلى صلته، ويصرفها إلى غيرهم، والذي نفسي بيده: لا ينظر الله إليه يوم القيامة»[1].

وعن زينب الثقفية امرأة عبد الله بن مسعود – رضي الله عنهما – قالت: قال رسول الله ﷺ: «تصدقْنَ يا معشر النساء، ولو من حليكنّ»، قالت: فرجعت إلى عبد الله بن مسعود فقلت له: إنك رجل خفيف ذات اليد، وإن رسول الله ﷺ قد أمرنا بالصدقة، فأته فَسَلْه، فإن كان ذلك يجزي عني، وإلا صرفتها إلى غيرك، فقال عبد الله: بل ائتيه أنت! وقالت: فانطلقت فإذا امرأة

(١) رواه الطبراني في الأوسط بسند ضعيف، قاله الهيثمي في المجمع (٣ / ١٢٠).

من الأنصار حاجتها حاجتي، وكان رسول الله ﷺ قد ألقيت عليه المهابة، فخرج علينا بلال، فقلت له : ائت رسول الله، فأخبره أن امرأتين بالباب يسألانك : أتجزىء الصدقة عنهما على أزواجهما وعلى أيتام في حجورهما؟ ولا تخبره من نحن.

قالت : فدخل بلال على رسول الله ﷺ فسأله، فقال رسول الله ﷺ : «من هما؟» فقال : امرأة من الأنصار وزينب، فقال رسول الله ﷺ : «أي الزيانب؟» قال : امرأة عبد الله بن مسعود، فقال : لهما أجر القرابة وأجر الصدقة»[١].

وقال رسول الله ﷺ : «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى القريب صدقتان : صدقة وصلة»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة باب «الزكاة على الزوج والأيتام» (٣ / ٣٨٤ / ح١٤٦٦ مع الفتح).
(٢) أخرجه الهيثمي في «المجمع» (٣ / ١١٩) وقال : رواه الطبراني في الأوسط والكبير وفيه من لم أعرفهم.

٣٧ - خيط بين المصلى وحجرة الصدقة

لمَّا كُفَّ بصرُ الصحابي الجليل حارثة بن النعمان الأنصاري ﷺ جعل خيطًا بين مصلاه إلى باب حجرته، ووضع عنده وعاء فيه تمر ونحو ذلك من الصدقات، فإذا جاء مسكينٌ يطلب صدقة، أخذ حارثة التمر من الوعاء ثم أمسك بالخيط حتى يصل إلى باب الحجرة، فيناول المسكين الصدقة بيده.

فقال له أهله :

نحن نكفيك هذا.

فقال :

لا ، فإني أودُّ أن أفوز بالثواب، ثم ذكر قول رسول الله ﷺ :

«إن صدقة المسلم تزيد في العمر، وتمنع ميتة السوء، ويُذْهِبُ الله بها الكِبْرَ والفقر والفخر».

(*) ذكره في «أسد الغابة» (١ / ٤٢٨).

هذا الموقف به عظات غالية ودروس تربوية عالية :

أولاها : هذا الحرص الواضح من الصحابي الجليل حارثة بن النعمان ﷺ على نيل ثوابَ تقديم الصدقة بيده، مما دفعه إلى اتخاذ خيط يقوده من مصلاه إلى الباب كي يناول المسكين أو السائل الصدقة بنفسه .

وهكذا المؤمن لا يدّخر وسعًا في فعل خير يستطيعه . هذه النفس الصافية التي تدرك أن الصدقة عمل صالح، كما أن مناولة الصدقة فعل صالح أيضًا يُثاب عليه المسلم؛ وذلك لما فيه من رعاية لحال السائل واهتمام بشأنه، وتقدير لمشاعره، ويُظهر لنا هذا الموقف كيف أن الإسلام قدّم رعاية المشاعر على العطاء، قال الله عز وجل :

﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ﴾ [البقرة/٢٦٣] .

ثانيتها : هي الحرص على سرِّية الصدقة؛ لما لها من ثواب عظيم .

ويلتقي هذا الموقف مع مواقف كثيرة لأصحاب النبي ﷺ وصحابياته في تقديم الصدقات محفوفة بعطاء الحب ورعاية المشاعر، حتى يظن المسكين أنه هو المتفضل بقبوله لهذه الصدقة، وكانت السيدة فاطمة بنت رسول الله ﷺ تُطيِّب الصدقة بالعطر ثم تقدمها للفقير .

كل هذا نابع من إيمان راسخ في قلب المؤمن بأن الغنيَّ مختبرٌ من الله تعالى بماله، والفقير مختبر من الله تعالى بفقره؛ يقول ابن عباس – رضي الله عنهما – : ولو شاء لجعلنا أغنياء لا فقير فينا، ولكن اقتضت حكمته أن يبتلي بعضنا ببعض .

ولقد بين القرآن الكريم أن أفضل نفقة ينفقها العبد في حاجاته المختلفة

– هى النفقة فى سبيل الله، قال تعالى :

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة/ ٢٦١].

ويؤكد الحديث النبوى الشريف أن ما نقدمه من صدقة هو الذى يُدَّخر لنا عند الله يوم القيامة، فى حين أن ما ننفقه فى الطعام والشراب والملبس وغيرها من متاع الدنيا – هو – إلى زوال.

أعطى النبى ﷺ السيدة عائشة – رضى الله عنها – شاة مذبوحة كى تفرقها على الناس. ثم سألها النبى ﷺ : «ماذا صنعت فى الشاة ؟» فقالت : ذهبت كلها غير كتفها، فقال لها النبى ﷺ : «بل بقيت كلُّها غير كتفها»[1]. ثم تلا قوله تعالى :

﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل/ ٩٦].

---

(١) أخرجه الترمذى فى «صفة القيامة» باب «منه» (٤/ ٦٤٤/ ح ٢٤٧٠)، و أحمد فى المسند (٦/ ٥٠)، وقال الترمذى : حديث صحيح.

٣٨ - ربح البيع أبا يحيى

لما أذن الرسول ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة، عزم صهيب الرومي على الهجرة، لكن قريشًا صدُّته عن غايته وأقامت عليه الرقباء، فلجأ إلى الحيلة وتسلل من بينهم، لكنهم أدركوه في طريقه، وكانت المواجهة بينهم وبينه.

فقالوا له : لا ندعك يا صهيب تفوز منا بنفسك وبمالك. لقد أتيت مكة فقيراً فاغتنيت.

فقال لهم صهيب : أرأيتم إن تركت لكم مالي أتخلُّون سبيلي؟

قالوا : نعم، فأخذوا ماله وتركوه لهجرته.

فلما بلغ صهيب قباء، ورآه الرسول ﷺ بَشَّره بقوله: «ربح البيع أبا يحيى» (ثلاثًا). وكان جبريل قد أخبر رسول الله ﷺ بتضحية صهيب.

(*) ذكره ابن سعد في «الطبقات» (٣/ ١٦٣).

هذا موقف عظيم يقدم لنا الأسوة والقدوة، في معنى التضحية بمتاع الدنيا في سبيل رضا الله عز وجل.

فصهيب الرومي جاء مكة فقيراً فاغتنى بها، وأصبح ذا مال وسعة من العيش، لكنه لم يركن إلى رغد العيش الذي جاءه بعد حرمان.

لم يركن إلى الغنى بعد الفقر، لكنه آثر حب الله ورسوله، وهانت الدنيا برخص المال أمام رضا الله عز وجل، فترك ماله لقريش وفر مقابل أن يتركوه لهجرته، كي يدرك رسول الله ﷺ، ولقد أخبر الله تعالى الرسول ﷺ بتضحية صهيب، فلما بلغ صهيب قُباء، ورآه الرسول ﷺ استقبله بحفاوة وفرح وسرور، ثم بشّره بأن الله قد تقبل منه، فقال له: « ربح البيع أبا يحيى.. ربح البيع أبا يحيى... ربح البيع أبا يحيى » وفي التكرار تأكيد البشرى.

وأنزل الله في هذا الموقف الكريم لصهيب قرآنًا يُتلى، فيه مدح لهذا الصحابي الكريم، وسلوكه الإيماني؛ كي يتأسى المؤمنون الصادقون به في كل زمان ومكان ما دامت آيات الله تُتْلى إلى يوم القيامة.

قال تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة/٢٠٧].

٣٩ - أثر الصفح والعفو

ذهب فُضالة بن عُمَير الليثي قاصداً قتل النبي ﷺ أثناء طوافه بالبيت، فلما دنا منه قال الرسول ﷺ : «أفُضالة ؟ !». قال : نعم فُضالة يا رسول الله.

قال ﷺ : «ماذا كنت تحدّث به نفسك ؟

قال : لا شيء، كنت أذكر الله.

فضحك النبي ﷺ ثم قال : «أستغفر الله».

ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه، فما كان من فُضالة إلا أن قال :

والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله أحبُّ إليَّ منه.

وأسلم فُضالة بهذا الصفح الكريم، وزالت من قلبه العداوة، وحلّت محلها محبة رسول الله ﷺ.

(*) البداية والنهاية لابن كثير (٤ / ٣٠٨).

هذا الموقف يحمل فيضًا كريمًا من سماحة رسول الله ﷺ عفوه، وحرصه على الآخر، وأنه كان يقابل الإساءة بالإحسان.

لقد قدم ﷺ أعظم المناهج التربوية للمصلحين، ووصف لهم سبل الهداية التي يتم بها إنجاز أخطر وأعظم عملية تغيير للإنسان : من الضلال إلى الهدى، ومن الفساد إلى الصلاح، ومن الكفر إلى الإيمان، وهذه حقيقة أكدها القرآن الكريم في حق المصطفى ﷺ، قال تعالى :

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران/ ١٦٤].

وأمام هذه المهمة السامية والرسالة العالية، ألا وهي هداية الناس، يوضح لنا رسول الله ﷺ - من خلال هذا الموقف - أنه لا مكان لنزغات النفس وظهور الأنانية، وهكذا كان شأنه ﷺ أنه كان لا ينتصر لنفسه، ولا يغضب لنفسه، ولا ينتقم لنفسه، إلا أن تنتهك حرمة من حرمات الله.

لقد باع نفسه لله : **﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾** [الأنعام/ ١٦٢].

ولا غرابة بعد ذلك أن نرى النبي ﷺ قد ألزم نفسه التواضع، وكان يقول : «إنما أنا عبد أجلس كما يجلس العبد، وآكل كما يأكل العبد، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد»[1].

ودلالة أخرى في هذا الموقف : هي استعانة الداعية والمصلح والمربّي بالله - عز وجل - في معالجة فكر ونفس ومشاعر من أمامه؛ كي لا يرى لنفسه فضلاً

(١) الشفا، القاضي عياض (١/ ١٨٨، ٢٦٣).

فى هذا التحول النورانى، وذلك التغير الإيمانى، بل ينسب الفضل لله عز وجل؛ لذلك دعا ﷺ له بالهداية : « اللهم اهد قلبه ».

أيضًا هناك دلالة أخرى فى هذا الموقف النبوى الكريم، وهى إرشاد الحائر الضال إلى ما يصلح شأنه من ذكر أو دعاء أو عمل صالح؛ لذلك قال النبى ﷺ لفضالة : « استغفر الله يا فضالة ».

ثم تأمل - رحمك الله - فى هذا الموقف النبوى الكريم، كيف قابل النبى ﷺ رغبة القتل من فضالة بالابتسامة الحانية، والكلمة الطيبة والدعاء، واليد الحانية التى كانت بلسمًا سكن به قلب فضالة، وتحوَّل الموقف من العداوة إلى المحبة، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ ... **ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ** ﴾ [فصلت/٣٤].

٤٠ - رعاية الخصوصية النفسية

لما انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وحان وقت الصلاة.. قام بلال ﷺ يؤذن فى الناس، فلمَّا وصل إلى قوله: «أشهد أن محمداً رسول الله».

خنقته العبرات .. واحتبس صوته. ثم أذن بعد ذلك ثلاثة أيام، فكان كلما وصل إلى قوله :

«أشهد أن محمداً رسول الله» بكى وأبكى .. فطلب بلال من أبي بكر ﷺ أن يُعفيه من الأذان، وأن يأذن له في الخروج إلى الجهاد، والمرابطة فى بلاد الشام، فتردد الصديق أبو بكر ﷺ.

فقال له بلال : إن كنت اشتريتنى لنفسك فأمسكنى، وإن كنت قد أعتقتنى لله فخَلِّنى لمن أعتقتنى له.

فقال له أبو بكر : ما أعتقتك إلا لله، وأذن له فى ترك الأذان والخروج إلى الجهاد.

(*) ذكره فى أسد الغابة (١ / ٢٤٤).

الناس لهم مشاربٌ مختلفة وميول متباينة، لذلك لا يمكن أن تطبع الناس بطابع واحد، بل لابد من مراعاة الفروق بين الأفراد ومن هنا تأتى فكرة الخصوصية للإنسان فى آرائه الخاصة فى حدود وإطار: لا ضرر ولا ضرار. ولقد نهى الإسلام عن كل ما ينال أو يعتدى على خصوصية الإنسان.

والموقف موضوع الحديث يعالج فكرة الخصوصية النفسية للإنسان، فنجد سيدنا بلالاً ﷺ حين فاضت مشاعره، لم يستطع أن يغالبها أو أن يتحكم فيها، فغلبته مشاعره وهو يؤذن بعد وفاة النبى ﷺ؛ فبكى واحتبس صوته. فلما تكرر منه ذلك، ولم يعد يحتمل الأذان فى غياب رسول الله ﷺ استأذن أبا بكر ﷺ فى أن يترك المدينة وينضم لإخوانه المجاهدين فى سبيل الله والمرابطين فى الشام.

ولقد رأى الصديق أبو بكر ﷺ برحابة نفسه وقوة روحه أن يستبقى بلالاً ليرفع الأذان كما كان يرفعه على عهد رسول الله ﷺ، وهذه طاقة خاصة لأبى بكر، ومَنْ كأبى بكر ﷺ فى طاقته الخاصة، التى لم تُتح لكثيرين ؟! ألم يأت بكل ماله مرات ومرات لرسول الله ﷺ كى ينفقه فى سبيل الله ألم يقف فى لحظة الحزن الشديد عندما أعلن خبر وفاة رسول الله ﷺ وقد اضطربت مشاعر المسلمين، حتى إن عمر بن الخطاب الفاروق ﷺ، أمسك بالسيف، وقال: من قال إن محمداً قد مات قطعت عنقه، فقام الصديق أبو بكر بثبات، وتلا قول الله تعالى: ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ** ﴾ [آل عمران/١٤٤].

فهذا هو أبو بكر ﷺ فى همته وثباته، فى حين أن بلالاً ﷺ رجلٌ تغلبه مشاعر فياضة فى حب رسول الله ﷺ، فلم يستطع أن يسلك مسلك أبى بكر ﷺ.

ولمّا كان أبو بكر ﷺ له سبق فضل على بلال ﷺ لما أعتقه من الرق، وقع في نفس بلال أنه لا يستطيع أن يرد كلام أبي بكر بسبب هذا الفضل السابق لأبي بكر على بلال. إن بلالاً يحس بضغط أدبي؛ بسبب فضل أبي بكر السابق عليه في عتقه. فواجه بلالٌ نفسه ليحسم الأمر على نفسه، وقال لسيدنا أبي بكر ﷺ: إن كنت قد اشتريتني لنفسك فامسكني، وإن كنت أعتقتني لله فخلّني لله. وهنا أوضح أبو بكر لسيدنا بلال بأنه أعتقه لله، وأذن له في الخروج من المدينة إلى المجاهدين والمرابطين في الشام رعاية لخصوصية مشاعر بلال ﷺ.

وهذا درس قيّم يعلمنا أدبًا من آداب الإسلام السامية، وهو مراعاة خصوصية الغير في مشاعره، وفي اختياراته في حدود: لا ضرر ولا ضرار.

اللم أدبنا بأدب سيدنا رسول الله ﷺ وخلّقنا بخلقه. يا رب العالمين.

٤١ - تعال نؤمن ساعة

كان عبد الله بن رواحة إذا لقي الرجل من أصحاب رسول الله ﷺ قال :

تعال نؤمن بربنا ساعة .

فقال ذلك ذات يوم لرجل ، فغضب الرجل وجاء إلى النبي ﷺ فقال :

يا رسول الله ، ألا ترى إلى ابن رواحة يرغب عن إيمانك إلى إيمان ساعة ؟!

فقال النبي ﷺ :

« يرحم الله ابن رواحة ! إنه يحب المجالس التي تتباهى بها الملائكة » .

(*) أخرجه أحمد في المسند (٣ / ٢٦٥) .

هذا الموقف يقدم لنا عظات هادية فى رحاب فضل مجالس الذكر، وكيف أن هذه المجالس تحبها الملائكة وتتباهى بها.

ولكى ندرك منزلة الذكر بين العبادات يكفى أن نتأمل أن الله – عز وجل – حين افترض على عباده كل عبادة من العبادات وأمرهم بها، جعل لها حداً معلوماً؛ فالصلاة عبادة محددة فى أوقات محددة، وكذلك الزكاة والصيام، والحج، فى حين أنه لمَّا أمر الله عباده المؤمنين بالذكر، جعله على قدر الوسع والطاقة، ولم يجعل له حداً محدوداً ولا وقتاً معلوماً.

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [الأحزاب / ٤١ – ٤٢].

وجعل الله الذكر غذاء للقلوب والأرواح، بل إن حاجة القلب إلى ذكر الله تفوق حاجة الجسد إلى الطعام والشراب، للدرجة التى يعبر فيها النبى ﷺ عن الفرق بين الذاكر والغافل، بقوله ﷺ :

« مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكر ربه : مثل الحى والميت »(١).

كما يتبين لنا فى هذا الموقف أن الملائكة تحب مجالس الذكر، وتحفُّها وتتباهى بأهلها، والأحاديث فى ذلك كثيرة، منها قوله ﷺ :

« ما اجتمع قومٌ يذكرون الله – عز وجل – إلا حفَّتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده »(٢).

ومن دلالات الموقف أيضاً : حرص عبد الله بن رواحة رضي الله عنه على تذكير إخوانه بذكر الله – عز وجل – وهذا شأن المؤمن الذى يعين أخاه على الطاعة،

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه أيضاً.

وبخاصة في أوقات الغفلة عن ذكر الله، وهذا من باب التواصي بالحق والتعاون على الخير. وفي هذا روى ابن أبي الدنيا عن أبي قلابة قال :

« التقى رجلان في السوق، فقال أحدهما للآخر : تعال نستغفر الله في غفلة الناس، ففعلا. فمات أحدهما، فلقيه الآخر في النوم فقال : علمت أن الله غفر لنا عشية التقينا في السوق ».

أيضًا تخبرنا السنة المطهرة بأن الله جعل ملائكة يلتمسون مجالس الذكر، فإذا وجدوا مجلسًا تنادوا: هلموا، حتى إذا انتهى المجلس صعدوا يرفعون أحوال الذاكرين إلى الله عز وجل، ويسألون ربهم الجنة ويتعوذون ربهم من النار، فيتعم الله بواسع مغفرته ورحمته، قائلاً :

« أشهدكم – يا ملائكتي – أني قد غفرت لهم ».

فتقول الملائكة : يا رب ، فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة.

فيقول الله عز وجل : « وله قد غفرت، هم القوم لا يشقى جليسهم »[١].

هذا فضلاً عن ثمرات الذكر في الدنيا من طمأنينة القلب وراحة النفس.

قال تعالى : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ [الرعد/٢٨].

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ٢١٠١)، ومسلم (٤/ ٢٦٢٨).

٤٢ - دعوة النبى ﷺ لأم أبى هريرة

كان أبو هريرة ﷺ كلما دعا أمه إلى الإسلام نهرته، حتى دعاها ذات يوم، فأسمعته فى رسول الله ﷺ ما يكره.

فذهب أبو هريرة ﷺ من فوره يبكى لرسول الله ﷺ راجيًا إياه قائلاً: ادعُ الله أن يهدى أم أبى هريرة، فدعا لها رسول الله ﷺ.

فلما عاد أبو هريرة ﷺ إلى المنزل، فوجد الباب مردوداً. فقالت له أمه: مكانك يا أبا هريرة. وعجلت إلى خمارها بعد اغتسالها ثم فتحت لولدها أبى هريرة، وقالت:

أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

فرجع أبو هريرة ﷺ يبكى فرحًا إلى رسول الله ﷺ ويخبره بهذا الخبر.

(*) رواه مسلم فى «الفضائل» رقم ١٠٨.

هذا موقف إيماني عظيم يحمل دلالات هادية منها:

أن الإنسان لا يسلم من بعض المتاعب التي تشق عليه، وقد يعجز الإنسان بما بين يديه من أسباب متاحة أن يعالج هذه المتاعب، وهنا ينبغي على الإنسان أن يسارع بالتوجه إلى الله تعالى وحده بالدعاء؛ فالله وحده هو القادر، هو القريب، هو المجيب، هو الذي يملك أن ينجز ما نعجز عنه من أمور، وللمؤمن أن يطلب الدعاء من أهل الصلاح والفلاح والتقوى، ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة/٢٧]، وقد بشر القرآن الكريم كل من التجأ بالدعاء إلى الله تعالى، فقال عز وجل:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة/١٨٦].

هذا الموقف يستفاد منه أمور كثيرة، في بدايتها يستفاد منه البر بالأم، كان أبو هريرة ﷺ حريصًا على البر بأمه، وكان حريصًا على أن يقدم لها أسباب الهداية، فكان يُذكِّرها بحال رسول الله ﷺ، وكان يذكِّرها بخلق رسول الله ﷺ، ويذكِّرها بآيات القرآن الكريم، ولكنها كانت مُعرضة، غير راغبة، فعزَّ ذلك على أبي هريرة ﷺ؛ فلما كرر على أمه الدعوة إلى الإسلام وذكر لها رسول الله ﷺ نالته بشيء من السوء في الكلام، فخاف أبو هريرة على أمه أن ينزل قرآن في شأنها، فتعجل من فوره وذهب مسرعًا إلى رسول الله ﷺ يعرض أمر أمه على الرسول بأسلوب يستعطف فيه النبي ﷺ، فيطلب الدعاء من رسول الله ﷺ لأمه، فأكرمه رسول الله ﷺ فدعا لها بالهداية واستجاب له الله عز وجل.

وهنا يظهر أثر الإيمان في الإنسان، فأبو هريرة لم يقابل إعراض أمه بإعراض مثله، ولا عزف عن تكرار الدعوة لأمه كي تدخل الإسلام، بل كان ينطلق في

ذلك كله من حقيقة كبرى وهي بالإيمان بالله عز وجل، والإيمان يفرض عليه حسن العشرة والبر بأمه، ثم نأتي إلى فضيلة الدعاء، فإنها تأخذ حيزًا بارزًا ينبغي أن يلتفت إليه المؤمن، وأشار إليه سيدنا محمد ﷺ مبشرًا كل من اتجه بالدعاء لله قائلاً :

«ما من مؤمن يدعو بدعوة ليس بها إثم أو قطيعة رحم إلا كان له بها إحدى ثلاث : إما أن يعجل الله دعوته له في الدنيا، وإما أن يصرف عنه من السوء بمثلها، وإما أن يدخر له دعوته إلى يوم القيامة»[١].

فالنبي ﷺ يبين لنا أنه لا يكون إهمال لأي دعوة يتوجه بها الإنسان لله عز وجل، فإما أن يعجل الله له الدعوة في الدنيا فتقبل حاجته، وإما أن يصرف عنه من السوء بمثلها، ويكون المؤمن في هذه الحالة محتاجًا إلى صرف هذا السوء لأنه لا يحتمله، أو أن يدخر الله عز وجل له ثواب ذلك إلى يوم القيامة.

وهذا درس للدعاة، يتعلمون منه أنهم مهما بلغت المعصية وأن الإنسان مهما بلغ به الإعراض عن الهداية والرشاد، فإن باب الرحمة وباب التوبة وباب الهداية مفتوح أمامه، فهداية الله قد تأتي في أي أوان وفي أي مكان.

---

(١) سبق تخريجه.

٤٣ - يوم عيد وخُبزٌ خَشِنٌ

دخل بعض الصحابة على الإمام علي - كرم الله وجهه- في يوم عيد، فوجدوه يأكل خبزاً فيه خشونة، فاعترضوا عليه قائلين:

«يا أمير المؤمنين يوم عيد وخبز خشن ؟!»

فقال لهم :

«اليوم عيد لمن ؟! اليوم عيد لمن ؟! اليوم عيد لمن قُبِلَ بالأمس صيامه وقيامه. عيد لمن غفر ذنبه، وشكر سعيه، اليوم لنا عيد، وغداً لنا عيد، وكل يوم لا نعصى الله فيه فهو لنا عيد».

(*) الخطب المنبرية للأستاذ / محمد أبو الفضل، ص ١١٩.

هذا الموقف العظيم يحمل دلالات هادية :

أولاها : إظهار حقيقة إيمانية بشأن فرحة العيد وبشأن مشاعر المسلمين فيه، فالإسلام دين الفطرة التي فطر الناس عليها، فهو لا يصادر المشاعر، ولا يحجب العواطف، وإنما يهذبها ويوجهها توجيهًا إيمانيًا، لتعود بالخير على صاحبها وتبنى فيه القيم الإيمانية؛ ولتكون هذه المشاعر وسيلة قرب لله تعالى، وتتربى فينا عاطفة الامتثال لأوامر الله عز وجل. وفى إطار هذا المفهوم الإيمانى الذى يشير إليه موقف الإمام علىّ ﷺ نجد أن الله قد ربط العيدين فى الإسلام بطاعتين عظيمتين؛ فعيد الفطر ارتبط بطاعة الصيام، وعيد الأضحى ارتبط بطاعة الحج؛ ليتعلم المؤمن أن الفرح والسعادة يكون بإتمام الأعمال الصالحة كما يحب ربنا ويرضى.

قال الله تعالى : ﴿ **قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** ﴾ [يونس/٥٨].

ويقال أيضًا : ليس العيد لمن لبس الجديد، ولكن العيد لمن خاف يوم الوعيد، ولذلك أشار الإمام على - كرم الله وجهه - إلى هذا المعنى أن يوم المؤمن إذا كان فى طاعة، وفى حب الله وإخلاص له يكون له يوم عيد.

ربط الإمام على - كرم الله وجهه - الفرح بالعيد بطاعة الله عز وجل؛ لأن فرح المؤمن بعيد الفطر ليس لأنه قد انتهى من الصيام، وانقطع عنه الجوع والعطش، وإنما لأن الله تعالى وفقه إلى طاعة الصيام، ولذلك فالمؤمن يتمنى أن تكون السنة كلها رمضان.

● إن أعياد المسلمين كلها أعياد ربانية من اختيار الله رب العالمين، يشاركنا فيها الفرحة أهل السماء، وهى أعياد تبدأ بالتكبير والصلاة إعلانًا عن فرحة التوفيق بالانتصار على النفس والهوى والشيطان، وحمداً لله تعالى على

فضله وإعانته على ذكره وشكره وحسن عبادته، ومن شكر نعمة الله على توفيقه ألا يعيش المسلم فرحة العيد وحده، بل يشرك معه الفقراء والمساكين، ويكون التزاور والتراحم والترويح بما أحل الله من الطيبات، وقد أوضح الإمام عليّ - كرم الله وجهه - في هذا الموقف أن أكل الطيبات أو عدم أكل الطيبات ليس هو المظهر الوحيد للعيد، ولكن المظهر الحقيقي أو حقيقة العيد هي ألا يعصي المؤمن ربه، وأن يكون على طاعة دائمة مع الله وحب مع رسوله ﷺ، فيوضح هذا الموقف هذه الحقيقة الإيمانية من قول الإمام علي - كرم الله وجهه -: فكل يوم لا نعصي الله فيه فهو لنا عيد.

فليس معنى العيد في ضوء هذه العبارة كما يحسب بعض الغافلين انفلاتًا من كل قيد أو انطلاقًا للشهوات وقطعًا للصلة بالله تعالى، بل النجاة والسلامة من الذنوب والآثام من أهم المعاني الإيمانية للعيد عند المسلمين، وهذا ما تشير إليه أحاديث النبي ﷺ، وتعلم الإمام عليّ هذه الحقائق من سيدنا رسول الله ﷺ؛ فتأسى بها واهتدى بها، واقتدى بها وأراد أن يعلمها للأمة.

ومظاهر الفرحة في العيد كما وضحها الإسلام متنوعة ومتعددة، ولها جوانب، فهنالك الجانب المادي المتمثل في الطعام إن توفر للإنسان والملبس الجديد إن توفر للإنسان، وفي التزاور وفي الترويح بشرط أن يكون ذلك من جانب الحلال الذي أحله الله عز وجل. وهناك جانب إيماني، وهو أن تبدأ الفرحة بالتكبير بصلاة العيد، وذكر الله سبحانه وتعالى. ولها جانب اجتماعي آخر وهو الإحسان والتصدق على الفقراء والمساكين واليتامى؛ كي يكفيهم مذلة السؤال في هذا اليوم.

إذًا نرى الفرحة في العيد بكل هذه الأبعاد، ولكن لا يريد الإسلام من المسلم بعد أن أتم صيامًا وقيامًا، وبعد أن عاش حياة إيمانية في رمضان أن ينفلت زمامه ويلهو مع اللاهين ويكون مع الغافلين ويقع في كثير الذنوب والآثام. والحمد لله رب العالمين.

٤٤ - إنها سرٌّ !

كـان أنس ﷺ يلعب مع الغلمان ، فأرسله رسول الله ﷺ في بعض حاجته ، فتأخر أنس عن أمه ، فسألته عن سبب تأخره ، فقال لها :

بعثني رسول الله ﷺ في بعض حاجته .

فقالت له :

وما حاجته ؟! فتوقف أنس وامتنع عن الإجابة .

فقالت له أمه :

ما الأمر يا ولدي؟

فقال :

إنها سر .

فقالت له :

لا تخبرني بسر رسول الله ﷺ .

(*) رجال حول الرسول، ترجمة أنس ﷺ .

هذا الموقف يعالج عادة سيئة استحكمت في كثير من الناس، وهي التطلع بحرص إلى معرفة الأسرار، حتى شاع بين الناس أن إفشاء الأسرار لون من التقرب والمودة مع من يحبون، وندرك هذا من الكلمة الشائعة على لسان عامة الناس في مثل هذا الموقف حين تقول لهم : إن هذا الأمر سر، فيقولون : أسرٌ عليٌ . . وهل بيننا أسرار؟! والحق أن السر باب من أبواب الوفاء بالعهد والأمانة، وكشف السر خيانة يأثم الإنسان بها عند الله تعالى، ويأخذ حكم السر كل مسألة استشعر الإنسان حرص صاحبها على عدم إشاعتها بين الناس لقول النبي ﷺ : «إذا حدث الرجل أخاه ثم التفت كان الحديث أمانة»(١) وقد يتهاون البعض في إفشاء الأسرار الخاصة بالحياة الزوجية ظنًا منهم أنها ملك لهم . وهذا حرام لورود تشديد النهي عنه في السنة النبوية، قال رسول الله ﷺ :

«إن من شر الناس منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى المرأة وتفضي إليه ثم ينشر سرها»(٢) .

أيضًا من دلالات الموقف تأدب الأم بأدب الإيمان، فحينما علمت أنه سر، قالت لولدها : «لا تخبرني بسر رسول الله ﷺ» .

وفي ضوء هذا الموقف نود أن نتعرف على مزيد من الأمثلة التي توضح ما لحفظ السر من قيمة بالغة في حياتنا الإسلامية .

نعم لنا أسوة في حرص صحابة رسول الله ﷺ على حفظ الأسرار، روى البخاري من حديث عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – أن عمر ﷺ حين تأيمت بنته حفصة، بمعنى : «أنها أصبحت لا زوج لها» .

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ١٩٥٩)، وأبو داود (رقم ٤٨٦٨) .
(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٤ / ٣٩١) .

قال : لقيت عثمان بن عفان ﷺ فعرضت عليه حفصة، فقلت إن شئت أنكحتك حفصة. قال عثمان : سأنظر في الأمر. يقول سيدنا عمر ﷺ : فلبثت ليالي، ثم لقيني فقال: قد بدا لي ألاّ أتزوج يومي هذا. فلقيت أبا بكر فقلت :

يا أبا بكر إن شئت أنكحتك حفصة، فصمت أبو بكر ﷺ فكنت عليه أوجد مني على عثمان. ثم لبثت ليالي، ثم خطبها رسول الله ﷺ فأنكحتها إياه، فلقيني أبو بكر فقال:

لعلك وجدت عليّ حين عرضت عليّ حفصة ؟ فقلت : نعم.

قال أبو بكر : فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت علي إلا أنني كنت علمت أن النبي ﷺ ذكرها فلم أكن لأفشي سر رسول الله ﷺ ولو تركها النبي ﷺ لقبلتها(١).

---

(١) ذكره ابن سعد في الطبقات (٨ / ٨٢).

٤٥ - وماذا أقول لله عز وجل ؟!

بينما كان الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ يسير من المدينة إلى مكة لقضاء عمرة، أصابه وأصحابه جوع شديد فمروا بشاب يرعى الغنم، فسأله سيدنا عمر أن يبيع لهم شاة.

فقال الشاب :

إنما أنا أجير عليها.

فأعجب عمر من أمانته، وأحب أن يتأكد منها، فاختبره قائلاً : قل لسيدك :

أكلها الذئب.

فقال الشاب :

وماذا أقول لله عز وجل ؟!

ثم ذهب عمر لسيده بمكة فاشتراه وأعتقه وقال له : مثلك ينبغي ألا يكون عبداً لغير الله عز وجل.

(*) راجع درة الناصحين، ص ١٢٠.

هذا الموقف الكريم يحمل دلالات هادية منها :

هذا الضمير اليقظ الذي تصان به حقوق الناس، وتحفظ به من دواعي الخيانة أو التفريط والإهمال، والأمانة من أوضح علامات صدق الإيمان، قال رسول الله ﷺ : « لا إيمان لمن لا أمانة له »[١]، رفض هذا الشاب أن يبيع الشاة؛ لأنه لا يملكها وأعلن خوفه من الله تعالى، واستشعر المسئولية عنها، وهذا المعنى الإيماني يؤكده رسول الله ﷺ بقوله : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته »، إلى أن قال ﷺ : « والخادم في بيت سيده راع وهو مسئول عن رعيته »[٢].

وكما أن الأمانة من علامات الإيمان الصادق، فإن ضياع الأمانة من علامات الساعة، فقد جاء رجل يسأل رسول الله ﷺ : متى الساعة ؟!

فقال له ﷺ : « إذا ضُيِّعَتْ الأمانة فانتظر الساعة ».

فقال الرجل : وكيف إضاعتها ؟

قال ﷺ : « إذا وُسِّدَ الأمر لغير أهله فانتظر الساعة »[٣].

أيضًا من دلالات الموقف وعظاته البالغة بيان الجزاء الأوفى من الله تعالى، لمن ترك الحرام مخافة الله عز وجل، فإن الله تعالى يبدله خيراً منه، فالشاب حين ترك بيع الشاة بدراهم معدودة مخافة الله عز وجل، عوضه الله خيراً كثيراً، فقد اشتراه سيدنا عمر ثم أعتقه، ونال العبد حريته. وورد في الأثر: « من ترك شيئًا من الحرام مخافة الله عز وجل أبدله الله خيراً منه في الحلال ».

وهذا الموقف يجعلنا نقف وقفة إعجاب بهذا البطل، الشاب التقي العفيف النقي الذي كان عنده سلطان من ضميره، فلم يفرط في الأمانة التي

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ١٣٥، ١٥٤، ٢١٠، ٢٥١).
(٢) أخرجه البخاري (٢ / ٤٤١ / ٨٩٣ مع الفتح)، ومسلم (٤ / ١٢ / ٢١٣ مع النووي).
(٣) سبق تخريجه.

أمره الله بأدائها، كما يقول الله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ [النساء/٥٨]؛ هذا البطل الشاب يجعلنا نتعرف على هذه الأمانة وهي سلطان المراقبة على الضمير، وهي تتمحور في ثلاثة محاور :

المراقبة من النفس، ثم المراقبة من الله، ثم المراقبة من الناس. وفي ضوء هذه المعاني : أحب أن أذكر حقيقة إيمانية، وهي أن كل الفضائل من الإخلاص والأمانة والصدق والوفاء بالوعد، وغير ذلك أساسها المتين الإيمان بالله عز وجل، فكلما زاد الإيمان زاد التمسك وزاد الالتزام بهذه الفضائل، فهذا انعكاس لمستوى الإيمان نغبطه عليه.

ومن دلالات الموقف أيضًا، ما نستفيده من موقف سيدنا عمر ﷺ، فقد وقف بجانب الشاب لأمانته وطاعته؛ كي يشعر الشاب بتقدير أهل الإيمان له، ويكون ذلك حافزًا له ولغيره على التمسك بالفضائل، وهذا من باب التعاون على فعل الخيرات وترك المنكرات، قال الله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة/٢].

وفي هذا أيضًا تنمية للفضائل في المجتمع وتزكية الصالحين في الحياة، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه.

وخلاصة هذا الموقف هو : أننا نريد أن يتعلم منه شبابنا أن الأمانة كانت بالنسبة لهذا الشاب طوق أمان، جعله يفوز بالعتق من العبودية، وهذا ما فعله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ.

أسأل الله تبارك وتعالى أن يتولانا ويرضى عنا، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

٤٦ - دع للصلح موضعاً

شتم رجل أبا ذر الغفاري ﷺ فقال له أبو ذر:

يا هذا لا تستغرق في شتمنا ودع للصلح موضعاً، فإنا لا نكافئ من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه.

فهدأ الرجل وكف عن الشتم.

(*) تنبيه الغافلين للسمرقندي، ص ٢١٢.

هذا الموقف يحمل دلالات هادية في رحاب الأسوة الحسنة، والقدوة الصالحة في التعامل مع الناس، فالمؤمن لا يشارك المسيء ولا يجاريه بل يلتزم بهدى القرآن الكريم، ويتأدب بأدب نبي القرآن وصاحب الخلق العظيم سيدنا محمد ﷺ، فأبو ذر لم يقابل السيئة بالسيئة، بل اهتدى لقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [فصلت/٣٤]، أيضًا يشير الموقف إلى ثمرة الالتزام بحسن الخلق؛ حيث إن الرجل الشاتم هدأ وكف عن شتمه، وتحول الموقف من البغضاء والعداوة إلى المودة والصفاء، وهذه حقيقة يؤكدها القرآن الكريم، قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت/٣٤].

وكما أن لحسن الخلق أثرًا محمودًا في إصلاح العلاقات بين الناس، فإن لحسن الخلق أثرًا في رفع منزلة العبد عند الله تعالى، وعند رسوله ﷺ.

قال رسول الله ﷺ :

«إن أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا»[١].

وحين سئل النبي ﷺ : أي المؤمنين أفضل إيمانًا؟

قال ﷺ : «أحسنهم خلقًا»[٢].

وفي ضوء هذا الموقف نود أن نتعرف على الآثار التي تترتب على سوء الخلق لا سيما وقد تعلمنا من سيرة رسول الله ﷺ، وفي موقف آخر مشابه لهذا الموقف أن الرسول ﷺ قد أقبل عليه رجل سيء الخلق، فعندما دنا منه، بشّ في وجهه وحدثه بكلام طيب، ثم قال للسيدة عائشة- رضي الله عنها - عندما تعجبت من صنيعه :

«إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من خافه الناس أو اتقاه الناس لفحشه».

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢/٤٧٢)، وأبو داود (٤/٢١٩/ ح ٤٦٨٢).

وكما رغب رسول الله ﷺ في حسن الخلق فقد حذر ﷺ من سوء الخلق؛ لأن سوء الخلق يفسد العمل الصالح، ولقد قيل لرسول الله ﷺ : إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل، وهي سيئة الخلق تؤذي جيرانها بلسانها، فقال ﷺ :

«لا خير فيها هي من أهل النار»(١).

وفي الموقف أيضًا دلالة عظيمة، وهي أن الشتم والطعن واللعن ليس من أخلاق المؤمن، ولقد قال النبي ﷺ :

«ليس المؤمن بطعان ولا لعان ولا فاحش ولا بذيء»(٢).

وهكذا يظهر لنا أن حسن الخلق يبلغ بالعبد المنازل العالية عند الله عز وجل، وعند رسول الله ﷺ، وإن العبد ليبلغ درجة الصائم القائم بحسن خلقه، ويظهر لنا أيضًا أن سوء الخلق يفسد العمل الصالح، وينتكس بالعبد إلى منازل سيئة مع الكفار، والمنافقين - والعياذ بالله تعالى - والمؤمن لسانه طاهر زكي، رطب بذكر الله تعالى، لا يعرف الطعن واللعن ولا الفحش.

ونتعرف على خلق المؤمن بمعاملته، والمعاملة الطيبة هي التي تهدف إلى الإصلاح بين الناس عن طريق حسن الخلق، وعن طريق مقابلة الشر بالإحسان وعدم مقابلته بالإساءة، امتثالاً لقول المولى عز وجل :

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت/٣٤]، وهكذا كانت سيرة النبي ﷺ مثالاً ونموذجًا يحتذى في جذب جميع الناس إليه وإلى الإسلام بحسن خلقه وبكلامه الطيب وسيرته الحسنة.

اللهم رطّب ألسنتنا بذكرك، وطهرها من كل مكروه وسوء، وأدبنا بأدب سيدنا محمد ﷺ وخلّقنا بخلقه، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة بسند صحيح، قاله المنذري في الترغيب والترهيب (٣/٣٥٦).
(٢) سبق تخريجه.

٤٧ - لو أقسم على الله لأبره

كان عمر بن الخطاب ﷺ كلما جاء أمداد أهل اليمن سألهم : أفيكم أويس بن عامر ؟ وذلك لأن رسول الله ﷺ قال :

يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن له والدة هو بها بَرٌّ، لو أقسم على الله لأبَرَّه، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل».

فلما التقى به عمر بن الخطاب ﷺ سأله أن يستغفر له، فاستغفر له أويس.

فقال له عمر ﷺ : أين تريد ؟

قال : الكوفة.

قال عمر ﷺ : ألا أكتب لك إلى عاملها (أي: إلى واليها).

فقال أويس : بل أكون في عموم الناس أحب إليّ.

(*) أخرجه مسلم (١٦/ ١٤٢/ ح ٢٢٥ مع النووي).

هذه البشرى العظيمة التي بشر بها رسول الله ﷺ أويس بن عامر القرني، قرنها رسول الله ﷺ وربطها بسبب هذه البشارة، يظهر ذلك من قوله ﷺ : «له والدة هو بها برٌ».

من هنا فهذه البشارة تظهر لنا دلالة عظيمة على أن البر بالوالدين بابٌ عظيم من الأبواب التي ننال بها رضوان الله تعالى وفضله، ولنتحصل بها على أعلى المنازل. ولنتأمل كيف أن سيدنا عمر ﷺ وهو من المبشرين بالجنة ، قد نصحه رسول الله ﷺ أن يطلب من أويس أن يستغفر له؛ أي : يلتمس منه الدعاء ؟! وفي هذا عظيم الدلالة على هذه المكانة العالية التي آتاه الله إياها، وتفضَّل بها على أويس ببركة بره بأمه، أي: أنه وصل إلى الحد الذي جعل دعوته مستجابة على الفور.

وأود في هذا الإطار، أن أقرن هذا الموقف بمواقف أخرى إيمانية تظهر أثر الإيمان وأثر أخلاق الإسلام بين الولد وأمه وبين الولد وأبيه، فالبر بالوالدين فضيلة ومنزلة قرآنية قرنها الله سبحانه وتعالى بعبادته : ﴿ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا** ﴾ [الإسراء/٢٣].

وحين نتأمل أحوال الصالحين من نجوم الهداية الذين تربوا في مدرسة رسول الله ﷺ ، فضرب بهم المثل في البر بالوالدين، وبخاصة الأم، أخص بالذكر منهم الخليفة أمير المؤمنين عمر ﷺ الذي كان يتحسر على أنه ليس له أم يبرها، وعثمان بن عفان ﷺ الخليفة – صهر رسول الله ﷺ – لم يتجرأ أن يرفع بصره إلى أن يلتقي ببصر أمه، تواضعًا لها وخشية من الله عز وجل؛ لأن الله حرم حدة البصر للوالدين، أيضًا حارثة بن النعمان ﷺ الذي كان يطعم أمه، ويقوم على خدمتها ولا يراجعها في كلام تقوله؛ خوفًا أن تتضايق أو تتذمر، والحسن بن علي – رضي الله عنهما – كان يمتنع أن يجلس إلى مائدة

أمه؛ حتى يكون أسرع إلى تلبية حاجتها، ويقول في ذلك: أخاف أن آكل معها فتقع عيناها على شيء من الطعام وأنا لا أدري، فتسبق إليه يدي فآكله.

وفي رحاب الهدى والإيمان يأخذ البر وجوهًا متعددة من: الإكرام والرعاية وحسن الصحبة، والعناية وجميل المعاشرة، وإظهار الوقار والاحترام للآباء والأمهات. كل ذلك فرضه الله عز وجل، وكلما ازداد إيمان المؤمن ازداد بره بوالديه.

وعلى الجانب الآخر نلمس تواضع أويس، حينما قال له عمر ﷺ: ألا أكتب لك إلى عاملها؟ فرفض وفضل أن يكون في عموم الناس، ولم يحب أن يتميز على أحد من أهل اليمن، أو من أقرانه، أو من أصحابه، وهو في ذلك يتأسى بسيدنا النبي ﷺ، فقد كان رسول الله ﷺ لا يحب أن يتميز على أحد من أصحابه، بل حتى في الأعمال الشاقة حينما كانوا في صحراء وأرادوا أن يأكلوا، ووزع النبي ﷺ الأدوار في العمل، اختار لنفسه أصعب وأشق الأعمال، فقال: «عليّ جمع الحطب»، وكان إذا جلس إلى أصحابه جلس كأحدهم؛ فسيدنا أويس يتأسى هنا بسيدنا رسول الله ﷺ، لا يتعالى على إخوانه ولا يتمايز عليهم.

٤٨ - رقية عجـــوز

عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود ﷺ قالت : كان عبد الله إذا جاء داره، فانتهى إلى الباب فتنحنح وأحدث صوتًا يعرف به كراهة أن يرى أمرًا لا يحبه من أهله.

تقول زوجه زينب : وإنه جاء ذات يوم، وعندى عجوز ترقينى من الحمرة (وهو مرض يصيب الجلد) فأدخلتها تحت السرير، فدخل ابن مسعود ﷺ فجلس إلى جانبى فرأى فى عنقى خيطًا.

فقال : ما هذا الخيط ؟!

فقلت : خيط رُقِىَ لى فيه.

فأخذه وقطعه؛ ثم قال : إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك، ثم قال لى : إنما كان يكفيك أن تقولى مثل قول رسول الله ﷺ : «أذهب البأس، رب الناس، اشف وأنت الشافى، لا شفاء إلا شفاؤك شفاءً لا يغادر سقمًا».

(*) أخرجه البخارى (٧/١٥٧، ١٧٣)، ومسلم فى «السلام» (٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩).

يقدم لنا هذا الموقف دروسًا نافعة في الأخلاق والعقيدة منها :

أنه من سنة الهادي البشير سيدنا محمد ﷺ أن يُعْلِمَ الإنسان أهله قبل أن يدخل عليهم كي تتهيأ له زوجه في الصورة التي يستحسنها ويحبها، فيكون هذا من دواعي زيادة الألفة، وتنمية المودة بينهما، وحتى لا يقع بصر الإنسان إذا دخل فجأة على شيء يكرهه من زوجه، فتنقص المودة، ويؤثر هذا على ما بينهما من ألفة، لذلك كان عبد الله بن مسعود ﷺ إذا أتى منزله أعلم أهله وتنحنح قبل أن يدخل، وهذا أدب إيماني رفيع أوصى به رسول الله ﷺ، وقد فعله رسول الله ﷺ، فقد كان حينما يعود من سفر أو رحلة، أو غزوة ينزل في أقرب مسجد من البيت ثم يرسل إلى أهله، ثم بعد ذلك يذهب إلى أهله. ولنا في ذلك أسوة وقدوة في سيدنا رسول الله ﷺ.

على الجانب الآخر، فقد قام ابن مسعود ﷺ بالمعالجة لتنبيه زوجه إلى هذا الخطأ، فلما رأى ابن مسعود الرقية التي صنعتها العجوز لزوجه بدأ ينتقل بحال أهله إلى هدى سيدنا رسول الله ﷺ، فكان منه المسارعة والمبادرة إلى هدى النبي ﷺ، والدافع له في ذلك هو أنه يخاف على أهله من إثم المخالفة وعقوبة المعصية، وهو سلوك إيماني نابع من هدى القرآن الكريم لقول الله تعـــــالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**﴾ [التحريم/ ٦].

وأول حقوق المرأة على زوجها أن يُعَلِّمها أمر دينها، وأن يكون عونًا لها على الطاعة، وقد كانت معالجة ابن مسعود لهذا الموقف بحكمة إيمانية عظيمة، وذلك من خلال الحوار المقنع مع زوجه زينب، فقد وضح لها الحكمة من أخذه الخيط وتقطيعه، وذلك بقوله : «وإن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك»، وهو في هذا مستجيب لهدى رسول الله ﷺ في قوله ﷺ : «إن الرقى

والتمائم والتِّوَلة شرك»(١) ولعل من المفيد للقارئ هنا أن نوضح دلالات ألفاظ هذا الحديث لتحقيق الفائدة فيه :

التمائم : جمع تميمة، وهي الخرزات، كانت العرب يعلقونها على أولادهم، لتحفظهم من العين في زعمهم، أي : الحسد .

التِّوَلة : بكسر التاء وفتح الواو ما يحبب المرأة إلى زوجها من السحر وغيره، وربما شغلت بعض النساء بهذه الأمور، وقول النبي ﷺ : «إن الرقى شرك»(١). المقصود بالرقى هنا الرقية التي تتم بالاستعانة بغير الله ، وهذا هو المحرم من الرقية، أما الرقية الحلال فهي التي تكون بالقرآن الكريم، أو بما ورد من دعاء سيدنا رسول الله ﷺ في صحيح السنة النبوية المطهرة، وهي التي نصح بها عبد الله بن مسعود امرأته بقوله : إنما كان يكفيك قول رسول الله ﷺ : «أذهب البأس رب الناس، واشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك شفاءً لا يغادر سقمًا».

لا شك أن هذه التربية الإسلامية تعمق صلة المؤمن بالعقيدة وتقوى معنى التوكل واليقين عند المؤمن، ولنا أسوة في سيدنا رسول الله ﷺ حين يبين لنا أن الرقى المحرمة التي فيها استعانة بغير الله تعالى، تنافي التوكل على الله تعالى، وفي حديث التوكل، جاء فيه وصف لحال السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب .

قال النبي ﷺ في وصفهم : «هم الذى لا يرقون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون»(٣).

وفي القرآن الكريم وفي السنة المطهرة ما يغني عن هذا كله .

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠ / ٢٦٢).
(٢) سنن أبي داود (٣٨٨٣)، وابن ماجه (٣٥٣٠).
(٣) أخرجه البخاري (١٠ / ١٣٠، ١٣١)، ومسلم (٢٢٠).

٤٩ - تزفزف من الحمى

دخل رســـول الله ﷺ ذات يوم على أم الســـائـب وهى تزفزف - أى : ترتعد - ؛ فقال لها :

«مالك يا أم السائب تزفزفين ؟!» .

فقالت :

من الحُمَّى لا بارك الله فيها وأخزاها الله .

فقال ﷺ :

«يا أم السائب لا تَسُبِّى الحُمَّى ؛ فإنها تُذهب خطايا ابن آدم كما يُذْهِب الكير خبث الحديد» .

(*) أخرجه مسلم فى «البر والصلة» (ب ١٤ رقم ٥٣) .

هذا الموقف ذو دلالة أخلاقية عميقة تتصل بجملة من أصول العقيدة، كانت أم السائب تزفزف، أى : ترتعد، وكان فى جوابها لرسول الله ﷺ ما يعبر عن ألمها من مرض الحمى، وبدرت منها عبارة لا تتناسب ولا تليق بإيمان المؤمن، لأن المؤمن يعلم ويوقن أن الأمور لا تؤثر بذاتها، وإنما التأثير لقضاء الله وقدره، فلِمَ التعجل بسبّ الحمى أو بسب المرض عامة، أو بسبّ الأيام أو بسبّ الزمن، أو بسبّ أى حدث من أحداث الحياة ؟! وفى الحديث : قال النبى ﷺ : «إن الله يقول : يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر»[١].

أى أن المؤثر فى أحداث الحياة هو قضاء الله وقدره، فأم السائب هنا لم تنتبه لهذا المعنى وسبّت الحُمى، فوجهها النبى الأمين معلم البشرية ﷺ الا تفعل ذلك، وبيّن لها الحكمة من وراء عدم سب الحمى.

وقد أرشد النبى ﷺ فى حديث من أحاديثه إلى أن المؤمن دائمًا أمره خير، إذا أصابته سراء كان خيرًا له، وإن أصابته ضراء أيضًا كان خيرًا له، لأن فى كليهما الخير والثواب، فهو الرابح فى النهاية وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن.

فالحقيقة أن هذا الموقف يعلمنا ويهدينا إلى أن ما صدر من أم السائب من سبّ ولعن للحمى أسلوب لا تقبله أخلاق الإسلام، موضحًا أن تحمل الإنسان فى صبر وجلد من مكفرات الذنوب، وليس هناك مسلم يستغنى عن مغفرة الله وعفوه عن ذنوبه، فالحمى فى حقيقتها بمثابة من يحسن إلى المحموم؛ حيث تكون سببًا فى تكفير ذنوبه وفى تحصيل عفو الله سبحانه وتعالى، ومن هنا ينبغى للمؤمن أن يتيقن أنه لن يتحصل على عفو الله إلا بالرضا بقضاء الله وقدره، فإن تبرم أو تضجر أو تأفف أو أظهر عدم الرضا، فالخسارة خسارته، أولاً الخسارة المعنوية؛ مما يترتب على شدة التبرم والألم

---

(١) أخرجه البيهقى (٣/٣٦٥).

في الدنيا، وزيادة المرض، وزيادة الإحساس به، والخسارة يوم القيامة، فهو خاسر لثواب الله، ولعفو الله سبحانه وتعالى.

وهذا لا يعني أن الإنسان لا يحاول إن كان مريضًا أن يدفع المرض أو يحاول العلاج، أو يأخذ دواء، لأن هذا له أصل آخر من أصول الإيمان نبه عليه سيدنا رسول الله ﷺ في حديثه الذي يقول فيه : « تداووا عباد الله فإن الله خلق الداء وخلق له الدواء »[١]؛ فإذا كان الصبر وسيلة لتحمل آلام المرض وتخفيفها من الناحية المعنوية؛ فالدواء وسيلة أخرى لتخفيف هذه الآلام من الناحية المادية، وهذا من عظمة الإسلام حين يراعي هذه الجوانب ويكون التكامل بينهما.

يبقى لنا من هذا الموقف جانب من الأدب النبوي الذي أرشد إليه النبي ﷺ وهو ألا يسب الإنسان المرض، لماذا ؟!

لأنه إذا تدبر الإنسان وتأمل هذه المسألة وجد أنه من العبث واللغو أن يشغل المريض نفسه بسب المرض، ولعن الألم، لأن الألم في حقيقته رحمة من الله تستوجب الشكر وتستبعد اللعن؛ فالمريض لا يستدل على وجود المرض إلا بالألم، فالألم في حقيقته يشير إلى حقيقة العلة التي يعانيها المريض، كي يبحث عن العلاج والدواء، هذا فضلاً عن دور الألم في تحريك إحساسنا ومشاعرنا نحو المرضى كي نتعاطف معهم ونكون عونًا لهم.

---

(١) رواه أحمد في المسند (ح ١٧٩٨٦)، وأبو داود (رقم ٣٨٥٥)، والترمذي (رقم ٢٠٣٨)، وصححه ولفظه : « يا عباد الله تداووا ، فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء إلا داء واحدا ، قالوا: وما هو ؟ قال: الهرم ».

٥٠ - من فقه الضروريات

أخذ المشركون عمار بن ياسر رضي الله عنه فلم يتركوه حتى نال من رسول الله ﷺ وذكر آلهتهم بخير.

فلما أتى النبي ﷺ قال له:

ما وراءك يا عمار؟

قال عمار:

شرٌ يا رسول الله، ما تركوني حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير.

قال النبي ﷺ:

«كيف تجد قلبك؟»

قال عمار:

مطمئن بالإيمان.

قال النبي ﷺ:

«فإن عادوا فَعُد».

(*) انظر أسباب النزول للواحدي، ص ١٦٢.

هذا الموقف أنزل الله فيه قرآنًا يُتلى، يعلمنا فقه الضرورات، وكيف أن المسلم ينبغي أن يكون مرنًا يتفادى الضرر. وقد اعتمد النبي ﷺ هذا الفهم وأرشد إليه عمار بن ياسر؛ ليمحو مشاعر اللوم والتبكيت التي كانت تملأ نفسه؛ بسبب اضطراره لأن ينال من رسول الله ﷺ بالقول كي يسلم من أذى المشركين وينجو من كيدهم له. فبيَّن له النبي ﷺ أن الكلام الذي خرج منه في حال الاضطرار لا يؤاخذه الله عليه، وإنما الاعتبار والمؤاخذة تكون على ما يعتقده الإنسان بقلبه.

ولا شك أن هذا الموقف يُبصِّر المؤمن بفقه الضرورات، وفي القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿**فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [البقرة/١٧٣].

لكن ينبغي أن يعلم المؤمن أن الضرورة تُقدَّر بقدرها، ولا يجوز للإنسان أن يتمادى أو أن يبالغ؛ فأكل الميتة مثلاً مباح عند الضرورة، وهي خوف الموت جوعًا، لكن يأكل الإنسان منها بقدر ما يبقى على حياته فقط.

أما عن القرآن الذي نزل بشأن هذا الموقف بين عمار وسيدنا رسول الله ﷺ، فهو قول الله تعالى: ﴿**إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ**﴾ [النحل/١٠٦].

ويعبر رسول الله ﷺ بأن ما ذهب إليه عمار من دفع الأذى والضرر عن نفسه لون من الرشد في الفهم، فقد أخرج الترمذي عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما خُيِّر عمار بين أمرين إلا اختار أرشدهما»[١].

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٧٩٩)، والحاكم (٣/٣٨٨).

ومن دلالات هذا الموقف : أن العبرة ليست بالألفاظ والكلمات، وإنما العبرة بحقائق الأشياء. وقد نبهنا النبي ﷺ إلى هذه الحقيقة حين وضح لنا أن قومًا يستحلون الخمر يسمونها بغير اسمها[١]، قال ﷺ :

«إن قومًا من أمتي يستحلون الخمر، يسمونها بغير اسمها»، فتغيير الأسماء والكلمات لا يغير من الحكم على حقيقة الأشياء.

أيضًا في هذا الموقف: بيان أن أسلوب السيطرة على الإنسان عن طريق الجسد بتعذيبه أو ضربه سيطرة ضعيفة واهية لا تُغيِّر منه تغييرًا حقيقيًّا، وقد لجأ الكفار إلى هذا الأسلوب مع المسلمين بالتعذيب والإهانة والقتل، وفي المقابل نجد النبي ﷺ يسلك سبيل السيطرة على العقل والقلب من خلال الخطاب الفكري وخطاب المشاعر بآيات الله تعالى.

وفي هذا أسوة حسنة للدعاة أن يتوجهوا بدعوتهم إلى مخاطبة العقل والقلب؛ لأن هذا الأسلوب له ثمرة طيبة في التغيير والتحول بالإنسان من الشر إلى الخير.

---

(١) رواه النسائي (٨ / ٢١٣)، وابن ماجه (٣٣٨٥).

٥١ - من أدب الاختلاف

عندما أمر رسول الله ﷺ المجاهدين الخارجين من المدينة ألا يصلوا العصر إلا في «بني قريظة»، تأوَّل بعضهم الأمر على أن ذلك حثٌّ على الإسراع في السير، ولما أدركهم العصر وقفوا وصلوا في الطريق. في حين وقف البعض الآخر عند ظاهر النص وانتظروا حتى وصلوا.

ولما عُرِض الأمر على الرسول ﷺ قَبِلَ فهم الفريقين، ثم صفَّهم بإزاء العدو جيشًا واحدًا.

(٥) أخرجه البخاري (٢/ ١٩، ٥/ ١٤٣)، ومسلم في «الجهاد» (باب ٢٣ رقم ٦٩).

هذا الموقف العظيم يحمل دلالات متنوعة، أهمها هذا الفقه الذى يقدمه لنا رسول الله ﷺ؛ ليكون أسوة لنا فى علاج الخلاف العلمى، وجمع المؤمنين صفًا واحدًا أمام عدوهم، فقد جمع الله بين أتباع هذا الدين بروح الأخوة، فلا تناحر ولا شقاق. قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران/١٠٣].

وأخوة الدين تفرض التناصر بين المسلمين لإحقاق الحق، وإبطال الباطل، وهل هان المسلمون أفرادًا وأممًا إلا حين وهنت وضعفت أواصر الأخوة بينهم، وشاع بينهم الخلاف والتنافر والتدابر؟! وحسبنا أن نتأمل كيف أن أواصر الأخوة فى الله هى التى أقامت هذا المجتمع الإيمانى فى المدينة أول مرة، وعليها اعتمد رسول الله ﷺ فى تأسيس أمته.

ويزكى الخطاب القرآنى روح الجماعة فى الأمة، حيث وجِّه الخطاب إلى الجماعة فى كل الأوامر والنواهى الواردة، من ذلك قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، تكررت فى سياق التشريع القرآنى للأمة، وفى الدعاء: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة/٥:٦].

وفى السنة النبوية ما يؤكد هذه الحقيقة، حيث أرشدنا النبى ﷺ إلى أن نعمِّم فى الدعاء، ولا يكون الدعاء خاصًا بالإنسان الفرد فقط، وزكى الإسلام فى أتباعه روح العمل الجماعى ونهاهم عن التفرق والتمزق؛ كى لا يكونوا فريسة سهلة لأعدائهم.

من ذلك قوله ﷺ: «الشيطان يَهُمُّ بالواحد والاثنين، فإذا كانوا ثلاثة لم يَهُمَّ بهم»(١). وقوله ﷺ: «يد الله على الجماعة، ومن شذَّ شذَّ فى النار»(٢).

٥٢ - من حقوق إخوة الإيمان

كعادة عمر بن الخطاب ﷺ أنه كان يتتبع أخبار الرعية، وكان له صديق من أهل الشام يزوره كل عام، فلما غاب عن موعد زيارته، سأل عمر أصحابه : ما فعل فلان ابن فلان ؟

قالوا له : يا أمير المؤمنين لقد تتابع هذا الرجل في شرب الخمر . فدعا عمر كاتبه وأملى عليه هذه الرسالة :

«من عمر بن الخطاب إلى فلان، سلام الله عليكم، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، غافر الذنب ، وقابل التوب، شديد العقاب، ثم قال عمر لأصحابه : ادعوا الله لأخيكم بالتوبة.

فلما بلغت الرسالة الرجل جعل يرددها ويقول : غافر الذنب وقابل التوب، شديد العقاب، قد حذّرني ربي عقوبته، ووعدني أن يغفر لي. وتاب الرجل وحسنت توبته.

(*) عبقرية عمر ، ص ٦٩ .

ما أكرمه من موقف عُمرى يفيض بالحكمة ويتسم بالبصيرة، فسيدنا عمر ابن الخطاب ﷺ يستشعر أمانة المسئولية، ويدرك أن كل من ولى من أمر المؤمنين شيئًا فى أى موقع أو عمل؛ فقد جعله الله تعالى راعيًا لهم قائمًا على شئونهم، وأن الله تعالى سيحاسبه على هذه المسئولية، وفى الحديث النبوى الشريف : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته : الأمير راع، والرجل راع على أهل بيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته »[١].

لذلك رأينا أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ يداوم على تتبع أحوال الرعية.

ودرس آخر يستفاد من هذا الموقف وهو : أن المؤمن الصادق لا يترك صاحبه فى شدته، وأخطر الشدائد الوقوع فى معصية الله تعالى. وفى الحديث النبوى الشريف : « انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا »، فقال الصحابة : ننصره مظلومًا، فكيف ننصره ظالمًا ؟!

فقال ﷺ : « تحجزه عن المحارم »[٢].

وفى الموقف نرى سيدنا عمر يسارع بأمرين :

الأول : بذل النصيحة كتابة لبعد المكان بينهما، مستعينًا فى نصيحته بهدى القرآن الكريم، فهو خير سبيل للداعية وأصدق منبع لكل مصلح.

الثانى : هو طلب الدعاء من الصالحين الحضور لأخيهم الذى أسرف على نفسه، ووقع فى شرب الخمر، أن يمن الله عليه بالتوبة الصادقة، وفى هذا بصيرة إيمانية من سيدنا عمر ﷺ، ففى الحديث النبوى الشريف : « دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة »[٣].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخارى (١٢ / ٣٢٨ / ح ٦٩٥٢ مع الفتح).

(٣) أخرجه مسلم فى « الذكر والدعاء » (ب ٢٣ رقم ٨٨).

وكما رأينا في الموقف، فقد استجاب الله تعالى لهذه الدعوات الصالحة، ونفع الله بهذه الرسالة العمرية الحكيمة الهادية.

فما أن بلغت الرسالة الرجل حتى وقعت في قلبه وجعل يرددها، ويقول: غافر الذنب وقابل التوب، شديد العقاب، قد حذرني ربي عقوبته، ووعدني أن يغفر لي، وتاب المذنب وأصبح في صفوف الصالحين.

٥٣ - توفيق الله لك

روى أن الحكيم الترمذى رأى عنده تلميذاً معجباً بنفسه مفتوناً بعمله، لا يكف عن مدح نفسه وتزكيتها.

فاعترضه الحكيم الترمذى، وقال له :

يا ولدى نظرت إلى عملك، ولم تنظر إلى توفيق الله لك سبحانه.

(*) العبادة والعباد، ص ٥٩.

هذا الموقف يحمل دلالات هادية، من أهمها: معالجة إعجاب المرء بنفسه، حين يفخر على إخوانه بأعماله، ويفتن بنفسه، وهي حالة متكررة شائعة بين الناس. والمسارعة بتزكية النفس، والإعجاب بها من أشد أمراض القلوب إهلاكًا؛ لأنها تُورِّث الغرور، والغرور مقبرة النجاح.

ومن هدى القرآن الكريم ألا نسارع بتزكية أنفسنا؛ لأن الله سبحانه وتعالى وحده هو العليم بحال أمورنا، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم/ ٣٢].

وما يتمتع به الإنسان من نعم، هي في حقيقتها من فضل الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل/ ٥٣]، وما فيه الإنسان من صلاح وفلاح ليس لأنه متميز على الناس، فكلنا لآدم وآدم من تراب، والحق أن هذا الصلاح وذلك الفلاح من فضل الله وتوفيقه، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور/ ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود/ ٨٨].

والعبد الموفق من الله ينسب الفضل لصاحب الفضل وهو الله رب العالمين؛ فيقول كما قال سيدنا سليمان - عليه السلام -: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل/ ٤٠]، وحكى القرآن الكريم حال الصالحين حينما يفعلون الخيرات، وكيف أنهم لا يعرفون التباهي بها، أو الإعجاب بشأنها بل يخافون أن يكون قد دخلها رياء أو نقص ولقد سألت السيدة عائشة - رضي الله عنها - رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون/ ٦٠].

قالت : يا رسول الله، هل هو الرجل يسرق ويزني ويفعل السيئات، ويخاف إن رجع إلى ربه أن يعاقبه على هذه السيئات؟ فقال النبي ﷺ : «لا يا عائشة بل هو الرجل يقوم ويصلي ويفعل الخيرات ويخاف إذا رجع إلى ربه ألا يتقبل الله منه ذلك . . يا عائشة أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون»[١]، وهكذا يظهر لنا من موقف الحكيم الترمذي أنه نبه هذا الرجل إلى هذه العلة الخطيرة وهي ألا يفتن المرء بعمله وألا يعجب بنفسه، بل على الإنسان أن ينظر إلى توفيق الله وإلى فضل الله، وإلى نعم الله، ونعم الله - عز وجل - تستوجب الشكر لا الإعجاب والغرور.

وفي صدر هذا الموقف نتعلم حقيقة ينبغي أن ينتبه إليها كثير من الدعاة، وهي أنهم عندما يرون عيبًا ما في شخص يُقبل على العلم ويُقبل على الدين، فمن واجبهم أن يوجّهوا هذا الإنسان إلى خطورة هذا المرض أو هذا العيب أو هذا الداء الذي تمكن منه . فالمعلم أو الأستاذ أو الداعية ليس واجبه فقط أن يقدم أدبًا وخلقًا وتربية لتلاميذه وإلى طلبة العلم عنده، ومن هنا كان واجب العالم أن يكون أسوة وقدوة في البداية، ثم بعد ذلك من واجبه هذا البناء الإيماني، وهذا الإيمان الفكري في رحاب القرآن والسنة، لكل طالب علم؛ حتى يواكب هذه المعارف لون من الأدب النبوي ولون من الخلق القرآني الذي يصاحب هذه المعارف؛ كي تكون نافعة لصاحبها، وكي تكون مقبولة عند الله عز وجل.

وأعتقد أن هذا الموقف يوضح أن الحكيم الترمذي كان طبيبًا بالنسبة لهذا التلميذ الذي قد تمكن داء العُجب وداء الكبر منه، وهذا مرض خطير إذا تمكن من الإنسان جعله ينسب كل شيء إليه، وينسى فضل الله عليه، ولا

---

(١) سبق تخريجه

شك أن أمراض القلوب من أخطر الأمراض التى يتعرض لها المبتدئ بالعلم ويلبس إبليس على طالب العلم بهذه الأمور؛ حتى يفسد عليه ثواب العلم، وثواب البحث، وثواب طلب العلم، ومن هنا لا يتنبه إلى هذه الأمراض الخفية إلا العالم الفاهم الراعى الناضج الذى يبصر بعين الخبرة، ويبصر بعين الله عز وجل هذه العلل الخفية فى طلبته، حتى يوجه ويغير بهدى سنة رسول الله ﷺ.

وفى ضوء هذا الموقف يمكننا أن نتطرق إلى حقيقة مفادها، أنه إذا كان الطبيب من واجبه أن يعالج الأمراض الظاهرة، فمن واجب الحكيم والعالم أن يعالج أمراض النفس الخفية.

٥٤ - معروف الكرخي يدعو للعصاة

كان معروف الكرخي قاعداً على نهر دجلة، فمر به شباب في مركب يضربون الملاهي ويشربون الخمر.

فقال أصحاب معروف الكرخي له:

هؤلاء يعصون الله فادعُ عليهم.

لكن معروفًا رفع يديه، وقال:

اللهم أسألك أن تفرحهم في الآخرة كما فرحتهم في الدنيا.

فاعترض أصحابه عليه، وقالوا له:

إنما قلنا لك ادع عليهم وليس لهم.

فقال معروف:

إذا فرحهم الله في الآخرة تاب عليهم في الدنيا، وأصلحهم، ولم يضرهم بشيء.

(*) حلية الأولياء، ترجمة معروف الكرخي.

في هذا الموقف دلالات هادية، هي منهج تربوي في الإصلاح:

أولى هذه الدلالات: أن الدعاء على المخطئ لا يصلح، وإنما إعانة المخطئ على التوبة والإقلاع عن المعصية هو الدليل القويم للإصلاح والتربية، وينبغي على العاقل ألا يكون ساخطًا ناقمًا فقط على الظواهر السلبية من حوله، بل يهتم بالعلاج متأسيًا بهدي سيدنا رسول الله ﷺ حين قال : «سددوا وقاربوا»(١). والقدوة الصالحة في سيدنا رسول الله ﷺ، صاحب الخلق العظيم الرءوف الرحيم بأمته، فحين دعا أهل الطائف، وبالغوا في إلحاق الأذى به تضرع إلى ربه، ونزل سيدنا جبريل -عليه السلام- يعرض عليه أن يطبق على الكفار الجبلين، وأن يهلكهم، فقال النبي محمد ﷺ : «لا يا أخي يا جبريل لعل الله أن يجعل في أصلابهم ذرية توحد الله»(٢).

ولم يتعجل سيدنا رسول الله ﷺ الدعاء عليهم، بل كان من خلقه العظيم أنه ادخر دعوته المستجابة شفاعة لأمته يوم القيامة، وفي القرآن الكريم منهج قويم في مقابلة السيئة بالحسنة، ويبين القرآن هذا الأثر العظيم، وهذه النتيجة التي ينتظرها الإنسان المؤمن حين يقابل السيئة بالحسنة، واستمع إلى قول الله تبارك وتعالى : ﴿**وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾ [فصلت/٣٤]، هكذا تنقلب العداوة إلى مودة حين تقابل السيئة بالحسنى.

ثاني هذه الدلالات: أن الاشتغال بالدعاء على العصاة والاشتغال بإدانتهم إنما هو لون من مساعدة الشيطان وتقديم العون لإبليس كي يسيطر عليهم، ولكن الصواب أن الاشتغال بالدعاء لهم، والإعانة لإصلاح المخطئ فيه ثواب

---

(١) أخرجه البخاري (١/١٦)، (٨/١٢٣).
(٢) سبق تخريجه.

من الله عز وجل، كما أنه يخشى على من يشتغل بالدعاء على غيره أن تقع منه شماتة؛ فيعاقبه الله عز وجل، ولنا في الحديث الذى رواه مسلم عبرة وعظة. قال رجل في عهد سيدنا محمد ﷺ : والله لا يغفر الله لفلان. فقال الله عز وجل لسيدنا النبى ﷺ : «من ذا الذى يتألى عليَّ - أى من ذا الذى يحلف على الله عز وجل ألا يغفر لفلان - يا محمد قُلْ له إني قد غفرت له وأحبطت عمله»[١]، فأبلغه النبى ﷺ .

وهنا تحذير من الله تعالى، يبلغه لنا رسول الله ﷺ بأن الاشتغال بالتعالى بالحكم على الناس وإساءة الظن بهم، واستعجال العقوبة لهم، ربما أصاب الناس بإحباط العمل واستعجال العقوبة من الله عز وجل عليه لا على من دعا عليه، بل الصواب أن يشتغل الإنسان بالدعاء بالإصلاح والهداية ونحو ذلك.

إذاً فواجب الداعية أن يأخذ بيد المخطئ أو بيد العاصى حتى ينقذه إلى بر الأمان.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير من حديث ابن مسعود، قاله الزبيدى في شرح الإحياء (٩/١٨٨).

٥٥ - نصيحة أم توبيخ ؟!

كان الإمام الشافعي - رحمه الله - في مجلس علم يُعلِّم الناس، فاعترضه رجل بكلام غليظ يتتبع فيه الهفوات.

فقال له الشافعي معلمًا :

تَعَهَّدْني النصيحةَ في انفرادِ
وجنّبني النصيحةَ في جَمَاعَةْ

فإنَّ النُّصحَ بينَ النَّاسِ لوْنٌ
من التوبيخ لا أرضَى سَمَاعَهْ

(*) راجع ديوان الإمام الشافعي / قافية الهاء.

هذا الموقف فيه تربية كريمة وتوجيه لسلوك المؤمن تجاه ما يسمو به، فلا ينبغي أن يقف المؤمن عند الهفوات، وإنما سبيل المؤمن أن يصطفي أحسن ما قيل، امتثالاً بهدي القرآن الكريم حين مدح عباده الفائزين بهداه، قال الله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ** ﴾ [الزمر/١٨].

في هذه الآية يقول ابن عباس ﷺ :

هو الرجل يجلس مع القوم فيسمع الحديث فيه محاسن ومساوئ، فيحدث بأحسن ما سمع، ويكف عما سواه؛ وذلك لأن المؤمن حريص على فعل ما هو أكثر ثوابًا عند الله عز وجل، ولا ينشر إلا الخير.

ولقد روى الطبراني من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إن أحبكم إليَّ أحاسنكم أخلاقًا الموطأون أكنافًا، الذين يألفون ويؤلفون، وإن أبغضكم إليَّ المشاءون بالنميمة، المفرقون الأحبة، الملتمسون للبرءاء العيب»، وهكذا نرى أن التماس العيوب للغيبة ومحاولة تتبع الهفوات والاشتغال بها سلوك نهى عنه الرسول ﷺ وتأسى الإمام الشافعي في موقفه بسنة رسول الله ﷺ.

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «إن من أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا، وإن من أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون». قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون؟ قال ﷺ : «المتكبرون»[١].

وفي هذا الموقف أيضًا نتعلم أدبًا كريمًا من آداب النصيحة، وهو تجنب تقديم النصيحة في ملأ من الناس؛ لأن في ذلك إساءة للمشاعر، ونوعًا من التوبيخ نهى عنه رسول الله ﷺ، كما أن المراد بالنصيحة هو الإصلاح، وليس

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمي (٨/ ٢١).

(٢) أخرجه الترمذي (٤/ ٣٧٠/ ح ٢٠١٨)، وقال: حسن صحيح.

التعالي أو التفاخر بالعلم، أو إعلام الناس بهفوة هذا أو سقطة هذا.

روى البخاري في الأدب المفرد من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «المؤمن مرآة المؤمن إذا رأى فيه عيبًا أصلحه»[١]، يضاف إلى ما سبق أن تقديم النصيحة في ملإ من الناس فيه فتنة للناصح، فربما دخله شيء من الزهو أو الافتخار. والأسوة الحسنة والقدوة الصالحة لنا جميعًا في تقديم النصيحة هو سيدنا رسول الله ﷺ فكان ﷺ إذا أراد أن يصحح أمرًا أو ينصح أحدًا، قال ﷺ : «ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا»[٢] ولا يخصص أحدًا بعينه.

هذا ما تعلمناه في هذا الموقف، وهو أن النصح على الملا قد يصادر المشاعر الإنسانية، ويجعلها تنفر وتضيق بالنصيحة ولا تتقبلها، أما النصح في السر فيعد لونًا من ألوان الهداية والمحبة بين الناس.

فإبداء النصيحة على الملا يأتي بنتيجة عكسية، ولا ينال الناصح من المنصوح إلا الإعراض، وجرح المشاعر، ونحو ذلك من الأمور التي لم تكن من هدى النصيحة، ولم تكن من قصد النصيحة، وإنما حين تكون النصيحة في حدود الانفراد بين الناصح والمنصوح بعيدًا عن الناس، فإنها تحقق النتيجة المرجوة، وبعيدًا عن الرياء أيضًا، ويجد المنصوح سبيلاً ليتفهم الخطأ أو العيب الذي وقع فيه، ويعود عنه، أما حين تنصح الإنسان المذنب أو المخطئ في ملا من الناس؛ فإن الشيطان يتخذ ذلك وسيلة ليعلي من مشاعر التعظيم للنفس، وتنعكس النصيحة.

والأمر الثاني: أن الإخلاص في تقديم النصيحة يجعلنا نبتعد بالنصيحة عن الشهوة وعن الملا وكل هذه الأمور التي يُخشى أن يدخل الرياء في قلوب الناصحين بسببها.

اللهم أدبنا بأدب القرآن وخلقنا بخلق سيدنا محمد ﷺ

---

(١) رواه أبو داود (ح ٤٩١٨) والبيهقي (٣/٣٧٥). (٢) تكرر في أكثر من حديث.

٥٦ - وبقيت أنا وأنت

دخلت أم سعد بنت سعد بن الربيع رضي الله عنه على أبى بكر الصديق رضي الله عنه فألقى لها ثوبه حتى جلست عليه . فدخل عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال :

يا خليفة رسول الله ، مَنْ هذه ؟

قال أبو بكر :

هذه بنت من هو خير منى ومنك .

قال عمر : من ؟!

قال أبو بكر :

رجل قُبِضَ على عهد رسول الله ﷺ ، وتبوأ مقعده فى الجنة ، وبقيت أنا وأنت .

(*) ذكره ابن حجر فى الإصابة (ج ٣ / ص ٧٧) .

دلالات هذا الموقف تربي فينا خلق الوفاء وإعلاء شان من ضحوا في سبيل الله تعالى؛ بان نكرمهم ونرعاهم في ابنائهم واسرهم.

وسعد بن الربيع انصاري ﷺ، ومن الذين آووا ونصروا رسول الله ﷺ، وجاهدوا في الله حق جهاده. ولقد افتقده الرسول ﷺ في غزوة أحد وقال: من ياتي بخبر سعد بن الربيع، فبحث عنه أبيّ بن كعب فوجده بين الشهداء وبه رمق الحياة، فقال له أبيّ: بعثني إليك رسول الله ﷺ. فقال سعد: أقرئه مني السلام، وأخبره أني قد طُعنت اثنتي عشرة طعنة، وأني قد أنفذت مقاتلي - أي قتلته - وأخبر قومك يا أبيّ، أنهم لا عذر لهم عند الله تعالى إن قُتل رسول الله ﷺ وواحد منهم حي. ثم فارقت روحه جسده ﷺ.

فلما بلغ النبي ﷺ خبره ومقالته أثنى عليه خيراً، وتلا قوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** ﴾ [آل عمران/١٦٩].

لذا كان سيدنا أبو بكر ﷺ يكرم سعد بن الربيع في أولاده، وفاءً له بما ضحى وقدم، فقيمة المرء في قدر عطائه وتضحيته من أجل أمته ودينه ومقدساته.

ودلالة أخرى في هذا الموقف تلمح من قول أبي بكر ﷺ لعمر ﷺ عن سعد بن الربيع الانصاري الشهيد: رجل قبض على عهد رسول الله ﷺ وتبوأ مقعده في الجنة، وبقيت أنا وأنت.

فمع مكانة سيدنا أبي بكر ﷺ وقربه من الله ورسوله ونزول آيات القرآن الكريم تزكيه، وبشرى رسول الله ﷺ له بأنه من أهل الجنة، مع هذه المكانة السامية في منازل المقربين والسابقين، نجد في هذا الحذر الذي يخالطه

التواضع من سيدنا أبي بكر ﷺ ، فهو لا يرى نفسه خيراً من غيره من الصحابة، وبخاصة أولئك الذين استشهدوا وكان لهم حسن الخاتمة، في حين أنه ما زال في دار الاختبار والفتن، وهذا حال من مدحهم الله في قرآنه بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ [المؤمنون/ ٦٠ : ٦١].

أيضًا هناك دلالة تستفاد من هذا الموقف، وهي أن العبرة بالخواتيم، فقد خُتم لسعد بن الربيع بالشهادة في سبيل الله وحاز المنزلة العالية في الجنة في حين أن من لا يزال حيًّا يرزق في الدنيا فهو لا يدري بماذا يختم له، وهل سينال الشهادة أم لا ؟

ومن دعاء الحبيب المصطفى ﷺ : «اللهم اجعل خير عمري آخره وخير أيامنا يوم لقائك»[١]، وقال ﷺ : «إنما الأعمال بالخواتيم»[٢].

وهذا يحمل المؤمن على مواصلة التقرب إلى الله، عملاً بقول الله تعالى : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر/٩٩] أي : حتى يأتيك الموت، وتكون الخاتمة. فمن خُتم له بخير كان من الصالحين.

نسأل الله تعالى أن يجعل خير أعمالنا خواتيمها وخير أيامنا يوم لقائه.

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط وفيه أبو مالك النخعي وهو ضعيف، قاله الهيثمي في المجمع (١٠/ ١١٣)

(٢) رواه البخاري (٨ / ١٥٥).

٥٧ - هكذا تُمحق بركة الوقت

شكا أحد طلاب العلم إلى أستاذه وشيخه سرعة انقضاء الوقت دون إنجاز عمل ، فقال له شيخه :

لعلّك تؤخر صلاة الصبح إلى ما بعد شروق الشمس ؛ فالوقت يبارك فيه بطاعة الله ، وتمحق بركته بمعصية الله .

(*) الغزالي في الإحياء ١ / ٣١٠ .

هذا الموقف يحمل دلالات هادية منها :

الدلالة الأولى : إحساس طالب العلم بسرعة مرور الوقت، دون أن ينجز شيئًا ينتفع به في دنياه أو آخرته.

هذا الإحساس يدل على يقظة الطالب وحرصه على وقته، وهكذا شأن المؤمن - ريص على وقته وعمره؛ لأنه يصغى إلى قول النبي ﷺ : «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسألَ عن أربع : عن عمره فيمَ أفناه، وعن شبابه فيمَ أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيمَ أنفقه، وعن علمه ماذا عمل فيه»[١].

الدلالة الثانية : بصيرة الشيخ وإدراكه - بتوفيق الله له - سبب هذه الظاهرة. وليس فيما قاله الشيخ رجمًا بالغيب، ولكنه لمَّا عَرَض هذه الظاهرة على القرآن والسنة وجد لها تفسيرًا وتعليلاً في قول رسول الله ﷺ، فذكره الشيخ ولم يجزم؛ فلعلَّ سببًا آخر كان وراء محق بركة الوقت، فكان توفيق الله تعالى للشيخ فيما اختار من سنة رسول الله ﷺ.

والحديث الذي أشار إليه الشيخ في جوابه هو موقف سيدنا رسول الله ﷺ من السيدة عائشة - رضي الله عنها - لمَّا رآها قد نامت حتى شروق الشمس دون أن تصلي الصبح. فقال لها :

«قومي اشهدي رزق ربك ولا تكوني من الغافلين؛ فإن الله يُقسِّم أرزاق الناس ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس»[٢].

ومعلوم أن الجادين والكُسالى يتمايزون في هذا الوقت، فيُعطى كل امرئٍ حسب استعدادهِ من خير الدنيا والآخرة.

أيضًا يرتبط جواب الشيخ مباشرة بالحديث النبوي الذي دعا فيه النبي ﷺ للمبكرين بالبركة. وهو قوله ﷺ : «اللهم بارك لأمتي في بكورها»[٣].

---

(١) سنن الترمذي (٢٤١٧).
(٢) أخرجه البيهقي، راجع الترغيب والترهيب (٢ / ٥٣١).
(٣) رواه الترمذي (ح ١٢١٢)، وأبو داود (ح ٢٦٠٦).

الدلالة الثالثة: بيان الشيخ للقاعدة العامة لحصول الانتفاع بالأوقات وربطه بالطاعة، وعدم الانتفاع بالأوقات وربطه بالمعصية. وهذا في إطار حديث رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان فتكون السنة كالشهر، والشهر كالجمعة، وتكون الجمعة كاليوم، ويكون اليوم كالساعة، وتكون الساعة كالضَّرْمة من النار»[1].

وهو من نبوءات النبي ﷺ حيث تمحق بركة الوقت بسبب كثرة المعاصي.

(١) أخرجه أحمد (٢/٥٣٧)، والترمذي (ح ٢٣٣٢) وذكره الحافظ في الفتح

٥٨ - أنا فجر جديد

اعتاد رجل تضييع أوقاته بين اللهو والكسل والخمول، وكان كلما حَدَّثَه أهله أن يُقلع عن حاله تلك التي خسر بسببها أعمالاً كثيرة وأرباحًا طائلة، قال لهم:

العمر طويل والأيام آتية وسوف أعمل.

فحضره الحسن البصري ﷺ فاعترضه بقوله المأثور:

ويا هذا، ما من يوم ينشق فجره إلا نادى منادٍ: يا ابن آدم أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد، فاغتنم مني؛ فإني لا أعود إلى يوم القيامة.

(*) ذكره ابن رجب في (جامع العلوم والحكم) ص ١١٤٢.

هذا موقف فيه فقه ووعى بأهمية العمر والزمن، ويوضح أهمية عمارة الاوقات بصالح الأعمال، والمتأمل لأيام العمر وكيف مضت، وكيف أن عامة الناس يحسبون أعمالهم بالأيام والشهور والسنوات، في حين أن المقابل أن أهل الحكمة والصلاح يحسبون أعمارهم بقدر ما ينجزون بها من أعمال عظيمة تنفع في دنياهم، وخيرات يثابون عليها في أخراهم، والمتأمل لأيام العمر يدرك هذه الحقيقة التي أشار إليها الحسن البصرى، وهى أن كل شيء يفقده الإنسان يتعلق بعودته أمل إلا العمر، فإنه إن مضى لا يعود أبداً، فكل لحظة من لحظات الحياة نعمة أنعم الله بها على الإنسان، وهى فرصة لإنجاز الخيرات، وفعل الصالحات.

وأيضًا يشير الموقف إلى تعطيل عمارة الأوقات بالعمل الصالح ويأتى فى قمة هذه المعطلات تلك العادة التى استحكمت فينا، إنها عادة التسويف والتأجيل لما يطلب إنجازه من أعمال، لا لسبب سوى التكاسل والتراخى، وتضيع آلاف الساعات وتفقد عشرات الأيام دون إنجاز عمل، ونحن نسمع فى مجتمعنا المعاصر من يؤجل فعل خير أو ترك منكر إلى أيام قادمة كقولهم : من أول الشهر سأصلى، من أول الأسبوع سأستذكر، حين تتحول أحوالى سأقلع عن التدخين، أو سأتصدق . . . إلى آخر هذه الأمور التى هى من وسوسة إبليس وخداعه للإنسان.

فالحكمة تقول : « لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد »، فالتسويف يؤدى إلى تراكم الأعمال على الإنسان وإلى عدم قدرته على إنجازها فيما بعد، ولا شك أن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة قد علّما المؤمن أن يوزع الأعمال على الأوقات، كما وزع الله الصلوات الخمس على الأوقات، ووزع أعمالاً كثيرة على وقت المسلم اليومى فى ليله وفى نهاره، وليتنا نتعلم هذا السلوك

الإيمانى فى حياتنا العملية، وانه مع التسويف تضيع خيرات كثيرة، والقرآن الكريم ينقلنا من هذا التراخى وذلك التسويف إلى الجدية والمبادرة لفعل الخيرات والمسارعة إلى الصالحات، قال الله تعالى :

﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ﴾ [البقرة/١٤٨].

ويقول الله تعالى :

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران/١٣٣].

ويقول الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الجمعة/٩].

فتأمل أيها المؤمن قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَبِقُوا ﴾ .. وقوله : ﴿ وَسَارِعُوا ﴾ ، وقوله : ﴿ فَاسْعَوْا ﴾ وكلها أوامر تحث الإنسان على أن يسارع إلى فعل الخيرات وإلى هدى القرآن وإلى سنة رسول الله ﷺ ، وفى الحديث النبوي الشريف يقول الرسول ﷺ : «بادروا بالأعمال سبعًا : هل تنظرون إلا فقرًا منسيًا، أو غنى مطغيًا، أو مرضًا مفسدًا، أو هرمًا مُفْنِدًا، أو موتًا مجهزًا، أو الدجال ؟! فشر غائب ينتظر، أو الساعة والساعة أدهى وأمر»[١].

إن ظروف الغد والمستقبل ليست ملكًا لأحد، وأمرها إلى الله تعالى، لذا ينبغى اغتنام الفرصة التى بين أيدينا، والنبى ﷺ يقول : «اغتنم خمسًا قبل خمس : شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك

(١) المستدرك للحاكم (٤/٣٠٦).

قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»[١].

وفى الحقيقة إن كان الإنسان جادًا فى سيره إلى الله تعالى، فعليه أن يستعين بالله ولا يعجز، وليبدأ الآن وليس غدًا، فالغد ليس ملكًا لنا، وقد أشار الحسن البصرى ﷺ إلى ضرورة أن يسارع المؤمن إلى استغلال وقته والاستفادة منه فى فعل الخيرات، لأنه كما يقول الشاعر :

من كُلُّ شيء إذا ضيعته عِوَضٌ   وما من الله إن ضيعته عِوَضُ

أى أن المؤمن يجب عليه أن يستغل وقته فى فعل الخيرات.

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٤/٣٠٦)، وأبو نعيم فى الحلية (٤/١٤٨)، وذكره الحافظ فى الفتح (١١/٢٣٥).

٥٩ - البيئة علم إسلامى

اعتاد رجل من السلف الصالح العناية بالطريق الذى أمام بستانه، فكان يُعْنى به بنفسه فيُنَحّى (يُبعد) الأحجار والشوك وما يلقى فيها من الفضلات والأذى، فقال له صاحبه:

لم تشغل نفسك بالطريق، فبستانك أولى باهتمامك!!

فقال له :

إن إزالة الأذى عن طريق الناس عمل صالح، فقد قال رسول الله ﷺ :

«بينما رجل يمشى بطريق وجد غصن شوك على الطريق، فأخّره، فشكر الله له ، فغفر له».

(*) أخرجه البخارى (٢ / ١٦٣ / ح ٦٥٢ مع الفتح)، ومسلم (٦ / ١٦ / ١٧١).

هذا الموقف يربطنا بأدب إسلامي رفيع وخلق إسلامي قويم في التعامل مع البيئة التي من حولنا، وينتفع الناس بها، سواء أكانت هذه البيئة طريقًا يسير الناس فيه أو شجرة يستظل الناس بها أو هواءً يستنشقه الناس، ونحو ذلك؛ حيث يتعامل المسلم مع هذه الأشياء على أنها نعم تفضل الله بها علينا.

وكي يستمر الانتفاع بهذه النعم شرع الله هديًا للتعامل مع البيئة يتركز في محاور ثلاثة :

الأول : تشريع وقائي للبيئة :

فقد نهانا الله عن الإفساد في الأرض، وعاقب المفسد في البيئة في الدنيا والآخرة، فأما العقوبة العاجلة في الدنيا، فبالضرر الناتج عن الإفساد من التلوث ومسببات الأمراض، قال تعالى : ﴿ **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ [الروم/ ٤١].

ومن هدى الإسلام الوقائي للبيئة نهى رسول الله ﷺ عن التغوط في طريق الناس أو قطع شجرة يستظل بها الناس، وكذلك نهى الإسلام عن التلوث الصوتي، فقال تعالى : ﴿ **وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ** ﴾ [لقمان/١٩].

والقاعدة الإسلامية في التشريع الوقائي هي قول رسول الله ﷺ : «لا ضرر ولا ضرار»(١)؛ فكل ما يتسبب في إضرار الغير من أدخنة السجائر مثلاً أو عادم السيارات أو إلقاء الفضلات الضارة أو تلويث المياه الجارية، كماء النيل عندنا كل هذا منهيٌّ عنه في القرآن والسنة كتشريع وقائي للبيئة.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣١٣)، وابن ماجه (ح ٢٣٤٠).

الثانى : تشريع علاجى :

فكما أمرنا الله تعالى ألا نتسبب فى الإضرار بالبيئة وأن نحافظ عليها، فقد أمرنا أن ندفع الضرر عنها إذا تعرضت للعدوان من الغير، وجعل إزالة الضرر عن البيئة عملاً صالحًا ننال به رضا الله تعالى .

وفى الحديث النبوى الشريف، قال رسول الله ﷺ : « وتميط الأذى عن الطريق صدقة »[١]، ومن ذلك الحديث النبوى الذى ورد بالموقف، وهو قوله ﷺ : « بينما رجل يمشى بطريق وجد غصن شوك على الطريق، فأخَّرَهُ فشكر الله له، فغفر له ».

الثالث : تشريع للتعمير :

ويظهر ذلك من خلال الترغيب فى الإضافة للبيئة ليكون الإنسان دعمًا لها لا عبئًا عليها، فالنبى ﷺ قال : « من غرس غرسًا أو زرع زرعًا، فأكل منه إنسان أو طير أو حيوان كان له به صدقة »[٢] .

ومن الهدى النبوى المبارك قول رسول الله ﷺ : « إذا قامت الساعة، وفى يد أحدكم فسيلة، فليغرسها »[٣] .

---

(١) أخرجه البخارى (٦ / ١٠٠ / ح ٢٨٩١ مع الفتح)، ومسلم (٣ / ٤ / ٩٤ مع النووى) .

(٢) أخرجه أحمد (٦ / ٤٤٤)، والبخارى (٥ / ٥ / ح ٢٣٢٠)، ومسلم (٤ / ١٠ / ٢١٣) .

(٣) راجع الكامل لابن عدى (٦ / ٢٢٩٤) .

٦٠ – من تلبيس إبليس

اعتاد رجل أن يعتذر عن ارتكابه المعاصي؛ بأن رحمة الله وسعت كل شيء، فاعترضه الحسن البصري ﷺ.

وقال له :

هذا من تلبيس إبليس عليك؛ إنما الرحمة للمتقين، ألم تقرأ قول الله تعالى :

﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ؟ [الأعراف/١٥٦].

(*) جامع العلوم والحكم ٣/ ٦٣.

هذا موقف إيماني يحمل دلالات هادية تعالج وهمًا من أوهام العصاة، وتعالج فهمًا معوجًا لمعنى الرحمة عند بعض الغافلين حين يتخذون الرحمة سلمًا للمعصية، وسبيلاً للسلامة من العقاب وحجتهم: يا أخي نحن بشر ولسنا ملائكة، ورحمة الله عز وجل واسعة، وقد قال الله تعالى: ﴿ **وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ** ﴾ [الأعراف/١٥٦].

والحق أن هذه الأقوال ومثلها من تلبيس إبليس للناس، وليس معنى سعة رحمة الله أن يفتح الباب أمام العصاة، وليست الرحمة عاطفة لاعقل معها أو شفقة تتنكر منها ؟!.

ولقد ضرب الإمام الغزالي - رحمه الله - مثلاً للذين يتعللون أن رحمة الله وسعت كل شيء فلا يبالون مع ذلك بفعل المنكرات وارتكاب المعاصي. قال رحمه الله: لو أن هناك قاعة تسع ألف جالس، ولكن لا يؤذن بدخول هذه القاعة إلا لمن يحمل بطاقة محددة، فإذا رفض البعض حمل هذه البطاقة المحددة، وحرم من الدخول هل ذلك عيب في سعة القاعة أم العيب في تكاسلهم عن استيفاء الشروط؟! وليت هؤلاء يقرأون الآية لآخرها، قال تعالى: ﴿ **وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ** ﴾ [الأعراف/١٥٦].

إذًا فطريق الوصول إلى رحمة الله تعالى كما توضح الآيات الكريمة لأهل الإيمان والتقوى والاقتداء بهدي رسول الله ﷺ، ويؤكد هذا المعنى آية أخرى تشير إلى رحمة الله عز وجل قريبة من المحسنين، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [الأعراف/٥٦]، وفي المقابل يبين الله في الحديث القدسي أن العدالة لا تساوي في عطاء الرحمة بين الصالح والطالح.

قال الله تعالى في حديثه القدسي: «ما أقل حياء من يطلب جنتي بغير عمل، كيف أجود برحمتي على من بخل عليّ بطاعتي».

ويجب أن يتنبه المؤمن إلى أن الرحمة قد تأخذ شكلاً قاسيًا وصورة مؤلمة في ظاهرها في بعض الأحوال؛ فرحمة الطبيب بالمريض مثلاً أن يمد المشرط ليستأصل الداء، وقد يدفع الأب ولده إلى المدرسة وإلى العمل في جو ممطر أو في حرٍّ وازدحام، ومثل ذلك من الأفعال التي يكون في ظاهرها الشدة والألم، ولكن يكمن في باطنها الرحمة، فحين يؤخذ على يد المسيء ويعاقب على إساءته لينتظم العمل، فذلك عين الرحمة.

ولا شك أن مجال الرحمة في الإسلام واسع ممتد، فيكون بالتعاطف مع أهل الاحتياج والإعذار من الفقراء والمساكين والأرامل والمصابين، والمرضى، ونحو ذلك، ويمتد مجال الرحمة فيشمل مجال الحيوان والطير، فلا تحمل عليه فوق طاقته أو تتركه بدون طعام ولا شراب، ونحو ذلك، في الحديث أن النبي ﷺ قال: «بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئرًا فنزل فيها فشرب ثم خرج، وإذا كلبٌ يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم سقى الكلب، فشكر الله تعالى له، فغفر له» قال الصحابة: يا رسول الله وإن لنا لفي البهائم أجرًا؟ قال ﷺ: «في كل كبد رطبة أجر»[1].

ورحمة الإنسان بنفسه: أن يلزمها طاعة الله تعالى وأن يباعد بينها وبين المعاصي، هذا هو مجال الرحمة، أما أن ينتقل مجال الرحمة بوهم فاسد عند بعض الغافلين وبعض العصاة من هذه المساحة الطيبة الودودة التي فيها هذه المشاعر النبيلة الحميمة إلى مجال المعصية، ويتخذ الرحمة لتكون سبيلاً إلى فعل المعاصي، فهذا فهم فاسد عالجه الإمام الحسن البصري، وبين أنه من فعل الشيطان ووسوسته، وقال له: هذا من تلبيس إبليس عليك، ولعل الحسن

(١) أخرجه البخاري (١/ ٤٥٢/ ح ٦٠٠٩ مع الفتح)، ومسلم (٥/ ١٣/ ٢٤١، ٢٤٢).

البصري ﷺ قد أراد بهذا المقال : «هذا من تلبيس إبليس عليك» أن الخطورة كل الخطورة تكمن في أن يستمر المرء على معصيته بحجة أن رحمة الله واسعة فينتهي مآله إلى النار، وهذا مكمن الخطورة، ولكن على الإنسان أن ينتبه، وأن يبادر بالتوبة والمغفرة حتى يئوب إلى رشده، لقوله تعالى:

﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين/ ١٤] أعاذنا الله من ذلك المصير.

٦١ - لا تعلّق القلب برضا الناس

اعتاد رجل السعي في طلب رضا الناس تحصيلاً للمنافع من أحد الأغنياء، فوقع بسبب ذلك في ذنوبٍ كثيرةٍ، منها الظلم، وإهمال الفرائض، والكذب .. وما إلى ذلك، وبسبب وشايةٍ وصلت عنه إلى هذا لرجل الغني غضب عليه وأبعده، فجعل يتوعد الواشي بالانتقام، فرآه أحد الصالحين من علماء السلف فنصحه قائلاً:

«هلا انتهيت من تعلق قلبك بالناس والدنيا، والله لو شغلت نفسك برضا ربك لحقق لك مرادك، وأغناك من فضله».

ففعل الرجل ما نصحه به العالم فأغناه الله من فضله.

(*) بعث معاوية بن أبي سفيان إلى عائشة - رضي الله عنها - قائلاً: أوصيني بوصية وأوجزي. قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أسخط الله برضا الناس وكله إلى الناس، ومن أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس والسلام». أخرجه ابن حبان (رقم ١٥٤١).

هذا موقف إيماني يحمل من دلالات الهداية والرشاد الكثير، ومن يتأمل الحياة يجد أن هذا الموقف يتكرر كثيراً، وإن كان بصور مختلفة، ووجوه متباينة، فكلنا يرى هذه المغريات التي تغشى الناس بضيائها من بعيد، كمغريات المال والمنصب والشهرة والقوة، وغير ذلك من زينة الحياة الدنيا ومتاعها الزائل، وكم من أناس انساقوا أمام هذه المغريات؛ طلبًا لرضا الناس، وتحقيقًا للمصلحة المادية، فكانت خسارتهم عظيمة، وفي قمة هذه الخسارة خسارتهم لرضا الله تعالى، والمؤمن العظيم إذا رأى نفسه متحيراً بين الله والناس جاهد نفسه وهواها واستعان بالله واستعاذ به، وعلم يقينًا أن كل ما فاته دون الله تعالى فهو يسير، وأن كل ما جاء به سوى الله قليل.

يقوى هذا المعنى ويؤيده حديث رسول الله ﷺ :

«من أسخط الله في رضا الناس سخط الله عليه وأسخط عليه من أرضاه في سخطه، ومن أرضى الله في سخط الناس رضي الله عنه وأرضى من أسخطه في رضاه؛ حتى يزينه ويزين قوله وعمله»(١).

وإلى هذا المعنى تشير آيات القرآن الكريم، قال تعالى : ﴿ **أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [التوبة/١٣]، وقوله تعالى: ﴿ **يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ** ﴾ [النساء/١٠٨].

والمتأمل لواقع حياة صحابة رسول الله ﷺ الذين تركوا أموالهم وديارهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانًا. ماذا كانت النتيجة لموقفهم هذا ؟! لقد نصرهم الله سبحانه وتعالى وأيدهم بجنده وأعزهم بعزته، وعطَّر الله ذكرهم في الدنيا والآخرة ، وجعلهم مصابيح هداية للناس في كل زمان ومكان، وفي المقابل نجد أن هناك الملايين من الناس اندثروا في التراب، فلا ذكر لهم في الدنيا، ولا

(١) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير يحيى بن سليمان الحضرمي وقد وثقه الذهبي. قاله الهيثمي في المجمع (١٠/٢٢٧).

حظ لهم فى الآخرة، بل وربما كان بعضهم كالمنافقين موضع لعنة إلى يوم القيامة، وهذا يظهر لنا ويوضح كيف أن سعى العبد إلى رضا الله عز وجل يأتى له بكل خير، يضاف إلى هذا أن إرضاء الجميع غاية مستحيلة، وليست مطلبًا لعاقل أبدًا؛ لذلك لا ينبغى للإنسان أن يجعل الناس أمله فى المقدمة، بل عليه أن يجعل رضا الله تعالى هدفه ومقصده، يقول سيدنا رسول الله ﷺ : «لا يكن أحدكم إمعة، تقول: إن أحسن الناس أحسنت معهم، وإن أساءوا أسأت معهم، ولكن وطّنوا أنفسكم على تقوى الله وطاعته»[١] .

نعم لا ينبغى للإنسان العاقل المسلم أن يتلون أو يتقلب مع تيار المصالح المادية، يصفق لكل قائم ويتمسح بكل قوى، ويتساقط صريعًا على أعتاب المنافع الدنيوية، لقد رفع النبى ﷺ بصائر المؤمنين إلى المنزلة العالية: إلى الإيمان بالله تعالى، فلا يصدر من المؤمن إلا ما وافق إيمانه .

وهكذا يعلمنا هذا الموقف أنه إذا كانت لكل إنسان غاية فى هذه الحياة الدنيا، فلابد أن يسلك لها الوسائل الشريفة التى تقربه من الله عز وجل، وتباعده عن الشيطان، حتى لا يقترف من الذنوب والآثام ما يبعده عن دائرة الإيمان ويوقعه فى سخط الله عز وجل.

---

(١) أخرجه الترمذى (ح ٢٠٠٧) .

٦٢ - بل الدنيا هي التي زهدت فيك

كان أحد علماء السلف يعلم تلاميذه في مجلس علم، فأقبل عليه رجلٌ في ثيابٍ رثةٍ متسخةٍ وهيئةٍ غير محمودة، وما إن انتهى إلى المجلس حتى أقبل على الناس يطلب منهم الصدقات، فأشار إليه العالم، وقال له :

اجتهد في طلب عمل شريف ؛ لتقوم بحاجتك بدلاً من التعرض لسؤال الناس.

فأنكر الرجل ذلك وقال :

إني زاهدٌ في الدنيا.

فقال له العالم :

بل الدنيا هي التي زهدت فيك.

(*) الخلال في جزء الحث على التجارة، ص ٧٩.

هذا الموقف يصحح مفهومين من المفاهيم الخاطئة التى شاعت بين كثير من الناس :

الأول : عدم التمييز بين الدنيا المحمودة التى أوصى الله بها وبين الدنيا المذمومة التى حذّرنا الله منها .

فالدنيا المحمودة هى التى تعين على طاعة الله تعالى، وفيها نفع للعباد وعمارة للبلاد، وتكون من حلال، وقد قال تعالى ﴿ **وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا** ﴾ [القصص/ ٧٧] .

وقد علمنا القرآن الكريم ان نسأل الله تعالى الدنيا المحمودة، قال الله تعالى: ﴿ **رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** ﴾ [البقرة/ ٢٠١] .

كما يبين لنا القرآن الكريم ان التقرب إلى الله عز وجل كما يتم بالعبادات والشعائر فإنه كذلك يتم بكل عمل من الخيرات فى دنيا الناس ينفع الناس فى شتى نواحى حياتهم .

قال الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [الحج/ ٧٧] .

فدلت الآية على ان التقرب لله عز وجل، كما يتم بالركوع والسجود والعبادة، فإنه كذلك يتم بالعمل النافع وبفعل الخيرات فى الدنيا .

وهذه الدنيا المحمودة التى اشار إليها العالم فى هذا الموقف، حينما قال: بل الدنيا – أى : المحمودة – هى التى زهدت فيك؛ لانك لم تسلك سبيل الخير وأبوابه، ونبه هذا الرجل الذى اشتبه عليه الموقف فى حقيقة الزهد إلى ان يسلك سبيلها وان يحصلها طاعة لامر الله عز وجل .

أما الدنيا المذمومة فهى كل ما يشغل الإنسان من طاعة ربه ويلهيه عن ذكر الله تعالى، وتلك هى الدنيا التى حذرنا الله تعالى منها، ففى شأنها يقول ربنا جل شـــأنه: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان/ ٣٣].

ولعل العالم الجليل الذى أوصى الرجل بضرورة البحث عن عمل كان يعلم جيداً قيمة العمل وأهميته فى حفظ ماء الوجه وحفظ الإنسان من التعرض لمذلة السؤال، وهذا موقف مطابق لتوجيه رسول الله ﷺ للرجل الذى جاء يسأل ويتذلل بالسؤال بين يدى رسول الله ﷺ، وأمام الصحابة، فأراد النبى ﷺ أن يحول هذه الحالة المستهلكة المتذللة بالسؤال إلى حالة منتجة كريمة عزيزة عفيفة، وهذه هى الطاقة التى تنمى وتستخدم وتوجه، وجاء له النبى ﷺ بقدوم، وقال له: «اذهب فاحتطب وبع ولا أرينك إلا بعد خمسة عشر يوماً»(١) وعاد الرجل بعدها بهيئة كريمة، وبربح وفير.

إذاً فليس مفهوم الزهد فى الدنيا أن يُقبل الرجل بثياب رثَّة متسخة وهيئة غير محمودة، وهذا ما فعله الرجل، وفهم خطأ أن الزهد هو أن يرتدى هذه الملابس، وصحح له هذا المفهوم، بأن دله على سبيل العمل الشريف الذى يمكن أن يقتات منه حاجاته، ويوفر له كل أسباب الراحة فى هذه الحياة.

وهذا هو المفهوم الثانى الذى يعالجه هذا الموقف، وهو بيان حقيقة الزهد فى الدنيا وإنه لا يعنى خلو اليد منها، بل امتلاكها مع عدم الافتتان بها، فمن ملك الدنيا فى حلال ولم تفتنه الدنيا ولم تشغله عن طاعة ربه، وقدم أوامر الله على هواه فهو زاهد فى الدنيا، أما مَن تعلق قلبه بالدنيا وخلت يده منها، فهو مفتون بها، مشغول بأمرها، فليس بزاهد فيها.

---

(١) سنن أبى داود (١٦٤١).

وهكذا يظهر لنا من خلال هذا الموقف أن الدنيا فيها جانب محمود ينبغي للإنسان أن يسعى لتحصيله كي يحفظ كرامته، وإلا يظهر الإنسان بين الناس بصورة غير مقبولة، بل عليه أن يأخذ زينته، وعليه أن يحرص على جماله، وعليه أن يحرص على أن يكون إنسانًا نافعًا، إنسانًا كله عطاء، ينفع الناس بما ينجز من أعمال، يعطف على المساكين، يمد يده للمحتاجين. هذا هو الإنسان الذي يعالجه هذا الموقف الطيب من علماء السلف الصالح رحمهم الله، ورضي الله عنهم ونفعنا بعلمهم.

٦٣ - رب كريم .. وعبد لئيم

رأى أحد الصالحين رجلاً لا ينقطع عن المعاصي، وقد غمره الله بنعيم ظاهرٍ، وقد تعجّب الناس من أمره، فقال لهم الرجل الصالح:

«لا تعجبوا من أمره، ربٌ كريمٌ وعبدٌ لئيم!».

فسمع الرجل العاصي هذه الكلمة، فتأثر وبكى وطلب من الرجل الصالح أن يدعو له بقبول توبته، وغفران ذنوبه.

فقال له:

يا هذا، أين أنت من فضل الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾! [هود/ ٩٠].

(*) الإحياء ٣/ ٢١٦.

هذا موقف يحمل دلالات هادية، في قمتها بيان لفضل عظيم من أفضال الله على عباده جميعًا، ألا وهو قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [هود/ ٩٠].

والمتأمل لأحوال الناس يرى أنه قد جرت العادة أن يتودد الأدنى إلى الأعلى، فيتودد الفقير إلى الغني، ويتودد أصحاب الحاجات إلى من بيدهم قضاء هذه الحاجات، وهكذا حال عامة الناس، أما الصالحون فيتوددون إلى الله عز وجل بفعل الطاعات، وترك المنكرات.

وأن يتودد العبد إلى خالقه ورازقه؛ فهذا أدب وشرف، أما أن يتودد الله الغني المتعال القوي العزيز إلى عباده الفقراء، فهذا منة وفضل، وكما ظهر من الموقف، فقد تحبب الله وتودد إلى عبده بستره، فلم يفضحه بين خلقه وتودد فتاب عليه، وأصلح حاله.

وأما قول الرجل الصالح في وصف كرم الله تعالى على عبده في مقابل تمادي المذنب في تفريطه : «رب كريم وعبدٌ لئيم»، وفي هذه المقابلة بين كرم الله البالغ وإعراض العبد وإسرافه على نفسه تحريك لمشاعر الإيمان، ونوازع الخير داخل العبد الغافل، وفيها أيضًا إيقاظ له من غفلته لإخلاص الناصح لكلمته الحكيمة، نفع الله بها وتاب على العبد العاصي ببركتها.

كما يستفاد من قول الرجل الصالح: أين أنت من فضل الله في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾؟ أن في ذلك تذكيرًا لكل تائب بأن رحمة الله في انتظاره، وهو على موعد مع العفو والمغفرة والرحمة، وهذا من ود الله تعالى لعباده، والمتأمل لآيات الله في كتابه الكريم، يجد أنها فتحت أبواب الأمل والرجاء للتائبين، من ذلك قول الله تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ

أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ﴾ [الزمر/٥٣].

وقول الله تعالى : ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ﴾ [الفرقان/٧٠].

ومن ود الله سبحانه وتعالى في يوم القيامة أنه يدني عبده إليه، كما ورد في الحديث الصحيح، فيقرره بذنوبه كلها ذنبا ذنبا، حتى يظن العبد أنه قد هلك، حينئذ يقول الله عز وجل له :

«عبدي، سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، ولا أفضحك بين خلقي»(١).

ومن ود الله سبحانه وتعالى أنه يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، ومن وده سبحانه وتعالى أنه من أعرض وتولى عنه ناداه من قريب، ومن أقبل عليه تائبا تلقاه من بعيد.

ومن وده سبحانه وتعالى ألا يعجل العقوبة، بل جعل لملك الحسنات سلطانا على ملك السيئات، فإذا اقترف العبد خطيئة أمر ملك الحسنات ملك السيئات أن ينتظر، لعل العبد يستغفر أو يتوب، فإن تاب كتبها ملك اليمين حسنة، وإلا كتبها ملك السيئات سيئة واحدة.

ومن وده سبحانه ما ألقى في قلب الأم والأب من مودة وحنان نحو الأبناء، ومن وده سبحانه أن جعل بين الزوجين مودة ورحمة، قال تعالى :

﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ [الروم/٢١].

---

(١) مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٥٥١).

فكل ود بين العباد هو من ود الله سبحانه وتعالى، وهذا من سعة فضل الله ورحمته. ويعجب ربنا عز وجل فى حديثه القدسى من عباده الذين لا يلتفتون إليه بالشكر فيقول:

«أخلق ويعبد غيرى، وأرزق ويشكر سواى، خيرى إلى العباد نازل، وشرهم إلىّ صاعد، أتقرب إليهم بنعمى وأنا الغنى عنهم، ويتوددون إلىّ بالمعاصى، وهم أحوج شيء إلىّ!»(١).

إذا ما تأمل العبد كيف يتودد الله إليه فى مقابل جحود العبد وإسرافه على نفسه، فما من شك أن العبد سيخجل من رحمة الله وسعة فضله، وتتحول مشاعره من المعاصى، ومن مخالفة الله عز وجل إلى مبادلة الله، وداً بود، وتنشط عند العبد المشاعر الودودة الرحيمة.

---

(١) أخرجه الحكيم الترمذى فى النوادر، والبيهقى فى شعب الإيمان عن أبى الدرداء. راجع كنز العمال (ح ٤٣٦٧٤)

٦٤ - بركـــة الشـــــورى

نزل النبي ﷺ بجيشه عند أقرب ماء من مياه بدر، فقام الحباب بن المنذر وقال:

يا رسول الله ﷺ، أرأيت هذا المنزل؟ أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟

فقال النبي ﷺ :

«بل هو الرأى والحرب والمكيدة».

فقال الحباب بن المنذر :

فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم، فنبني عليه حوضًا، ونُخَرِّب من ورائه، فنشرب ولا يشربون.

فقال له النبي ﷺ :

«لقد أشرت بالرأى».

(*) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (٤ / ١٨٠).

هذا الموقف يعلمنا درسًا فى فضل المشورة، وأن الإنسان ينبغى ألا يتركها مهما كان علمه وقدره، وذلك لأن المشورة تتيح للإنسان الإفادة والانتفاع بعقول مَنْ حوله من أهل الخبرة والرأى.

ومن السنة قبل أن يشرع الإنسان فى عمل ذى بال أن يُعنى بأمرين هما: الاستشارة، والاستخارة.

فأما الاستشارة فتكون بسؤال أهل الذكر، أهل العلم، فى المجال الذى يريده، فإن كان أمر عمله أو مشروعه فى الهندسة سأل المهندسين، وإن كان فى الطب سأل الأطباء ... وهكذا، حتى يقف الإنسان على الحقائق النافعة وأسباب النجاح، ويتجنب أسباب الخسارة والضلال.

ولقد رأينا فى الموقف النبى ﷺ يمدح رأى الحباب بن المنذر، ويأخذ به، وأفاد ﷺ من خبرة الحباب بن المنذر العسكرية.

أما عن الاستخارة، فإنه بعد سؤال الإنسان أهل العلم والخبرة فى مجال مشروعه أو عمله المستقبلى، فعليه أن يستخير ربه، وذلك لأننا جميعًا نتحرك فى إطار محدود الأسباب، فى حدود الظاهر لنا، أما تقلبات الحياة فعلمها ونتائجها عند الله تعالى، فلا يعلم الغيب إلا الله، وعقل الإنسان يخطئ ويصيب.

ومن هنا كان على المؤمن أن يستخير ربه، كى ينال توفيق الله تعالى، وإذا كان العاقل منا حريصًا على الإفادة ممن يفوقه علمًا وخبرة، فكيف بالإنسان يغفل عن طلب المعونة ممن بيده الأمر كله، وهو على كل شىء قدير، وبكل شىء عليم؟! وتكون الاستخارة كما وردت فى السنة، قال النبى ﷺ : «إذا هَمَّ أحدكم بالأمر، فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إنى

أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك إن كنت تعلم أن هذا الأمر خيرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فاقدره لي ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضّني به؛ قال: ويسمي حاجته[١].

وحسبنا أن الشورى أمر قرآني، قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران/١٥٩].

قال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى/٣٨].

● دلالة أخرى تستفاد من الموقف من قول الحباب بن المنذر: أرأيت هذا المنزل يا رسول الله، أمنزلاً أنزلكه الله؟ ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ وفي هذا بيان أن الاستشارة والاستخارة لا تكون في الأمور التي ورد فيها بيان حاسم من القرآن والسنة، فلا استشارة أو استخارة في أن يصلي الإنسان الفرائض أو أن يتقرب إلى الله بصوم أو بصدقة، أو أن ينتهي عن منكر نهى الله عنه.

وإنما تكون الاستشارة والاستخارة في الأمور التي تتعلق بالمستقبل، ولا يستطيع الإنسان حسب نتائجها، ولم يرد في شأنها نص قاطع، مثل: السفر والزواج، وتغيير العمل... ونحو ذلك.

---

(١) رواه البخاري (١١/ ١٨٧/ ح ٦٣٨٢) من حديث جابر.

٦٥ - طريق الفلاح

كان الصحابة - رضى الله عنهم - جلوسًا حول رسول الله ﷺ ، فسمعوا دويًا كدوى النحل عند وجه النبى ﷺ ، ثم استقبل القبلة ورفع يديه وقال :

« اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تُهنَّا ، وأعطنا ولا تَحْرِمْنا ، وآثِرْنا ولا تُؤْثِرْ علينا ، وارْضَ عنا وأرضنا » .

فسأله الصحابة عن الأمر .

فقال النبى ﷺ :

« لقد أُنْزِلَ علىَّ عشر آيات من أقامهنَّ دخل الجنة ، ثم قرأ ﷺ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ حتى ختم العشر .

(*) أخرجه الترمذى (رقم ٣١٧٣) ، وأحمد (١ / ٣٤) .

في هذا الموقف بيان لجملة من الحقائق الإيمانية :

أولاها : أن الوحي كانت له علامات يعرف بها الصحابة اللحظات القدسية التي تنزل فيها الآيات على قلب سيدنا رسول الله ﷺ . وظهر لنا في هذا الموقف الذي يبسطه لنا بمزيد من التفصيل والتوضيح الإمام أحمد في مسنده، حيث يروي قول الصحابة رضي الله عنهم:

وكنا نسمع صوتًا (دويًا) كدويّ النحل عند وجهه ﷺ إذا نزل عليه الوحي . وهذه علامة مسموعة، وأخبرت السنة المطهرة أن هنالك علامات أخرى مرئية مشاهدة، من ذلك أن رسول الله ﷺ كان يتصبب عرقًا، وهناك صورة أخرى كان الوحي يأتي فيها على هيئة رجل مشرق الوجه، من ذلك ما ورد في حديث الإسلام والإيمان والإحسان، حيث جاء رجل فاقترب من رسول الله ﷺ بهيئة طيبة حسنة، وقال : يا رسول الله أخبرني عن الإسلام، فأجابه النبي، ثم قال: أخبرني عن الإيمان، ثم أخبرني عن الإحسان، فلما انتهى، قال النبي ﷺ للصحابة – رضي الله عنهم – : «هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم»[١].

وباب الوحي واسع له تفصيله وبيانه في مباحث علوم القرآن .

ثانيتهما : حرص صحابة رسول الله ﷺ على معرفة الرسالة الإلهية التي حملها الوحي لسيدنا محمد ﷺ ، لذلك سألوا رسول الله ﷺ في الموقف عن سبب التفاته للقبلة ودعائه بعد انتهاء الوحي من تبليغ الرسالة، وهذا هو التأسي والاقتداء والاهتداء في أمر الدين، فالمرجعية فيه لله وللرسول ﷺ .

ثالثتهما : مضمون الرسالة التي حملها الوحي واستبشر بها النبي ﷺ وهي الآيات العشر الأولى من سورة المؤمنون، والبشرى التي تعلقت بهذه

---

(١) أخرجه مسلم (١ / ٢ / ١٥٦ ، ١٥٧ مع النووي) .

الآيات، وهى قوله ﷺ : «من أقامهنّ دخل الجنة».

وفى هذا تأكيد للحقيقة الإيمانية التى تكررت فى آيات القرآن الكريم، وهى أن بركة القرآن لمن يعمل به، فلا يكفى حفظ الآيات فقط أو العلم بها فقط، وإنما المطلوب بعد العلم العمل، وإلا كان العلم بالآيات حُجة على الإنسان، وفى هذا يقول النبى ﷺ : «والقرآن حُجة لك أو عليك»[1].

وتؤكد الآيات العشر الحقائق التالية :

أولاً : أن الفلاح للمؤمنين.

ثانيًا : أن للإيمان تكاليف، والقيام بتكاليف الإيمان هو عين التحقق بحقائق الإيمان.

ثالثًا : أن الصلاة هى مفتاح أوصاف المؤمنين، وأيضًا هى الختام والتاج لأعمالهم.

رابعًا : أن أهل الإيمان يتنزهون عن لغو الكلام، ولغو العمل، وهم دائمون فى فعل الخيرات وإيتاء الزكاة.

خامسًا : أن أهل الإيمان يحفظون أعراضهم، ولا ينظرون لغير حلالهم.

سادسًا : أن أهل الإيمان أهل أمانة وعهد صادق.

فمن تحقق بهذه الأوصاف وجبت له البشرى فى قول النبى ﷺ : «من أقامهنّ دخل الجنة».

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب «الطهارة» باب «فضل الوضوء» (٣/٩٩/ح ١ مع النووى).

٦٦ - من سوء الخاتمة

عجز غلام عند موته عن النطق بالشهادتين، فعُرِضَ أمر الغلام على النبي ﷺ، فحضر رسول الله ﷺ إلى الغلام، وعلم أنه كان عاقًا لأمه، فدعاها النبي ﷺ، وقال لها:

سامحي ولدك وارضي عنه، وإلا قذفناه في النار.

فَرَقَّ قلب الأم وسامحت ورضيت عن ابنها.

فقال النبي ﷺ للغلام:

«قل: لا إله إلا الله».

فنطق الغلام:

لا إله إلا الله.

فقال النبي ﷺ:

«الحمد لله أنقذه بي من النار».

(*) رواه أبو داود في السنن (ب٥)، وأحمد (٣/٢٢٧)، وعند البخاري: الحمد لله الذي أنقذه من النار. (٢/١١٨).

هذا الموقف يحذرنا من عقوق الوالدين، وبخاصة الأم، ويتأكد هذا التحذير من خلال الدلالات الآتية :

الدلالة الأولى : أن من عقوبة عقوق الوالدين سوء الخاتمة، والعياذ بالله تعالى، وظهر لنا من الموقف كيف أن الشاب العاق لأمه قد عجز لسانه عن النطق بالشهادتين، وهذه عقوبة من العقوبات العاجلة في الدنيا لمن عَقَّ والديه أو أحدهما، هذا فضلاً عن عقوبة الآخرة بالحرمان من الجنة، فقد أخرج النسائي عن ابن عمر – رضي الله عنهما – أن رسول الله ﷺ قال : «لا يدخل الجنة عاق لوالديه»[(١)].

وحسب المؤمن تحذيراً من عقوق الوالدين قول رسول الله ﷺ :

«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟» قلنا : بلى يا رسول الله. قال : «الإشراك بالله وعقوق الوالدين» وكان متكئًا، فجلس وقال : «ألا وقول الزور، وشهادة الزور، ألا وقول الزور، وشهادة الزور» فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت[(٢)].

ويظهر من الحديث الشريف أن عقوق الوالدين جاء معطوفًا على الإشراك بالله تعالى، وفي هذا دلالة واضحة على خطورة العقوق، وأنه في سياق أكبر الكبائر ، هذا في مقابل أن الأمر في القرآن الكريم بالبر بالوالدين جاء في سياق الأمر بتوحيد الله تعالى :

قال تعالى : ﴿ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا** ﴾ [الإسراء/ ٢٣ : ٢٤].

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٠٣، ٦/ ٤٤١).

(٢) أخرجه البخاري (٥/ ٣٠٩/ ح ٢٦٥٤)، ومسلم (٢/ ٨١ مع النووي).

الدلالة الثانية : ظهر من الموقف هذه الرحمة الفياضة، وهذا الحنان العظيم في قلب أم علقمة، فلم تقبل أن يعذب ولدها في النار، بسبب عقوقه لها، بل غفرت وسامحت، فانطلق لسان علقمة بالشهادتين، وفي هذا إشارة إلى أن الأم بقلبها الحنون العطوف الرحيم تستحق هذه المكانة التي أكرمها الله بها، فجعل رضاها من رضا الله، وجعل غضبها من غضب الله.

الدلالة الثالثة : حكمة رسول الله ﷺ في علاج الموقف، وكيف استطاع ببصيرته أن يكسر حاجز الحزن والألم الذي ملأ قلب أم علقمة، بسبب عقوق ولدها لها، وذلك عن طريق إحضار نار مشتعلة أمامها، ثم قال لها : إما المسامحة وإما أن نقذف علقمة في النار، فرقَّ قلبها وسامحت.

وفي هذا أسوة للدعاة وأهل التربية في علاج النفوس حين يشتد بها الألم والعتاب والحزن ... فلابد من البحث عن مفتاح هذه الشخصية، والتعرف على الباب الذي يمكن للإنسان أن يدخل إليها منه ويؤثر فيها.

فالدخول إلى الأمر من باب العطف والرحمة والشفقة على ولدها كان له أبلغ الأثر في تحويل مشاعر الأم من الغضب والحزن إلى المسامحة والعطف.

٦٧ - علامَ التعالى ؟!

مَرّ رجل يتباهى، يظهر عليه آثار الترف والغنى، فقال النبى ﷺ لرجل يجلس عنده: ما رأيك فى هذا الرجل ؟

فقال : هذا رجل من أشراف الناس، هذا والله حَرِىٌّ إن خطب أن يُنكح، وإن شَفعَ أن يُشفَّع، فسكت رسول الله ﷺ .

ثم مر رجل آخر تبدو عليه أمارات الفقر؛ فقال النبى ﷺ للرجل الذى يجلس عنده : «ما رأيك فى هذا الرجل؟».

فقال : هذا رجل من فقراء المسلمين، إن خطب لا يُزوَّج، وإن شفع لا يُشفَّع، وإن قال لا يُسمع لقوله .

فقال النبى ﷺ : «هذا خير من ملء الأرض من ذاك الأول».

(*) أخرجه البخارى (٩/ ٣٥/ ح ٥٠٩١ مع الفتح).

هذا موقف تربوى عظيم يحمل دلالات هادية منها :

الدلالة الأولى : الأسلوب التربوى من رسول الله ﷺ فى التعليم وإظهار الحقائق بشكل ملموس، تتجسد به المعانى وتثبت فى ذهن المتعلم، فيكون أجدى وأنفع من الكلام المجرد. وهذا اتجاه تربوى محمدى من بين اتجاهات تربوية كثيرة تظهر فى السنة المطهرة، وتطلب من الباحثين فى التربية ومناهجها أن يتوفروا لها بالبحث والدراسة؛ كى تنتفع الأمة والدنيا كلها بهدى رسول الله ﷺ فى مناهج التربية.

فالملاحظة السريعة تُظهر أن النبى ﷺ كان يستخدم الحوار المقنع، ويلجأ إلى الاستدلال، كما يقدم الأسوة والقدوة فيما يقول، كما كان يستعين بالوسائل التوضيحية التى كانت تتناسب مع البيئة فى عصره ﷺ، من ذلك رسمه ﷺ على الأرض خط الأجل وخط الأمل، واستخدام الحصى والعصا فى بعض البيانات العملية، وغير ذلك كثير تفيض به سنة الهادى البشير سيدنا محمد ﷺ، وكل هذا يكشف عن حرص رسول الله ﷺ على أمانة تبليغ الدعوة ووصولها سهلة ميسرة إلى قلوب الناس وعقولهم، قال ﷺ :

«إن الله لم يبعثنى مُعنتًا ولا مُتعنتًا، ولكن بعثنى معلمًا ميسرًا»[١].

وفى هذا أسوة للدعاة والمعلمين فى اصطفاء ما يناسب المتلقى للعلم من وسائل وأساليب.

الدلالة الثانية : وهى تمثل بيانًا عمليًا لتأكيد مفهوم إيمانى، وهو أن منازل الناس وأقدارهم عند الله تعالى، لا تتأتى من مظاهرهم، فقد تكون المظاهر مضللة خادعة، ولا تتأتى من أموالهم ولا من متاع دنياهم، وإنما الذى

---

(١) أخرجه مسلم فى «الطلاق» (رقم ٢٩).

يضع الإنسان في المقدمة عند ربه هو صدق إيماني بالله تعالى، وصلاح عمله، قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات/١٣].

ولذا قال النبي ﷺ بعد أن مر الرجل المتباهي، ثم مرَّ الرجل الصالح المتواضع الفقير : «إن هذا الرجل – أي الصالح الفقير – خير من ملء الأرض من مثل هذا، أي الرجل المتباهي الغني»، وذلك لأن الناس كلهم لآدم، وآدم من تراب، فعلام التباهي، وفيم التفاخر ؟!

حكي أن أحد الصالحين رأى عالمًا أصابه الزهو بعلمه، والفخار بذكائه، فأحب أن يعظه، فسأله عن تفسير ثلاث آيات من القرآن الكريم :

الأولى : عن قول الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ [النحل/٧٨].

الثانية : عن قول الله تعالى : ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [النحل/٧٠].

الثالثة : عن قول الله تعالى : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء/٨٥].

فأدرك العالم الموعظة وقال: «بين جهل البداية وجهل النهاية علم قليل. فسبحانك يارب، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

وهكذا ينبغي ألا يتعالى الإنسان بما عنده من نعم، لأن النعم من فضل الله، قال تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [النحل/٥٣]، كما ينبغي على الإنسان ألا يسخر ممن هم دونه في صحة أو مال أو علم، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ

مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الحجرات/ ١١].

نسأل الله أن يهدينا وأن يتولانا وأن يرضى عنا.

٦٨ - فقه الأولويات

خرج عبد الله بن المبارك في قافلة للحج، فمرّ ببعض البلاد، فمات طائرٌ كان معهم، فأمر بإلقائه في مكان يلقي الناس فيه فضلاتهم، فإذا جارية تأتي فتأخذ الطائر الميت، فسألها عبد الله بن المبارك عن سبب أخذها الميتة.

فأخبرته الجارية بأنهم وقعوا في الاضطرار ولا يجدون طعامًا منذ أيام.

فأعطاها عبد الله بن المبارك نفقة الحج ثم رجع، وقال:

هذا أفضل من حجتنا هذا العام.

(*) حلية الأولياء، ترجمة ابن المبارك.

فى هذا الموقف درس عظيم فى فقه الأولويات، فالأعمال الصالحة تتفاوت فى المنازل والدرجات .. والنبى ﷺ قال :

« الإيمان بضع وسبعون شعبة . أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق »(١) .

وكان الصحابة - رضى الله عنهم - حريصين كل الحرص على معرفة أفضل الأعمال عند الله تعالى، وعلى معرفة أحب الأعمال عند الله تعالى، وذلك لأن أحب الأعمال وأفضلها أرجى للقبول عند الله تعالى؛ ولذلك كثرت أسئلتهم عن أفضل الأعمال وأحبها .

ومن تتبع ما جاء فى القرآن والسنة فى هذا المعنى يرى أن الشرع وضع لنا جملة من المعايير لبيان الأفضل والأولى والأحب إلى الله تعالى : فصلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة، والفرائض مقدمة على النوافل . . . وهكذا؛ فالموقف الذى بين أيدينا هو تطبيق عملى وأسوة وقدوة فى هذا المعنى .

فإن عبد الله بن المبارك لما خرج فى قافلة للحج، ومر ببلد، وماتت دجاجة من الطيور التى مع القافلة، أمر عبد الله بن المبارك وكيله أن يلقى بها فى مكان يلقى الناس فيه فضلاتهم على مقربة من طريق القافلة، وكانت المفاجأة إذ أقبلت جارية تأخذ هذه الدجاجة الميتة وتسرع بها إلى دارها القريبة، فتحرك قلب عبد الله بن المبارك، وأحسّ أن ضائقة وراء أمر الجارية، فذهب إليها وسألها، فأخبرته الجارية بأنها وإخوتها قد حلت لهم الميتة منذ ثلاثة أيام لوقوعهم فى الاضطرار، فليس عندهم طعام ولا مال، فقد جاء لصوص فقتلوا أباهم وأخذوا ماله، فتأكد عبد الله بن المبارك من ضائقة هذه الأسرة، وأنها

(١) أخرجه البخارى (١ / ٦٧ / ح ٩ مع الفتح)، ومسلم (١ / ٢ / ٣ مع النووى)

أولى بنفقة حجه، حيث إن حجه كان تطوعًا، فقد أدى حجة الفرض؛ فأعطاهم نفقة الحج ثم رجع، وقال: هذا أفضل من حجنا هذا العام.

وهذا الفهم فقه دعا إليه القرآن الكريم، حين بيّن الله أن جنس أعمال الجهاد في سبيل الله، وإعانة المجاهدين أفضل من جنس أعمال الحج، قال تعالى:

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [التوبة/ ١٩].

ثم يقول ربنا مؤكدًا في الآية التالية أفضلية الجهاد وأولويته:

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [التوبة/ ٢٠].

وهذه دعوة قرآنية إلى المتطوعين بالحج كل عام أن يوجهوا هذه النفقة إلى رعاية البائسين من المرضى والمحتاجين، وإخواننا في الأرض المحتلة الذين يجاهدون اليهود من أجل الأقصى والقدس، فالنفقة في هذه الوجوه أفضل وأولى.

٦٩ - عموم المغفرة لحجاج بيت الله الحرام

لما نزل النبي ﷺ بالمزدلفة أثناء الحج جعل يدعو لأمته، ثم ابتسم النبي ﷺ، فقال بعض أصحابه :

يا رسول الله، ما أضحكك؟! أضحك الله سنك يا رسول الله.

فقال النبي ﷺ :

«تبسمت من عدو الله إبليس، حين علم أن الله عزْ وجلْ قد استجاب لي في أمتي وغفر للمذنبين، هوى إبليس يدعو بالثبور والويل، وأخذ يحثو التراب على وجهه ورأسه.. فتبسمت مما يصنع من جزعه».

(*) ذكره ابن الجوزي في الموضوعات، ص ٢١٣.

في هذا الموقف العظيم بشرى من رسول الله ﷺ بعموم المغفرة لحجاج بيت الله الحرام، حتى المظالم والتبعات؛ فقد وضحت السنة أن الله تعالى يتحمل عن الحاج هذه التبعات. وفي هذا قال النبي ﷺ، عشية عرفات: «معاشر الناس، أتاني جبريل آنفًا وأقرأني من ربي السلام، وقال: إن الله عزَّ وجلَّ غفر لأهل عرفات وأهل المشعر الحرام وضمن عنهم التبعات».

فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله، هذا لنا خاصة؟

فقال النبي ﷺ: «هذا لكم ولمن أتى بعدكم إلى يوم القيامة»[(١)].

فقال سيدنا عمر رضي الله عنه: كَثُرَ - والله - خير الله وطاب.

والنبي ﷺ حريص على بيان صفة الحج الذي تتأتى به عموم المغفرة، قال ﷺ: «من حج فلم يرفث ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه»[(٢)].

وقال ﷺ: «... والحج المبرور، ليس له جزاء إلا الجنة»[(٣)].

وقال ﷺ: «من قضى نسكه، وسَلِمَ المسلمون من لسانه ويده، غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه»[(٤)].

ودلالة أخرى في هذا الموقف، وهي شدة غيظ الشيطان، وبخاصة في يوم عرفة؛ لما يرى من تنزل الرحمات وعموم المغفرة من الله على عباده حجاج بيته الحرام، وفي هذا يقول ﷺ: «ما رُئِي الشيطان يومًا هو أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه في يوم عرفة، وما ذاك إلا لما يرى من تنزل الرحمة، وتجاوز الله تعالى عن الذنوب العظام»[(٥)].

وفي هذا تأكيد لعداوة الشيطان للإنسان، وأنه ليسوؤه كل الإساءة أن

---

(١) راجع التمهيد لابن عبد البر (١/١٢٩)   (٢) أخرجه أحمد (٣/٤٨٤).
(٣) أخرجه البخاري (٣/٢)، ومسلم في الحج (٤٣٧).
(٤) راجع كنز العمال (ح ١١٨١٠).   (٥)

يكون الإنسان طائعاً مستغفراً تائباً. ومن هنا ينبغي على الإنسان أن يحذر هذا العدو الذي حذرنا الله تعالى منه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف/٢٢]. وقال عز وجل: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء/٥٣].

وقوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس/٦٠].

لذا أمرنا القرآن ألا نتبع وسوسته وحيله ومكره، قال تعالى: ﴿وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة/٢٠٨].

وأمرنا القرآن أن نستعين بالله تعالى لدفع مكره ووسوسته، قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت/٣٦].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس/١: ٦].

٧٠ – مراعاة أصحاب الأعذار

رأى كُثير بن جهمان سيدنا عبد الله بن عمر – رضى الله عنهما – يمشى فى المسعى بين الصفا والمروة.

فقال له :

أتمشى فى السعى بين الصفا والمروة ؟

فقال ابن عمر :

لئن سعيت فقد رأيت رسول الله ﷺ يسعى، ولئن مشيت لقد رأيت رسول الله ﷺ يمشى، وأنا شيخ كبير».

(*) أخرجه الترمذى (ح ٨٦٤).

هذا الموقف في فقه التيسير على أصحاب الأعذار من المرضى وكبار السن، وتجنب أذى الغير بالمزاحمة والمدافعة، وعدم تحميل النفس فوق طاقتها من المشقة. وفيه هدى كريم لحجاج بيت الله تعالى، وقد قال الله تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة/٢٨٦].

إنَّ الناس تتفاوت قوتهم وطاقاتهم؛ ولذلك كان النبي ﷺ يجيب عن السؤال الواحد بإجابات متعددة رعاية لحال السائل وظروفه، فحين سُئل النبي ﷺ عن أفضل الأعمال وأحبها إلى الله وتكرار السؤال، أجاب ﷺ الشاب الجلد القوي بالجهاد في سبيل الله، وأجاب من يقوم على رعاية أبويه لكبرهما بأن جهاده في البر والإحسان لوالديه، ويفتي الشيخ الهرم الذي لا يستطيع الجهاد في ساحة الحرب بأن أفضل العمل له هو ذكر الله تعالى ... وهكذا.

والموقف تطبيق عملي وأسوة حسنة في هذا المعنى، فحين رأى الرجل ابن عمر يمشي في المسعى، والمسعى بين الصفا والمروة حركة السير فيها نوعان:

الأول: المشي في الذهاب والإياب بين الصفا والمروة ما عدا المسافة المحددة بين الميلين الأخضرين، فيسن الهرولة فيها إذا بلغها الإنسان، وهو ما يسمى بالرمل.

فإذا عجز الإنسان عن الهرولة بين الميلين الأخضرين؛ بسبب عجز أو ضعف أو ازدحام فلا يدافع ولا يؤذي غيره بل عليه بالمشي.

ويقوي هذا المعنى ويؤكده قول رسول الله ﷺ لسيدنا عمر ﷺ في أثناء الحج:

«يا عمر : إنك رجل قوى، لا تزاحم على الحجر، فتؤذى الضعيف، إن وجدت خلوة فاستلمه، وإلا فاستقبله وكبر»[١].

ومن هنا قرر الفقهاء أن تقبيل الحجر سنة، فى حين أن إيذاء الغير جناية وذنب.

فعلى الحاج أن يلزم السكينة والتؤدة وأن يتجنب مدافعة إخوانه بل يتحمل ويصبر دون جدال أو مدافعة، فالطمأنينة والسكينة والخشوع من علامات فقه المؤمن للعبادة، وصدق إخلاصه لله تعالى فيها.

وكان من وصايا رسول الله ﷺ لحجاج بيت الله تعالى أن يلزموا السكينة، وذكر الله، ويتجنبوا إيذاء الغير والجدل؛ قال ﷺ : «يا أيها الناس عليكم بالسكينة؛ فإن البر ليس بالإيضاع»[٢] والإيضاع هو الإسراع.

يضاف إلى هذا ما يحدث فى منى، عند رمى الجمرات من أجساد تعتصر من شدة الزحام، وقد تزهق بعض الأرواح، فكل هذا مخالف لهدى الحبيب المصطفى ﷺ فى التيسير، وبخاصة عند اشتداد الزحام، ولنا أسوة فى حضرته ﷺ؛ فقد جاءه سائل فى الحج، يقول : يا رسول الله، لم أشعر فنحرت قبل أن أرمى، فقال النبى ﷺ : «ارم ولا حرج»، فما سُئل النبى ﷺ يومئذ عن شىء قدم ولا أخر؛ إلا قال : «افعل ولا حرج»[٣].

اللهم فقّهنا فى ديننا وخلّقنا بخلق رسول الله ﷺ.

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (١/ ٢٨).
(٢) رواه أبو داود فى «المناسك» (ب ٦٤)، والترمذى (ح ٨٨٥).
(٣) أخرجه البخارى (١/ ٣١، ٤٣، ٢/ ٢١٥)، ومسلم فى «الحج» (رقم ٣٢٧، ٣٢٨، ٢٣١، ٣٣٣).

٧١ - يُبْعَثُ مُلَبِّيًا

بينما رجل واقف مع رسول الله ﷺ بعرفة، إذ وقع عن راحلته، فكسرت عنقه ومات.

فقال النبي ﷺ :

«اغسلوه بماء وسدر، وكفنوه في ثوبيه، ولا تمسوه بطيب، ولا تخمروا رأسه؛ فإنه يُبْعَثُ يوم القيامة ملبيًا».

(*) أخرجه مسلم في «الحج» (١٤ / ٩٣، ٩٤، ٩٦، ٩٧، ٩٩).

هذا الموقف يبين لنا فضل من مات أثناء الحج، وأنه يبعث يوم القيامة ملبيًا؛ يقوم بين الناس في أرض الموقف، وهو يقول : لبيك اللهم لبيك . . إلخ، وفي هذا ما فيه من حسن الخاتمة، وعظيم الجزاء الأوفى في يوم القيامة بدخول الجنة، وحصول عفو الله، وعموم مغفرته لمن مات وهو يحج .

كما يشير الموقف إلى فضل التلبية، وأنها شعار الحج، وقد أخرج ابن ماجة وغيره عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : «أتاني جبريل فأمرني أن آمر أصحابي أن يرفعوا أصواتهم بالإهلال والتلبية؛ فإنها شعار الحج»[١]، ومعلوم أن الجهر للرجال والسر للنساء .

أيضًا أخرج الطبراني أن رسول الله ﷺ قال : «ما أهلَّ مهل قط وإلاَّ بُشِّر، ولا كَبَّر مكبر قط إلا بُشِّر» . قيل : يا رسول الله، بالجنة ؟ قال : «نعم»[٢] .

ونص التلبية هو : **«لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك»** .

ويقولها المحرم عند الشروع في الإحرام وهو الميقات لم يتجاوزه، ويستحب تكرارها ورفع الصوت بها وتجديدها عند كل مناسبة من نزول أو طلوع أو ركوب أو إقامة صلاة أو فراغ منها أو ملاقاة الرفاق . . ونحو ذلك .

وتظل التلبية على لسان الحاج حتى يصل إلى منى بعد الوقوف بعرفات، والوقوف بالمزدلفة، فعندما يصل إلى منى يرمي جمرة العقبة بسبع حصيات ويكبر، ومن هذه اللحظة تنقطع التلبية مع آخر حصاة، ويبدأ التكبير: **الله أكبر الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله ، الله أكبر الله أكبر ، ولله الحمد** .

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤ / ٥٦) .
(٢) رواه الطبراني في الأوسط بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح . قاله في المجمع (٣ / ٢٢٧) .

كما يشير الموقف إلى فضل ثياب الإحرام، وأنها يكفن بها الحاج إذا مات وهو محرم؛ فهي ثياب شهدت طاعة من أعظم الطاعات، ونالت بركة الذكر والتلبية والصلاة، فهي شاهد خير لصاحبها.

وهكذا كان ذكر الصحابة - رضي الله عنهم أجمعين - ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين- يعلمون أن الأشياء تُبارك بالطاعة، وبأهل الطاعة، يشهد لذلك ما رواه البخاري عن سهل بن سعد ﷺ أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ ببردة منسوجة، فقالت : نسجتها بيدي لأكسوكها، فأخذها النبي ﷺ محتاجًا إليها، فخرج إلينا وإنها لإزاره، فقال فلان : اكسنيها، ما أحسنها! فقال : «نعم» فجلس النبي ﷺ في المجلس، ثم رجع فطواها، ثم أرسل بها إليه، فقال له القوم: ما أحسنت ! لبسها النبي ﷺ محتاجًا إليها، ثم سألته، وعلمت أنه لا يرد سائلاً، فقال : إني والله ما سألته لألبسها، إنما سألته لتكون كفني، قال سهل : فكانت كفنه[1].

(١) راجع مجمع الزوائد ، باب «اللباس» الحديث الأول.

٧٢ - يا خير من دفنت بالقاع أعظُمهُ

قال العتبى : كنت جالسًا عند قبر النبى ﷺ ، فجاء أعرابى فقال :

السلام عليك يا رسول الله . قال الله تعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء/٦٤]، وقد جئتك مستغفرًا ربى لذنبى ، مستشفعًا بك إلى ربى ثم أنشأ يقول:

يا خَيْرَ من دُفِنَتْ بالقاعِ أعْظُمُهُ
فطابَ من طِيبهِنَّ القاعُ والأكَمُ

نفسى الفداءُ لِقَبْرٍ أنتَ ساكِنُهُ
فيه العفافُ وفيه الجُودُ والكَرَمُ

ثم انصرف الأعرابى ، فغلبنى النوم ، فرأيت النبى ﷺ ، فقال لى : يا عتبى !! الحق الأعرابى فبشره أن الله قد غفر له».

(*) يؤيد هذا الموقف حديث الضرير فى التوسل به ﷺ .

هذا الموقف يفيض بدلالات إيمانية في رحاب الحبيب الشفيع سيدنا محمد ﷺ منها :

فضل زيارة النبي ﷺ ؛ فهي سنة أجمع عليها جمهور العلماء، ويقول النبي ﷺ – فيما رواه البيهقي والدارقطني وغيرهما عن ابن عمر – رضي الله عنهما – : «من زارني بعد موتي فكأنما زارني في حياتي»[١]، قال الحافظ ابن حجر : «إنها من أفضل الأعمال وأجل القربات الموصلة إلى ذي الجلال، وإن مشروعيتها محل إجماع».

وقال الإمام القسطلاني : إن زيارة قبره الشريف ﷺ من أعظم القربات، وأرجى الطاعات، والسبل إلى أعلى الدرجات، ومن اعتقد غير هذا فقد انخلع من ربقة الإسلام، وخالف الله ورسوله وجماعة العلماء الأعلام.

وهي لا تختص بالحاج أو المعتمر، ولكنها في حقهما آكد لقوله ﷺ : «من حج ولم يزرني فقد جفاني»[٢].

يظهر من الموقف ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن من أدب وإجلال لحضرة النبي ﷺ أثناء الزيارة، فحرمة رسول الله حيًا كحرمته ميتًا، وقد قال الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ** ﴾ [الحجرات/٢].

والسنة في الزيارة أن يغتسل المؤمن في مسكنه بالمدينة، ويتوجه إلى المسجد النبوي، فيصلي ركعتين تحية المسجد، ثم يأتي في أدب وسكينة قبر رسول الله ﷺ فيقف عند وجهه، وذلك بأن يستدبر القبلة ويستقبل جدار القبر، وليس من السنة أن يمس الجدار، ولا أن يقبله، بل الوقوف من بعد

---

(١) أخرجه العقيلي في الضعفاء (٣/٤٥٧).
(٢) الدر المنثور (١/٢٣٧).

أقرب للاحترام والتوقير، ثم يسلم على النبي ﷺ، يقول : السلام عليكم يا رسول الله، أشهد أنك بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة وجاهدت في الله حق جهاده. ويثني على رسول الله ﷺ بما أثنى الله به عليه، وإن كان قد أوصى بتبليغ سلام، فيقول : السلام عليك يا رسول الله – من فلان ... ثم يتأخر قدر ذراع ويسلم على سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه لأن رأسه عند منكب رسول الله ﷺ، ثم يتأخر قدر ذراع ويسلم على سيدنا عمر رضي الله عنه لأن رأسه عند منكب سيدنا أبي بكر رضي الله عنه، ثم يرجع إن تيسر له فيقف عند رأس رسول الله ﷺ ويستقبل القبلة ويحمد الله ويمجده ويكثر الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، ثم يقول : اللهم إنك قلت وقولك الحق : ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا** ﴾ [النساء / ٦٤].

اللهم إنا قد سمعنا قولك، وأطعنا أمرك، وقصدنا نبيك، مستشفعين به إليك في ذنوبنا، وما أثقل ظهورنا من أوزارنا، تائبين من زللنا، معترفين بخطايانا وتقصيرنا، فتب اللهم علينا وشفع نبيك فينا، وارفعنا بمنزلته عندك، اللهم اغفر للمهاجرين والأنصار، واغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، اللهم لا تجعله آخر العهد من قبر نبيك ومن حرمك يا أرحم الراحمين.

ثم يأتي الروضة ويصلي فيها ركعتين ويكثر من الدعاء ما استطاع، فإن لم يكن حافظًا لدعاء القرآن والسنة، فليكثر من ذكر الله تعالى والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ﷺ.

فالروضة بقعة مباركة، لقوله ﷺ : « ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي »[١].

---

(١) أخرجه البخاري (٢ / ٧٧، ٣ / ٢٩، ٨ / ١٥١، ٩ / ١٢٩)، ومسلم (رقم ٥٠٠، ٥٠٢).

٧٣ - حياة الشهيد عند ربه

لما استشهد عبد الله بن عمرو بن حرام ﷺ يوم أحد، قال النبي ﷺ لابنه جابر ﷺ:

«يا جابر: ألا أخبرك ما قال الله عز وجل لأبيك ؟»

قال جابر: قلت: بلى يا رسول الله.

فقال النبي ﷺ: «لقد كلَّم الله أباك، فقال له: يا عبدي تمنَّ عليَّ أُعْطك !!

فقال: يا رب تحييني فأُقتل فيك ثانية.

قال الله تعالى له: إنه سبق القول مني أنهم إليها لا يرجعون».

وأنزل الله قوله:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران/١٦٩].

(*) رواه أحمد (٣/ ٣٦١) بسند حسن، والترمذي في التفسير (٤/ ٨٤) وحسنه.

في هذا الموقف بيان لمكانة الشهيد عند الله تعالى؛ ولأجل هذه المكانة كان الصحابة يتسابقون ويتنافسون ويسارعون لنيل الشهادة في سبيل الله، فقد روى مسلم عن جابر ﷺ قال: قال رجل: أين أنا يا رسول الله إن قتلت؟ قال ﷺ: «في الجنة». فألقى الرجل بتمرات كنّ في يده، ثم قاتل حتى قُتل[١].

ومن دلالات هذا الموقف: أن الشهيد سعيدٌ باستشهاده، وأنه يتمنى أن يرد إلى الدنيا ليقتل في سبيل الله مرة ثانية، كما أن الشهيد يحب أن يُعلم إخوانه النعيم الذي يتقلب فيه في الجنة؛ لذلك قال عبد الله: يا رب أبلغ من ورائي. كيف لا والشهيد حي عند ربه؟ قال تعالى: ﴿ **وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ** ﴾ [البقرة/١٥٤].

ومن دلالات هذا الموقف أيضًا أن الإسلام يربي في أتباعه روح التضحية والفداء، فإما النصر وإما الشهادة؛ قال تعالى:

﴿ **قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ** ﴾ [التوبة/٥٢].

ورغبت الآيات أهل الإيمان في الجهاد، وجعلت فيه عزهم، قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ * لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ**

(١) رواه مسلم (١٣/٤٥، ٤٦).

قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ * لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ ﴾ [الحشر/ ١٠ : ١٤].

وأنذرت وحذرت من ترك الجهاد، وجعلت في تركه ذلهم، قال تعالى : ﴿ إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ [التوبة/ ٣٩].

٧٤ - رياضة فى بيت النبى ﷺ

خرجت السيدة عائشة (رضى الله عنها) مع رسول الله ﷺ فى بعض أسفاره، وكانت سريعة الحركة خفيفة، وهى آنذاك جارية. فقال النبى ﷺ للناس:

«تقدموا»، فتقدموا، ثم قال:

«تعالى أسابقك». فسابقته فسبقته، فسكت ﷺ. حتى إذا امتلأت وزاد وزنها، وكانا فى سفرة أخرى، قال النبى ﷺ للناس: «تقدموا» فتقدموا، ثم قال:

«تعالى حتى أسابقك» فسابقته فسبقها، فجعل يضحك ويقول:

«هذه بتلك».

(*) أخرجه أحمد فى المسند (٦ / ٢٦٤).

هذا موقف نبوى كريم يحمل دلالات تربوية هادية :

أولاهـا : هذا الود وهذا الحنان، وهذه الملاطفة التى كانت من رسول الله ﷺ لعائشة – رضى الله عنها – ليضرب للأزواج المثل ويقدم لهم الأسوة الحسنة فى حسن العشرة وملاطفة الزوجات.

ثانيتها : أن رسول الله ﷺ يقدم لنا أسلوبًا حكيمًا فى الترويح عن الأهل، وبخاصة فى الأوقات التى تتسم بالشدة والصعوبة، كأيام السفر، أو العمل الشاق ونحو ذلك؛ فالنبى ﷺ حين دعا عائشة إلى أن تسابقه كان فى سفر.

وفى الأثر : «روحوا القلوب ساعة بعد ساعة فإن القلوب إذا كلت عميت»(١).

ويستفاد من هديه ﷺ فى هذا الموقف أن أسلوب الملاطفة والترويح يُهون الصعاب ويدخل السرور على الصاحب.

ثالثتها : فى الموقف إشارة إلى لون من ألوان الرياضة، وهو المنافسة فى الجرى، وهو من جملة سنته ﷺ التى تحث المسلم على الرياضة والعناية بجسده؛ لأن الجسد نعمة من نعم الله تعالى.

وفى هذا الإطار نجد سيدنا عمر ﷺ يحثنا على تعليم أولادنا السباحة والرماية وركوب الخيل. وحين تصدى فارس مصارع لرسول الله ﷺ صارعه النبى ﷺ فصرعه رسول الله ﷺ.

---

(١) هو من قول الإمام علي – عليه السلام – ويشهد له ما ورد من حديث أنس بلفظ : «روحوا القلوب ساعة فساعة». أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١/٣٩٣)، وفيه الوليد بن محمد الموقرى وهو متروك.

٧٥ - أثر الصفح والعفو

ذهب فضالةُ بن عُمَيْر الليثى قاصداً قتل النبى ﷺ أثناء طوافه بالبيت، فلما دنا منه قال الرسول ﷺ : «أفضالة ؟!» قال : نعم فضالة يا رسول الله.

قال : ماذا كنت تحدثُ به نفسك ؟

قال : لا شيء، كنت أذكر الله !

فضحك النبى ﷺ ثم قال : استغفر الله.

ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه، فما كان من فضالة إلا أن قال : والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما من خلقِ الله أحب إليَّ منه.

وأسلم فضالة بهذا الصفح الكريم، وزالت من قلبه العداوة، وحلت محلَّها محبة رسول الله ﷺ.

(*) ابن حجر فى الإصابة (٥ / ٢١١).

هذا الموقف يحمل فيضاً كريماً من سماحة رسول الله ﷺ وعفوه، وحرصه على الآخر، وأنه كان يقابل الإساءة بالإحسان.

لقد قدم ﷺ أعظم المناهج التربوية للمصلحين، ووصف لهم سبل الهداية التي يتمُّ بها إنجاز أخطر وأعظم عملية تغيير للإنسان: من الضلال إلى الهدى، ومن الفساد إلى الصلاح، ومن الكفر إلى الإيمان، وهذه حقيقة أكدها القرآن الكريم في حق المصطفى ﷺ، قال تعالى:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران / ١٦٤].

وأمام هذه المهمة السامية والرسالة العالية، ألا وهي هداية الناس، يوضّح لنا رسول الله ﷺ – من خلال هذا الموقف – أنه لا مكان لنزغات النفس وظهور الأنانية، وهكذا كان شأنه ﷺ أنه ما كان ينتصر لنفسه، ولا يغضب لنفسه، ولا ينتقم لنفسه، إلا أن تنتهك حرمةٌ من حرمات الله.

لقد باع نفسه لله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام/١٦٢].

ولا غرابة بعد ذلك أن نرى النبي ﷺ قد ألزم نفسه التواضع، وكان يقول: «إنما أنا عبد أجلس كما يجلس العبد، وآكل كما يأكل العبد، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد»[١].

ودلالة أخرى في هذا الموقف: هي استعانة الداعية والمصلح والمربّي بالله (عز وجل) في معالجة فكر ونفس ومشاعر من أمامه؛ كي لا يرى لنفسه فضلاً في هذا التحول النوراني، وذلك التغير الإيماني، بل ينسب الفضل لله عز وجل؛ لذلك دعا ﷺ لفضالة بالهداية: «اللهم اهد قلبه».

---

(١) طبقات ابن سعد (١/١/٤، الدر المنثور ٦/١١١).

أيضًا هناك دلالة أخرى فى هذا الموقف النبوى الكريم، وهى إرشاد الحائر الضال إلى ما يصلح شأنه من ذكر أو دعاء أو عمل صالح؛ لذلك قال النبى ﷺ لفضالة : «استغفر الله يا فضالة».

ثم تأمل - رحمك الله - فى هذا الموقف النبوىّ الكريم، كيف قابل النبى ﷺ رغبة القتل من فضالة بالابتسامة الحانية، والكلمة الطيبة والدعاء، واليد الحانية التى كانت بلسمًا سكن به قلب فضالة، وتحوّل الموقف من العداوة إلى المحبة، وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿وَلا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت/٣٤].

٧٦ - لا أسبقه إلى خير أبداً

قال عمر بن الخطاب ﷺ :

أمرنا رسول الله ﷺ يومًا أن نتصدق، ووافق ذلك مالاً عندي، فقلت :

اليوم أسبق أبا بكر ﷺ فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ :

«ما أبقيت لأهلك؟» قلت : مثله.

وأتى أبو بكر ﷺ بكل ما عنده، فقال رسول الله ﷺ : «يا أبا بكر، ما أبقيت لأهلك؟».

قال : أبقيت لهم الله ورسوله.

فقال عمر :

لا أسبقه إلى خير أبداً.

(*) أبو داود : (رقم ١٦٧٨)، والترمذي (٣٦٧٥)، والحاكم (١ / ٤١٤).

هذا الموقف يحمل لنا هديًا وفقهًا في همم الرجال الأفذاذ في الإنفاق ابتغاء مرضاة الله تعالى ؛من أجل بناء الأمة ورفع شأنها.

ونحن في هذا الموقف نعيش مع هؤلاء الصحابة – رضي الله عنهم – وقد مضوا إلى ربهم، وبقيت آثارهم فيها الأسوة والقدوة، كما قال تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام/ ٩٠].

فأين نحن – المسلمين – من هذه القيم ؟!

أين نحن من هذه القدوة ؟

بل أين نحن من هذا الواجب ؟

إن النفقة ابتغاء مرضاة الله لا تقتصر على الضعفاء والمرضى وأصحاب الحاجات كما هو شائع بين الناس في زماننا المعاصر، بل تمتد الصدقة في الإسلام لتشمل كل ما ينهض بأمتنا ويرفع من شأنها بالإنفاق على بناء العقول والقلوب.

نحن بحاجة إلى أن نصعد بالعمل التطوعي خطوة لنتجاوز مجال الإيواء وحفظ الحياة وتخفيف آلام المنكوبين إلى صنع الحضارة؛ كي يستعيد المسلمون دورهم المتقدم في الحياة، وما أحوج المسلمين لهذا الدور في عالم العولمة حيث السيادة لثقافة الأقوى والأعلم والأغنى، أما الضعيف المتأخر فليس له إلا موائد الهبات والمنح والإعانات، وبهذا يكون الضعيف تابعًا للأقوى الذي يملك العلم والحضارة.

وحين يرقى وعي الأمة ليدرك دوره المعاصر فسيدرك أن الصدقات في الإسلام شرعت وفاءً بحاجات الأمة، وقد جعل الله تعالى من بين مصارف الزكاة والصدقات مصرفًا يشمل هذه الجوانب التي تعود بالنفع على المجتمع والأمة معًا، هذا المصرف هو : في سبيل الله.

قال الله تعالى :

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

[التوبة / ٦٠].

٧٧ - تضحية وفداء

حمل مصعب بن عمير ﷺ اللواء يوم أحد ، فلما خالف الرماةُ أمر رسول الله ﷺ وتحول النصر إلى هزيمة ، تكاثر المشركون على مصعب فضربه أحدهم على يده اليمنى فقطعها ، فأخذ مصعب اللواء بيده اليسرى ، فضربه المشركون على يده اليسرى ، فقُطعت ، فضم مصعب اللواء إلى صدره بعضديه ، ثم حملوا عليه حتى استشهد ، فلم يترك مصعب اللواء حتى استشهد .

(*) راجع أسد الغابة [٤ / ٤٠٦]، سيرة ابن هشام [٢ / ٧٣، ١٢٢].

هذا الموقف يعلمنا درسًا فى معنى التضحية والفداء فى سبيل الله تعالى كما يظهر لنا هذا الموقف البناء الإيمانى لشخصية المؤمن، ذلك البناء الذى يهيئ المؤمن – فى ساحة المواجهة والقتال – إلى التعلق بالله تعالى، لذلك لا يرضى المؤمن إلا بإحدى الحسنيين، إما النصر وإما الشهادة، قال الله تعالى :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ﴾ [التوبة / ٥٢].

وفى عرض تفاصيل موقف سيدنا مصعب ﷺ توضيح لدرس التضحية والفداء، وإظهار لموعظة غالية فى عُلو همة المؤمن فى ساحة الجهاد.

ففى غزوة أحد، وقف رسول الله ﷺ بين صفوف المسلمين، ينظر إلى الوجوه المؤمنة ليختار من بينها من يحمل الراية، وينادى النبى ﷺ :

« يا مصعب ، تقدم واحمل اللواء ».

وتبدأ المعركة، ويشتد القتال، ويخالف الرماة أمر رسول الله ﷺ، ويغادرون موقعهم فى أعلى الجبل بعد أن رأوا المشركين ينسحبون منهزمين، وبسبب هذه المخالفة تحول نصر المسلمين إلى هزيمة، حيث أسرعت فرسان قريش تأتى المسلمين من أعلى الجبل، وحدث شيء من الذعر والفوضى، وأشاع المشركون أن رسول الله ﷺ قد قُتل.

وأدرك مصعب بن عمير الخطر الغادر، فرفع اللواء عاليًا، وأطلق تكبيرة قوية كزئير الأسد، ومضى يصول ويجول، وكل همه أن يلفت نظر الأعداء إليه ويشغلهم عن رسول الله ﷺ.

وإنه لموقف مشهود لمصعب. يدٌ تحمل الراية، ويد تضرب بالسيف، ولكن الأعداء يتكاثرون عليه، ومصعب بن عمير يرفع الراية بيمينه، ويضرب بالسيف بيساره، ويتلو قول الله تعالى :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ [آل عمران / ١٤٤].

حتى جاءه فارس مشرك من بين هؤلاء الذين تكاثروا عليه وأحاطوا به لقتله، فضرب اليد اليمنى لمصعب، والتي بها الراية فقطعها، فسقطت يد مصعب ولم تسقط الراية، لقد التقطها بيساره، فضربه الفارس على يده اليسرى فقطعها، فسقطت يده اليسرى ولم تسقط الراية؛ لأن مصعباً قد حنا على الراية بصدره وضمها بعضديه، حتى أجهز المشركون على مصعب، فلم يترك الراية حتى استشهد.

٧٨ - ابدأ بنفسك

جاء رجل لابن عباس - رضي الله عنهما - وقال له : إني أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ، فقال له : إن لم تخش أن تفتضح بثلاث آيات من كتاب الله تعالى ، فافعل ، وإلا فابدأ بنفسك .

قال الرجل : وما هي ؟

قال : قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة/٤٤] .

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف/٢-٣] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ [هود/٨٨] .

فقال الرجل : أبدأ بنفسي .

(*) الإحياء [٤/٢١٣] .

هذا الموقف يحمل دلالات هادية لأهل الدعوة والإرشاد :

أولاً : أهمية القدوة الصالحة والأسوة الحسنة فيمن يتصدي للدعوة والإرشاد، فعلى الداعية أن يبدأ بنفسه، حتى يكون كلامه موافقًا لحاله، فيرى الناس فيه الأسوة والقدوة، وبهذا يكون لكلامه أبلغ الأثر في النفوس، ومن الحكم المأثورة في هذا المعنى قولهم : « حال رجل في ألف رجل أبلغ من كلام ألف رجل في رجل ».

ثانيًا : الأسلوب الحكيم في الإقناع، والذي يقوم على بيان الحجة البالغة التي تستند إلى آيات القرآن الكريم. وهكذا نتعلم من الصحابة - رضي الله عنهم - الأسلوب العلمي في التفكير ومعالجة الأفكار وإقامة الحوار، فالعلم حقائق نتوصل إليها بالأدلة الصحيحة، بعيداً عن الهوى. وهكذا ينبغي أن يكون حال أهل الدعوة في معالجة الأفكار والمشاعر بأسلوب مقنع يقوم على تقديم الدلائل والبراهين، وأن نثير انتباه العقل إلى الحقائق النافعة، وأن نلفت نظر المحاور إلى النتائج المترتبة على رأيه.

ثالثًا : الآيات التي اتخذها ابن عباس - رضي الله عنهما - برهانًا لنصيحته يدور معناها حول أهمية القدوة الصالحة والأسوة الحسنة في الداعية، فالآية الأولى هي قوله تعالى : ﴿ **أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ** ﴾ [البقرة/ ٤٤]. أي ليس من شأن العاقل أن يأمر الناس بالبر ويدعوهم إلى الخير ويهمل نفسه.

والثانية قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ** ﴾ [الصف/ ٢، ٣].

فهذا إنكار - من الله تعالى - على من وعد وعداً أو قال قولاً ولم يف به؛ لأن ذلك من علامات النفاق.

والآية الثالثة هي قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود / ٨٨] .

وفى الآية بيان لحال نبى الله شعيب مع قومه، وذكره الله فى القرآن كى نتأسى به فى الدعوة إلى الله تعالى، ومعنى الآية : أى لم أكن أنهاكم عن شيء وأرتكبه، وإنما قصدى ومرادى إصلاح حالكم مع الله، وأستمد عونى وتأييدى فى ذلك من الله تعالى، فعلى الله توكلى فى كل أمورى وإليه المرجع والمآب .

٧٩ - مفتاح الرضا

مات ابنٌ للحُسين بن على - رضى الله عنهما - فلم يُر عليه كآبة، فعُوتِب فى ذلك، فقال:

إنَّا - أهلَ البيت - نسأل الله تعالى فيعطينا، فإذا أراد ما نكره - فيما نحب - رضينا.

(*) أخرجه الترمذى (٢٣٠٥).

هذا الموقف يعلمنا أدب الرضا بقضاء الله وقدره، فالمؤمن يرضى بما يرضى الله به، وهذه أخلاق آل بيت المصطفى ﷺ، فهي من أخلاق جدهم ﷺ. رضاهم في رضا الله عز وجل، فهم موقنون بأن المعطي هو الله تعالى، فإذا استرد الله عاريته وأخذ ما أعطاه، فالمؤمن الموفق يسلم لمولاه، ويرضى قلبه بما قدّره الله وقضاه.

والرضا درجة لا تتأتى إلا لخواص المؤمنين، فالرضا درجة أعلى من الصبر، فالصبر تسليم بقضاء الله مع وجود الحزن والألم، ومع التألم والحزن يلزم الإنسان نفسه هدى الله تعالى وسنة رسوله ﷺ في القول والفعل عند وقوع البلاء، وفي هذا مجاهدة للنفس.

وفي المقابل نجد أن الرضا فيه تسليم كامل دون تألم أو حزن أو جزع، لأن برد الإيمان يطفئ نار المصيبة، ويتجلى الله بلطفه وكرمه على هذا القلب المؤمن فيملؤه رضًا بقضاء الله وقدره.

وقد جعل الله جزاء الرضا من جنسه، فمن رضي فله الرضا، قال الله تعالى : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ . ثم بيّن ربنا سبيل الرضا، فقال تعالى : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ [البينة/٨].

وثمرات الرضا بقدر الله فينا طيبة، تطيب بها حياة المؤمن في الدنيا، وتورثه المنازل العالية والدرجات العظيمة في الجنة يوم القيامة، فمن رضي بقدر الله في رزقه جعل الله غناه في قلبه، وفي الحديث النبوي الشريف، قال النبي ﷺ : «وارْضَ بما قسم الله لك تكن أغنى الناس»(١).

ومن رضي عن الله في كل قضائه وقدره، فقد بشره الله بالفوز العظيم يوم القيامة، قال الله تعالى : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [المائدة/١١٩].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٠٥).

وأنعم عليهم برضاه، ونسبهم إلى نفسه، ووصفهم بالفلاح، فقال الله تعالى: ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة/٢٢].

وليعلم المؤمن أن أفضل حال له هو ما اختاره الله سبحانه وتعالى، فينبغي ألا تلعب الأهواء بعقولنا وقلوبنا، فكم من شيء من زخرف الدنيا أحببناه وطلبناه، فلما تحقق لنا أصابنا بسببه الشقاء والعناء، وسبحان الله القائل: ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة/٢١٦].

٨٠ - دَعُوا التصنُّع

رأت السيدة عائشة - رضي الله عنها - رجلاً متماوتًا،

فقالت:

ما بال هذا ؟

فقالوا :

إنه يُظهر الصلاح.

فقالت :

كان عمر ﷺ أصلح منه، كان إذا مشى أسرع، وإذا أطعم أشبع، وإذا تكلم أسمع، فدَعُوا التصنُّع ؛ فإن الله لا يقبل من متصنِّعٍ عملاً.

(*) راجع عمر بن الخطاب، لابن الجوزي.

إن هذا الموقف يحمل بصائر هادية تصحح الخلل الذى يقع فيه بعض العامة، وهو تكلف إظهار الخشوع والخضوع فى الحركات والسكنات والأقوال والأفعال، بل وربما بالغ بعضهم فى إهمال هيئته ومظهره.

وفى الموقف الذى بين أيدينا أنكرت السيدة عائشة – رضى الله عنها – على هذا الرجل الذى يتكلف ويتصنع فى حركاته ومظهره ليظهر فى ثياب الخاشعين المتبتلين يظهر هذا من قولها: «ما بال هذا؟»، ثم وضَّحت – رضى الله عنها – حقيقة الصلاح والخشوع، وأنه يكون فى الجدِّية والالتزام وترك التكلف والتصنُّع؛ كى يكون مظهر الإنسان معبرًا عن جوهره، ويكون خشوع الجوارح تعبيرًا عن خشوع القلب؛ فالإسلام ينكر الزيف فى الأفعال والأقوال، فى الحركات والسكنات، ويربِّى فى أبنائه الصدق.

ومن بصائر هذا الموقف الهادية أن السيدة عائشة – رضى الله عنها – أوضحت حقيقة إيمانية بقولها: «فدعوا التصنُّع؛ فإن الله لا يقبل من متصنع عملاً»، هذه الحقيقة هى أن التصنع باب من أبواب الرياء، وأن الله – عزَّ وجلَّ – لا يقبل عمل المرائين الذين أشركوا مع الله عز وجل غيره فى أعمالهم، وفى هذا يقول النبى ﷺ: «إن الله أغنى الشركاء عن الشرك»[1] ... الحديث.

ولقد حدد الإسلام وصفين للعمل الذى يرجى له القبول عند الله تعالى:

الوصف الأول: صلاحية العمل، وذلك بموافقته هدى القرآن وسنة رسول الله ﷺ.

والوصف الثانى: هو إخلاص العمل لله، كما يتضح من قول الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف/ ١١٠].

---

(١) سبق تخريجه.

٨١ – ما قلت شيئًا من عندى

شكا رجل إلى الحسن البصرى الجُدُوبة، فقال له : استغفر الله، وشكا إليه آخر الفقر، فقال له الحسن البصرى :

استغفر الله.

وقال له آخر :

ادع الله أن يرزقنى ولداً، فقال : استغفر الله.

فسُئِلَ عن ذلك، فقال :

ما قلت شيئًا من عندى، إن الله تعالى يقول :

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ [نوح/١٠:١٢].

(*) راجع الطبرى فى التفسير.

هذا الموقف يوضح لنا فضل الاستغفار، حيث إن الذنوب من أكبر العوائق والحجب التي تمنع خيرًا كثيرًا، قال الله تعالى: ﴿ **وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ** ﴾ [الشورى/ ٣٠].

وإن العبد ليُحْرَمُ الرزق بالذنب يصيبه؛ لذلك كان الاستغفار من أعظم السبل التي تُرجى بها إزالة الحُجُب والعوائق التي تمنع الإنسان من خير كثير.

ينطلق الحسن البصري - في هذا الموقف - في نصحه للسائلين من منطلق إيماني ووعي بحقائق القرآن الكريم، فقد قال الله عز وجل: ﴿ **فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا** ﴾.

ويقول النبي ﷺ: «من لَزِمَ الاستغفار جعل الله له من كل ضيقٍ مخرجًا، ومن كل همٍّ فرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب»[١].

لذلك نصح الحسن من شكا إليه الفقر بالاستغفار، ومن رغب في الولد بالاستغفار أيضًا ... وهكذا.

وعن أثر الاستغفار في محو الذنوب يقول النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه: «قال الله تعالى: يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدمَ، لو بلغت ذنوبك عَنان السماء ثم استغفرتني غفرتُ لك ولا أبالي، يا ابن آدم، إنك لو أتيت بقُراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشركُ بي شيئًا لأتيتك بقُرابها مغفرة»[٢]. وقُراب الأرض يعني: ملء الأرض.

---

(١) رواه أبو داود (رقم ١٥١٨)، ابن ماجه (رقم ٣٨١٩).
(٢) راجع مجمع الزوائد (١٠/ ٢١٥)، والحديث صحيح.

والاستغفار من ألوان الذكر التي كان النبي ﷺ حريصًا عليها في اليوم والليلة، قال ﷺ : «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»[١].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢ / ٤٥٠)، وابن ماجه (رقم ٣٨١٦).

٨٢ – آه من بُعْدِ السفـر

لمّـا مرض أبو هريرة ﷺ مرض الموت، بكى، فقيل له:

ما يبكيك يا أبا هريرة ؟!

فقال :

أما إني لا أبكي على دنياكم هذه، ولكنني أبكي لبعد السفر وقلة الزاد، ونفس مقبلة على الرحمن، ولا أدرى أإلى الجنة فأهنيها أم إلى النار فأعزيها ؟

ثم دعا ربه قائلاً :

اللهم إني أحب لقاءك فأحب لقائي، وعَجّل لي فيه.

ثم فارق الحياة بعدها.

(*) ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم، الحديث (رقم ٢٩).

هذا الموقف يفيض بأنوار الإيمان، ويظهر لنا أثر هذا النور إذا دخل القلب وهو موافق لهدى الحبيب المصطفى ﷺ، وما أحوجنا جميعًا إلى مثل هذا الدعم المعنوى الإيمانى الذى يُقربنا من الله تعالى، ويرفع من هممنا فى فعل الصالحات وترك المنكرات. وقد أخرج الحاكم فى المستدرك عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال :

لقد قرأ النبى ﷺ قول الله تعالى : ﴿ **أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ** ﴾ [الزمر/٢٢].

ثم قال ﷺ : «إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح»، فقالت الصحابة: وهل لذلك من علامة يُعرف بها يا رسول الله ؟ فقال النبى ﷺ : «نعم، التجافى فى دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل الرحيل»[١].

قد تسيطر النزوات والشهوات والرغبات على بعض الناس فتحولهم إلى قيمة استهلاكية تجعلهم عبئًا على مجتمعهم وتحرمهم من المشاركة فى فعل الخيرات من صدقة أو تعليم أو إصلاح. فإذا استجابوا لهدى الله تعالى ولسنة الرسول ﷺ تحولت حياتهم إلى نعيم، وتصبح لحياتهم قيمة عند الله وعند الناس، ينتفع بهم مجتمعهم ويسعد بهم فضلاً عن سعادتهم ورضاهم.

قال الله تعالى : ﴿ **أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا** ﴾ [الأنعام/١٢٢].

وقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ** ﴾ [الأنفال/٢٤].

وهكذا صنعت تعاليم الإسلام وهدايات القرآن والسنة فى سيدنا

(١) المستدرك ٤/٣١١.

أبـي هـريـرة ﷺ حالة من التجافي والبعد عن الأطماع والرغبات والنزوات والشهوات في دار الغرور، وحالة من الإنابة والخضوع لله والتبتل إليه والخوف والخشوع مع الرجاء والأمل في رحمة الله تعالى، وتذكر الموت والاستعداد له بفعل الصالحات وترك الموبقات.

وعلى هذا المنوال وبنفس الأسلوب يكون إكرام كل من أقبل على الله تعالى جادًا صادقًا، فله البشرى، قال ﷺ: «ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»[1].

(١) أخرجه البخاري في مواضع (١/ ١٠، ١٢، ٩/ ٢٥).

٨٣ - دأب الصالحين

أشفق بعض الصحابة على سيدنا عمر ﷺ من اشتغاله في نهاره بمصالح الرعية، فإذا جاء الليل أطال قيام الليل، فلما حدثوه في ذلك، قال لهم :

«إذا نمتُ بالنهار ضيعتُ رعيتي، وإذا نمت بالليل ضيعتُ نفسي».

(*) راجع : أسد الغابة (٣/ ٦٤٢).

هذا الموقف العمري يحمل فقهًا عظيمًا في فضل قيام الليل، وأهمية حرص المؤمن عليه حتى مع اجتهاده في عمله في نهاره، وأن الصالحين في هذه الأمة لا يمنعهم جهدهم بالنهار من قيام الليل، وكذلك لا يؤثر قيامهم الليل في درجة إجادتهم واجتهادهم في أعمالهم بالنهار.

وحسب أهل قيام الليل من الثناء ما مدحهم الله به في قرآنه، ووعدهم به من المثوبة، قال الله تعالى :

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة/١٦، ١٧].

ولقد مدح الله عباد الرحمن بأن نهارهم كله طاعة وتواضع بين الناس، وليلهم سجود وتعبد، قال تعالى :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ [الفرقان/٦٣، ٦٤].

ويُعَدُّ ترك قيام الليل نقصًا في صاحبه؛ لقول النبي ﷺ عن عبد الله بن عمر : «نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل»[(١)] فكان عبد الله بعدها لا ينام من الليل إلا قليلاً.

وهناك أسباب معينة على قيام الليل ، وأهمها :

١ ـ الحرص على الحلال في المطعم والمآكل والمشرب.

٢ ـ ترك الفضول واللغو من الكلام والعمل أثناء النهار، فمن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه.

---

(١) البخاري (٢/٦١، ٦٩)، ومسلم (١٩٢٨، ١٩٢٩).

٣ - الراحة في وقت القيلولة إن أمكن ذلك.

٤ - النوم مبكراً وعدم تضييع الوقت فيما لا يفيد، فإذا نام الإنسان متأخراً ضيع على نفسه قيام الليل وصلاة الفجر.

٥ - النوم على السنة: بأن يتوضأ ويذكر الله تعالى ويقرأ الفاتحة وسورة الإخلاص والمعوذتين ويمسح جسده ثم يسمّي الله تعالى، ويدعو بدعاء النبي ﷺ: «باسمك اللهم وضعت جنبي وبك أرفعه»[1]. إلى آخر الدعاء.

٦ - ثم يسامح كل المسلمين ولا يجعل في قلبه حقداً ولا حسداً لأحد أبداً.

٧ - وأن ينوي الاستيقاظ لقيام الليل وصلاة الفجر، ويطلب ذلك من ربه بقلبه.

ويبشرنا رسول الله ﷺ بأن من قام الليل نال من الخير والبر الكثير، قال النبي ﷺ: «إن من الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه، وذلك كُلَّ ليلة»[2].

---

(١) أخرجه الدارمي (٢ / ٢٩٠).
(٢) رواه مسلم (رقم ٥٢١)، وأحمد (٣ / ٣٤٨).

٨٤ - كما بررت بى

ظلّ أبو هريرة ﷺ طوال حياته بارًا بأمه، فكان كلما أراد الخروج من البيت وقف على باب حجرتها، وقال :

السلام عليكم يا أمّاهُ ورحمة الله وبركاته.

فتقول أمه :

وعليك السلام يا بُنى ورحمة الله وبركاته.

فيقول لها :

رحمك الله كما ربَّيتنى صغيراً.

فتقول أمه :

ورحمك الله كما بَرَرْتَ بى كبيراً.

(*) راجع: الإصابة، ترجمة: أبى هريرة.

هذا الموقف أسوة أخلاقية وقدوة إيمانية في البر بين الآباء والأبناء. وبرُّ الأبناء ما هو إلا ثمرة لبرٍّ سابق من الآباء، وهذا هدى إيماني أرشدنا إليه الإسلام الحنيف، فقد أمرنا رسول الله ﷺ بالبر بالأبناء، بداية من اختيار الزوجة الصالحة، التي هي الأم المربية بعد ذلك، وكذلك أرشدنا رسول الله ﷺ باصطفاء أفضل الأسماء وأحسنها لأبنائنا، ثم تربيتهم بأدب القرآن والسنة، وبين المصطفى ﷺ أنه ما نَحَلَ - أي ما أعطى - والد لولده أفضل من أدب حسن. فإذا كان برُّ الآباء سابقًا على هذا النحو الذي أرشد إليه رسول الله ﷺ، فإن الثمرة والنتيجة له بر الأبناء للآباء.

وبشأن بر الأبناء بالآباء فقد أمر الله به، وعظم من شأنه، فجعله في سياق الأمر بالتوحيد وعبادة الله تعالى وعدم الشرك به، من ذلك قول الله تعالى: **﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾** [لقمان/ ١٤].

وقوله تعالى: **﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾** [الإسراء/ ٢٣/ ٢٤].

وفي السنة النبوية المطهرة بيان ومزيد توضيح لبر الوالدين وبخاصة الأم. من ذلك:

ما أخرج مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: سألت النبي ﷺ: أي الأعمال أحب إلى الله؟

فقال: «الصلاة على وقتها» قلت: ثم أيٌّ؟ قال: «ثم بر الوالدين».

قلت: ثم أيٌّ؟ قال: «ثم الجهاد في سبيل الله»(١).

---

(١) راجع: الترغيب والترهيب (٣/ ٥٢٥).

وهنا فقه يجب أن ننتبه إليه وهو أن الله تعالى يقوى ويدعم العلاقات الودودة الحميمة بين أفرادالأسرة، التى يقوم الترابط فيها على قيم الإيمان والخلق والوفاء؛ رغبة فى مرضاة الله تعالى، بدلاً من قيم المصالح والمنافع، فإذا كبر السن ووهن العظم أخرج الأبناء الآباء إلى دور غريبة، يعيشون كمن انقطع أصله ورحمه.

وفى هذا حماية لكيان الأسرة المسلمة؛ لأن ترابط هذا الكيان بالإيمان والخلق والبر فيه استقرار نفسى للمسلم، كما أن فيه التراحم والتعاطف، وإن من يُضيع أباه أو أمه أو يعقُّهما، فهو إلى تضييع مجتمعه ووطنه أسرع.

٨٥ - اليهود أهل غدر وبهتان

لما أسلم عبد الله بن سلام، كتم إسلامه عن اليهود فترة من الزمن، ثم قال لرسول الله ﷺ : ادع زعماء اليهود وسلهم عن منزلتي عندهم قبل أن يعلموا بإسلامي؛ فإنهم إن علموا أني أسلمت عابوني. فلما سألهم النبي ﷺ عن عبد الله بن سلام قالوا: سيدنا وابن سيدنا، وحَبرُنا وعالمنا.

فقال النبي ﷺ : «أفرأيتم إن أسلم أفتسلمون؟».

فقال اليهود : حاشا لله، أعاذه الله من أن يُسلم. فخرج إليهم عبد اللهِ بن سلام، وقال لهم : يا معشر اليهود، اتقوا الله وآمنوا برسوله الذي تجدونه عندكم في التوراه، وإني قد أسلمت.

فقال اليهود : كذبت، والله إنك لشرنا وابن شرنا، وجاهلنا وابن جاهلنا، وعابوه.

(*) راجع البخاري، كتاب المناقب، مناقب عبد الله بن سلام.

هذا الموقف يكشف لنا عن أسلوب اليهود في مواجهة الحقائق، فإنهم ينكرون الحق الواضح، ويضللون، وإن الجدال بالباطل من طبعهم، من وافقهم في طغيانهم وإفسادهم مدحوه، ومن خالفهم في ضلالهم عابوه، حتى الأنبياء لم يسلموا منهم، عابوهم، وقتلوهم.

وفي ثنايا الموقف – الذي بين أيدينا – مواعظ وعبر للمسلمين، ودروس تكشف لنا عن طبيعة أعداء الدين، فلا تُخدع.

لقد أسلم عبد الله بن سلام لما رأى النبي ﷺ يدعو إلى الفضائل وينهى عن الرذائل ويبشر من آمن بالجنة، ولقد أسلم أهل بيته معه.

وطلب عبد الله بن سلام من أهله أن يكتموا إسلامه عن اليهود. ثم رجع إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن اليهود قوم بهتان وباطل، وإني أحب أن تدعو رؤساءهم إليك، وأن تسترني عنهم في حجرة، ثم تسألهم عن منزلتي عندهم قبل أن يعلموا بإسلامي، ثم تدعوهم إلى الإسلام، فإنهم إن علموا أني أسلمت عابوني، ورَمَوْني بكل نقيصة وبهتان.

فأدخلني رسول الله ﷺ في بعض حُجُراته، ثم دعاهم إليه وأخذ يحضهم على الإسلام، ويحبب إليهم الإيمان، ويذكرهم بما عرفوه في كتبهم من أمره ﷺ.

فجعلوا يجادلونه بالباطل، فلما لم يستجيبوا لرسول الله ﷺ، قال لهم: ما منزلة ابن سلام فيكم؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا، وحبرنا وابن حبرنا، وعالمنا وابن عالمنا.

قال النبي ﷺ: «أفرأيتم إن أسلم، أفتسلمون؟».

فقالوا: حاشا لله، ما كان ليسلم، أعاذه الله من أن يسلم. فخرج إليهم عبد الله بن سلام وقال لهم: يا معشر اليهود، اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به

محمد، فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله، وتجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة باسمه وصفته، وإني أشهد أنه رسول الله وأومن به، وأصدقه.

فانقلبوا رأسًا على عقب، وتحولوا عن عبد الله بن سلام وحملوا عليه بكلام شديد، فقالوا: كذبت، والله إنك لشرنا وابن شرنا، وجاهلنا وابن جاهلنا، ولم يتركوا عيبًا إلا عابوه به.

وهذا هو طبع اليهود في التضليل والجدال بالباطل، ونسج التهم حول الزعماء إذا خالفوهم أو أظهروا إفسادهم، كذلك يزرعون الفتن ويشعلونها بين الشعوب كي تضعف وتذل لهم، ويدبرون المؤامرات، ويلفقون التهم للتخلص من العناصر المؤثرة في الصراع معهم، ويفسدون في الأرض بإشاعة المخدرات بين أبناء شعوبنا، ونشر الثقافات الانحلالية بين أبنائنا، فليحذر شباب أمتنا؛ فإن عدونا غادر ماكر يكيد لنا في كل لحظة، ولنتمسك بهدى القرآن والسنة فهما حصن لنا من كل مكروه وسوء.

٨٦ - تميل حينًا وتستقيم أحيانًا

جاء رجل إلى الحسن البصرى، فقال : يا أبا سعيد، ما تقول فى رجل يذنب ثم يتوب ؟

قال الحسن : لم يزدد بتوبته من الله إلا قربًا.

قال الرجل : ثم عاد فى ذنبه ، ثم تاب.

قال الحسن : لم يزدد بتوبته إلا شرفًا عند الله تعالى فإن مثل المؤمن مثل السنبلة تميل حينًا وتستقيم أحيانًا، ثم قرأ قول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف/ ٢٠١].

(*) الإحياء (٣/ ١١٧).

هذا الموقف يوضح لنا جانبًا من جوانب كرم الله الغفور الرحيم، حيث تتجدد توبة الله على عباده، فالرجل الذى أذنب ثم تاب، ثم عاد إلى الذنب ثم تاب - أخبر الحسن البصرى بأن توبته المتكررة تزيده من الله قربًا وشرفًا، وهذا شأن المبتدئ فى الطاعة حديث العهد بالتوبة، فقد تغلبه نفسه فيعود فى لحظة غفلة إلى الذنب، ثم لا يلبث أن يتنبّه ويستيقظ فيندم ويتوب، وهكذا حتى تتحوّل نفسه من النفس اللوامة إلى النفس المطمئنة، التى تطمئن للخير وتستقر عليه وتنقطع عن الشر ولا تميل إليه. وهذه الفترة - فى رحلة المجاهدة من المؤمن - والتى يُغالب فيها شهواته وأهواءه ونزواته - هى أشبه بفترة التدريب والمحاولة الجادة، وفيها يقول النبى ﷺ : «ما أصرَّ من استغفر، وإن عاد فى اليوم سبعين مرة»(١) . أى: لا يُعَدُّ من المصرين المقيمين على المعصية ما دام يستغفر الله، وإن كثرت ذنوبه.

وينبغى أن نميِّز بين الرجوع للذنب فى غفلة، وبين الاستهتار والاستخفاف بفعل المعاصى، فالمستغفر العاصى المقيم على المعصية بإصراره عليها، يحذره النبى ﷺ بقوله : «التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والتائب من الذنب وهو معاود إليه كالمستهزئ بربه»(٢) .

كما يعلمنا الموقف أن المؤمن يسارع إلى التوبة إذا حدث منه ذنب، وحسبُنا ترغيبًا فى المسارعة بالتوبة قول النبى ﷺ : «إذا تاب العبد أنسى الله الحَفَظَة ذنوبَه، وأنسى ذلك جوارحه ومعالمه من الأرض، حتى يلقى الله عز وجلَّ وليس عليه شاهد بذنب»(٣) .

ولقد وعد الله التائبين إذا صدقوا فى توبتهم أن يغفر لهم ذنوبهم، وأن يبدل سيئاتهم حسنات. قال تعالى : **﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾** [الفرقان/ ٧٠] .

---

(١) رواه أبو داود فى «الدعاء» (٤٠)، والترمذى (رقم ٣٥٥٩)
(٢) أخرجه ابن ماجه (رقم ٤٢٥٠) . (٣) راجع الترغيب والترهيب (٤/ ٩٤) .

وترغيباً في التوبة والمغفرة جعل الإسلام لكل مسلم ثلاثة أنهار يتطهر فيها من الذنوب والآثام النهر الأول : هو نهر التوبة، يقول ﷺ : «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»، والنهر الثاني : هو نهر الحسنات، يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود/١١٤].

والنهر الثالث : هو نهر الابتلاءات التي تحط الذنوب والخطايا، يقول ﷺ : «لا يزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة، في جسده وفي ماله وفي ولده حتى يتركه وما عليه خطيئة»[١].

---

(١) أخرجه أحمد (٢١/٢٨٧، ٤٥٠).

٨٧ - بم تقضى ؟

لما بعث رسول الله ﷺ معاذ بن جبل ﷺ قاضيًا إلى اليمن، سأله ﷺ : «بم تقضى يا معاذ ؟».

قال معاذ : بما فى كتاب الله.

قال : «فإن لم تجد ؟».

قال معاذ : بما فى سنة رسول الله ﷺ.

قال : «فإن لم تجد ؟».

قال معاذ : أجتهد رأيى.

فقال النبى ﷺ : «الحمد لله الذى وفّق رسولَ رسولِ الله لما يحب الله ورسوله».

(*) أخرجه ابن أبى شيبة (٧ / ٢٤٠).

هذا الموقف يحمل فقهًا هاديًا للأمة، حيث يوضح لنا مرجعية المؤمن في شئون حياته، وأنها تعود إلى هدى القرآن الكريم، ثم إلى السنة النبوية المطهرة، ثم اجتهاد أهل الذكر والعلم. ولقد قدَّم سيدنا معاذ ﷺ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ على الاجتهاد بالرأي؛ ليُرسي بهذا قاعدة فقهية هي أنه «لا اجتهاد مع النص القرآني أو نص السنة المطهرة».

وليس للمؤمن أن يعدل عن هدى الله وسنة الرسول ﷺ ولا أن يقدم رأيه واجتهاده على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، قال الله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب / ٣٦].

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [الحجرات / ١].

ودلالة أخرى في هذا الموقف، وهي الاجتهاد فيما لم يرد فيه نص، وباب الاجتهاد فيه تيسير على الأمة لاستيعاب كل جديد من أمور الحياة، وللمجتهد إذا أصاب أجران، وإذا أخطأ أجر واحد.

وهذا الموقف بهذه المحاور الثلاثة يضع منهجًا إسلاميًا للقضاء والقُضاة في الأمة الإسلامية، يحقق لها أمنها ويقيم العدالة بين أفرادها، ويتحقق به استقرار الحياة وأمنها. وهذا شأن من استجاب لهدى القرآن والسنة، قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال / ٢٤].

٨٨ - أتدعوني إلى الخطأ ؟!

سأل رجل الحسن البصري :

يا أبا سعيد ، ما تقول في رجل مات وترك أبيه وأخيه؟

فقال الحسن : ترك أباه وأخاه.

فقال له : فما لأباه وأخاه ؟

فقال له الحسن : إنما هو : فما لأبيه وأخيه ؟

قال الرجل : يا أبا سعيد، ما أشدَّ خلافك عليَّ

فقال له الحسن البصري : بل أنت أشد خلافًا عليّ، أدعوك إلى الصواب وتدعوني إلى الخطأ !

(*) السمير المهذب (٣ / ٢٢).

هذا الموقف يبين لنا حرص السلف - رحمهم الله - على اللغة العربية، وتجنب الخطأ في قواعدها : نحوها وصرفها وأصواتها ومعانيها؛ إذ هي لغة القرآن، والحرص عليها حرص على الوسيلة التي نفهم من خلالها كتاب الله، ونقف على أسراره وهداياته المباركة.

لذلك لم يقبل الحسن البصري ﷺ سؤال السائل على ما فيه من خطأ حين قال الرجل : «ما تقول في رجل مات وترك أبيه وأخيه؟» والصواب: وترك أباه وأخاه؛ لأنهما من الأسماء الخمسة، وهما هنا في موقع المفعول به فيستحقان النصب بالألف. ولذلك صحّح له الحسن البصري خطأه. ولمّا أخطأ الرجل في السؤال الثاني، وقال: فما لأباه وأخاه؟ والصواب: فما لأبيه وأخيه، حيث إن الكلمتين مسبوقتان باللام فتستحقان الجر بالياء. وقد صحّح له الإمام خطأه ثانية وأرشده إلى الصواب.

وهكذا كانت اللغة العربية حية على لسان أسلافنا، وكان الوقوع في الخطأ شيئًا لا يقبل ؛ لذلك لانت لهم اللغة وطاوعتهم، فاللغة ممارسة واستعمال.

ولعل هذا يدفع همتنا للعناية باللغة العربية، لتعود حية على الألسنة وترقى إلى مستواها الفصيح، وتأخذ مكانها في حياتنا بديلاً عن ركاكة العامية التي تعدُّ عدوانًا على الفصحى.

وما أود أن أشير إليه هنا هو لفت الانتباه إلى حقيقة مهمة تتضح من خلال السؤال التالي :

لماذا نحن مَهَرة في الحديث بالعامية، في حين أن الفصحى عصية علينا، رغم أن لها قواعد تدرس بالمدارس والجامعات ولها نصوص مضبوطة ؟

إننا مهرة في العامية لأننا نستعملها ونمارسها، بينما استعصت علينا الفصحى بسبب هجرنا لها في محافل الدرس والمحاضرات والحوارات... إلخ.

وأود أن أشير – هنا أيضاً – إلى أن استقامة اللسان العربي مرهونة بالقرآن الكريم، بما له من حلاوة لا تنقضي وفصاحة بسيطة تخاطب كل العقول.

٨٩ - أهديت إليَّ حسناتك

قيل للحسن البصرى : إن فلانًا اغتابك .

فبعث إليه طبق حلوى ، وقال :

بلغنى أنك أهديت إليَّ حسناتِكَ فكافأتُك .

(*) السير المهذب (٣ / ١٢١) .

هذا الموقف من الحسن البصرى - رحمه الله - أسوة وقدوة فى الخلق الحسن الذى يسمو بصاحبه إلى قمة إيمانية هى أن تحسن إلى من أساء إليك.

فهذا رجلٌ قد اغتاب الحسن حيث ذكره بسوء فى غيبته، فلمّا علم بذلك عامل المغتاب بمنطق الإيمان، وقابل السيئة بالحسنة، فجهّز طبقًا من الحلوى وبعث به إلى المغتاب، وقال له: «بلغنى أنك أهديت إلىّ حسناتك فكافأتك».

وهذا شأن الصالحين الذين تأدّبوا بأدب القرآن والسنة. قال الله تعالى فى هذا المنهج الإيمانى: **﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾** [فصلت/٣٤].

ويعلمنا الموقف أيضًا ألا نجارى الآخرين فى معصية أو فى سوء، كما ينبغى ألا يخرجنا سفه السفهاء عن أدب الإيمان وحسن الخلق، وكما أخبرنا الحبيب النبى ﷺ: «ليس المؤمن بالطعّان ولا اللّعان ولا الفاحش البذىء»(١).

ومن دلالات الموقف أيضًا ما فيه من تربية للمسىء، حيث نبّه الحسن البصرى المغتاب إلى خسارته بارتكاب معصية الغيبة، وأن المغتاب - بهذه المعصية - قد خسر جزءاً من حسناته، وفى هذا تعليم وتربية بأسلوب حكيم وموعظة نافعة.

وقريبٌ من هذا الموقف ما حدث مع رجل صالح أبلغه آخرٌ بأن إنسانًا شتمه وسبّه، فقال له: بلّغ صاحبى أن الموت يعمّنا، وأن القبر يضمنا، وأن القيامة تجمعنا، والله يحكم بيننا وهو أحكم الحاكمين.

---

(١) رواه الترمذى، وقال: حديث حسن.

٩٠ - أفلح إن صدق

جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ يسأله عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ : «خمس صلوات في اليوم والليلة».

فقال: هل عليَّ غيرها ؟ قال : «لا ، إلا أن تَطَوَّع».

قال رسول الله ﷺ : «وصيام رمضان».

قال : هل عليَّ غيره ؟

قال : «لا، إلا أن تطوع».

وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة. قال: هل عليَّ غيرها؟

قال : «لا، إلا أن تطوع» فأدبر الرجل وهو يقول : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص.

قال رسول الله ﷺ : «أفلح إن صدق».

(*) النسائي (١ / ٢٢٨، ٨ / ١١٩)، والحافظ في الفتح (١ / ١٠٦).

هذا الموقف يعرض للمنهج الإسلامي الذي يقوم على التيسير ورفع الحرج، وعدم التكليف بما لا يُستطاع.

فالإسلام درجات متفاوتة، وقد أوضح النبي ﷺ للسائل الحد الأدنى للتكاليف بعد الإيمان، وهو أداء الفرائض المفروضة على كل مسلم ومسلمة، وأعلى منه التطوع بالنوافل، ثم المزيد من البر والإحسان، ومنازل شتى لأهل العمل وأصحاب العزائم والهمم يتنافسون ويتسابقون في إدراكها وتحصيل خيرها.

لكن النبي ﷺ - وهو المعلم الهادي - أرشد سائله إلى الحد الأدنى، تيسيراً على أمته، وأكد هذا في مواقف أخرى فعن أبي ثعلبة الخشني قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحرَّم حرمات فلا تنتهكوها، وحدَّ حدوداً فلا تعتدوها، وسكت عن أشياء من غير نسيان فلا تسألوا عنها»[1].

وقال عبيد بن عمير: إن الله أحلَّ وحرَّم، فما أحلَّ فاحلُّوه، وما حرَّم فاجتنبوه، وترك بين ذلك أشياء لم يحلِّلها ولم يحرمها، فذلك عفو من الله، ثم تلا قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة/ ١٠١].

ويفهم من هذا الموقف أن المؤمن إذا أدى ما عليه من فرائض ولم يزد عليها كان من المفلحين؛ لأنه أتى بما فرض عليه. ولا يفهم من هذا الحديث - بطبيعة الحال - أن من يزيد على الفرائض ليس مفلحًا، فبديهي أن من يفعل الواجب والمندوب معًا أفضل ممن يفعل الواجب فقط.

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ١٢٢)، وذكره الحافظ في الفتح (١٣/ ٢٦٦).

كما يستفاد من هذا الموقف ضرورة تبشير الناس والابتعاد عن التنفير، كما أمرنا النبي ﷺ فيما رواه الشيخان : « يسروا ولا تعسّروا، وبشّروا ولا تُنفّروا »[1] .

---

(١) سبق تخريجه .

٩١ - خبأنا لك هذا

قَسَّم النبى ﷺ أثوابًا، ولم يرسل إلى مَخْرَمَة منها، وكان رجلاً أعمى مشاحنًا فقال لولده: خذ بيدى إلى النبى ﷺ.

فلما طرق عليه بابه خرج النبى ﷺ، وعلى يده ثوب منها.

فقال ﷺ : «خبأنا لك هذا يا مخرمة».

فلما أخذه قال النبى ﷺ : «رَضِى مَخْرَمَة».

(*) البخارى فى مواضع منها: (٣/٢٠٩، ٢٢٦ - ٤/١٠٦ - ٧/١٨٦ - ٨/٣٨)، ومسلم فى الزكاة (١٢٩، ١٣٠).

هذا الموقف يُعلمنا فقهًا من فقه الدعوة إلى الله عز وجل، ويوضح لنا أسلوبًا حكيمًا لاستمالة القلوب، فقد طبع الله النفوس على حب من يتألفها ويستميلها، وجعلها تنفر ممن يهاجمها ويعيبها.

ولعلّ مما يوضح ذلك ما جاء من أمر الله تعالى للنبيين الكريمين موسى وهارون - عليهما السلام - بالرفق واللين مع واحد من جبابرة خلقه هو فرعون، قال لهما الله عز وجل :

﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه/ ٤٣، ٤٤].

وهو أمر مشترك عام في أساليب خطاب الأنبياء والرسل لأقوامهم برفق ولين، وما قولهم : « يا قوم » ، وقول إبراهيم - عليه السلام - لأبيه : « يا أبتِ »، وقول نوح - عليه السلام - لابنه : « يا بُنَيَّ » - إلا نماذج واضحة تنطق بالرفق والحب والاستئلاف. وبمثل هذه الدعوات الكريمة يقترب البعيد ويعود الشارد. وتتفتح القلوب والأسماع لدعوة الله.

ومن ذلك قول النبي الكريم ﷺ لأبي سفيان يتألفه وكان حديث عهدٍ بالإيمان : « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن »(١).

إنّ هذه الدعوات الرقيقة تستميل القلوب إلى وجه الحق وتردهم ردًا جميلاً، بخلاف ما يفعله المتشددون ناسين قول النبي ﷺ : « يسّروا ولا تُعسّروا، وبشروا ولا تنفّروا »(٢).

ولقد كان هذا منهج النبي ﷺ في دعوته إلى الإسلام، يبين من مبادئه ما

---

(١) أخرجه مسلم في الجهاد (ب/ ٣١ - ٨٤ ، ٨٦).
(٢) سبق تخريجه.

يكون أقرب إلى النفوس وأدنى إلى عاداتها، والإسلام غني بالمبادئ التي تألفها القلوب وتحبها؛ لأنه دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، فإذا آنس الداعي ممن يدعوهم ألفةً ورغبة في التعرف على حقائق الدين وأسراره فصّل لهم ذلك، اقتداءً بهديه ﷺ في التَّحبُّب إلى الناس وتبشيرهم، والابتعاد عن التعسير والتشدد والتنفير.

٩٢ - الوثيقة العمرية فى فتح بيت المقدس

اتجه الفتح الإسلامى لبلاد الشام فى سنة ١٥ هـ بعد وفاة الرسول ﷺ بخمسة أعوام، وفتح مدينة القدس وتخليصها من ظلم الرومان وقد تفاوض أهلها مع الفاتحين المسلمين بأن تكون المدينة تحت حمايتهم وإمرتهم، واشترط حاكمها أن يتسلم المدينة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب نفسه، فأرسل أبو عبيدة بن الجراح بالوثيقة التى اتفق عليها معهم، وكانت الوثيقة العمرية نموذجًا للمعاهدات السياسية فى ظل حضارة الإسلام وتسامح المسلمين، فرحب عمر وسافر إلى بيت المقدس.

(*) راجع أسد الغابة (٣/ ٤٠٢).

هذا موقف إسلامي خالد يظهر من خلاله فضل حضارة الإسلام، وما تتميز به من احترام الآخر، احترام إنسانيته، لا تسامح الضعيف المغلوب على أمره.

كما يدل هذا الموقف العمري على التزام المسلمين بعهودهم وعلى أن قوة الفاتحين المسلمين كانت لأهداف إنسانية سامية تُخلِّص الشعوب من المستغلين لثرواتها والمحتلين لأرضها، كما أنها كانت تحارب الذين يصدون الدعوة الإسلامية ويقفون في وجهها حماية لمصالحهم الظالمة في استعباد الشعوب.

ولم تكن قوة الحضارة الإسلامية قطُّ أداة لقهر أحد أو جبره على الدخول في الإسلام، بل تركت الدخول في الإسلام طواعية لمن يرغب في ذلك، امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿ **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾ [البقرة/٢٥٦].

والمتدبر لما جاء بهذه الوثيقة يتأكد له أن المسلمين حين ملكوا أحسنوا ولم يسيئوا ولم يدمروا ولم يظلموا، في حين أن غيرهم - كما يصنع اليهود الآن - ملكوا فأساءوا ودمروا.

ومن نص الوثيقة العمرية:

هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وسائر ملتها، ولا يكرهون على دينهم، ولا يُضام أحد منهم.

ولما شاء الله تعالى رد الحملة الصليبية وأعاد صلاح الدين الأيوبي القدس إلى الإسلام إلى أمانها وكرامتها، وكانت لديه الدوافع القوية للانتقام بسبب بشاعة ما ارتكبه الصليبيون من جرائم لا تليق بإنسانية الإنسان، إلا أن صلاح الدين لم يحاول أن يتشفى، بل حرَّر القدس وأعادها للإسلام دون أن

يقتل أو أن يعتدى على طفل أو شيخ أو عجوز، ولاقى أهل القدس من لطف وتسامح صلاح الدين فوق ما انتظروه، وكل ذلك مرده ومرجعه إلى رسول الله ﷺ حين فتح مكة وأقبل أهل مكة في خوف من أن يبطش بهم، فقال لهم بلطفه وسماحته ﷺ : «ماذا تظنون أني فاعل بكم؟». قالوا : أخٌ كريم وابن أخ كريم.

فقال ﷺ لهم : «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[1].

---

(١) البيهقي (٩/١١٨).

٩٣ - أبو اليسر

كان لأبى اليسر كعب بن عمرو دَيْن على رجل، فأتاه يتقاضاه من أهله، فخرجت إليه جارية الرجل تقول : ليس مولاى ها هنا، وكان مولاها بالداخل، وسمع أبو اليسر صوته فناداه : اخرج؛ فقد سمعتُ صوتك. فخرج الرجل كاسف البال يتألم من عذاب التخجيل والخجل.

فسأله أبو اليسر : ما الذى حملك على ما صنعت ؟

فقال الرجل : العُسرة.

فلَطَّف أبو اليسر للرجل القول، وقال له : اذهب فلك ما عليك.

(*) راجع : أسد الغابة (٥ / ٣٣٣).

هذا الموقف الإيماني يفيض بالدلالات الهادية، وقبل الشروع في بيان دلالات الموقف، أود أن نتعرف على صاحب هذا الموقف النبيل: إنه أبو اليسر، كعب بن عمرو: من بني كعب بن سلمة، وهو صحابي أنصاري خزرجي، كان بدريًا من أهل بدر الذين رضي الله عنهم، ونصرهم وهم أذلة، وأيدهم بالملائكة، وهو ممن شهد بيعة العقبة الأخيرة، وكانت حياته سلسلة من الجهاد المتواصل والعطاء السخي لدعوة الله تعالى.

ومن بين مواقفه الإيمانية هذا الموقف، الذي يحمل لنا دلالات هادية، ويقدم لنا دروسًا تربوية هادفة.

أولها : أبو اليسر رجل يهتدي بسنة النبي ﷺ في إقراض أصحاب الحاجات، فثواب القرض يعلو ثواب الصدقة، وفي الحديث النبوي الشريف: «مكتوب على باب الجنة: العطية بعشر أمثالها، والقرض بثمانية عشر»[١].

أبو اليسر رجل يتابع الحقوق المالية التي تخصه، وهذا فهم إيماني صائب، للمحافظة على الحقوق من الضياع بسبب الإهمال وعدم المتابعة، فالحرص على الحق والمطالبة به أمر إيماني لا غبار عليه، بل أمرنا به، من ذلك قول النبي ﷺ: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز»[٢].

ثانيها : غير أن متابعة الحقوق والحرص على استردادها يُصاحبه روح الإيمان الودودة العطوفة التي تراعي ظروف الناس وأحوالهم في الشدائد، وفي هذا استجابة لهدى قرآني كريم أمرنا الله به في قوله تعالى :

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

---

(١) أخرجه الربيع بن حبيب في مسنده (١ / ٧٢).
(٢) أخرجه ابن ماجه (رقم ٧٩).

فالتيسير في التقاضي عمل صالح يُضاف ثوابه إلى ثواب القرض الحسن، وفي الحديث الشريف : «من انظر معسراً او وضع له كان في ظل الله يوم القيامة»(١).

ثالثها : التثبت من أحوال الناس ومعرفة الأسباب والدوافع التي تمنعهم من السداد والوفاء ومحاولة العلاج؛ لذلك سأل أبو اليسر الرجل : ما الذي حملك على ما صنعت؟ فلما أجاب الرجل بأن السبب العسرة وضيق الحال، عفا أبو اليسر عنه، وأسقط الدَّيْن الذي على الرجل.

والتثبت من أحوال السائل - إذا كان ذلك في الاستطاعة، وبصورة كريمة لا تنال من كرامته - تجعل الصدقة تصل إلى مستحقيها، بدلاً من وصولها إلى أهل الحيلة والمكر، فالمؤمن كيِّس فطِن.

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد (٧٤).

٩٤ - بهذا آخيتك

ركب عقبة بن عامر إلى مسلمة بن مُخَلَّد، فقال له : أتذكر يوم قال رسول الله ﷺ :

«من علم عن أخيه سيئة فسترها، ستره الله بها من النار يوم القيامة ؟».

قال : نعم.

قال : فلهذا آخيتك.

(*) أخرجه أحمد في المسند (٤ / ١٠٤)، وراجع المجمع (١ / ١٣٤).

هذا موقف تربوى هادف، يظهر من خلاله عظيم خلق الصحابة وعظيم أدبهم، كيف لا وقد كانت أخلاقهم من أخلاق حبيبهم ونبيهم وقدوتهم رسول الله ﷺ ؟!.

كانوا – رضى الله عنهم – ينصحون ولا يفضحون، يصلحون ولا يعيبون، تاسيًا بهدى حبيبهم المصطفى ﷺ : «المؤمن مرآة المؤمن إذا رأى فيه عيبًا أصلحه»[١].

وكان بين الصحابيين الكريمين عقبة بن عامر ومسلمة بن مخلد تناصح وإصلاح فى ستر من الناس.

وما أطيب قول الإمام الشافعى فى هذا المعنى؛ قال :

تَعَهَّدْنى النصيحةَ فى انفرادِ ... وجنِّبنى النصيحةَ فى الجماعةْ

فإنَّ النُّصْحَ بينَ الناسِ نوعٌ ... من التوبيخ لا أرضى استماعَهْ

ونتعلم من هذا الموقف أن التناصح بين الإخوان يكون بالموعظة الحسنة التى تدخل القلوب برفق، وتتعمق المشاعر بلطف، دون زجر أو تأنيب، ودون فضح للأخطاء التى قد تقع عن جهل أو حسن نية، فإن الرفق فى الموعظة كثيرًا ما يهدى القلوب الشاردة، ويؤلف القلوب النافرة.

ويكون التناصح أيضًا بالجدال بالتى هى أحسن، بلا تحامل على المخالف، ولا ترذيل وتقبيح، حتى يطمئن المنصوح إلى الناصح، بأن الهدف هو النصيحة وليس التشفى أو العلو والغلبة؛ لأن النفس الإنسانية قد يصيبها العناد والكبرياء، فتدافع عن الباطل كى لا تشعر بالهزيمة، وربما تختلط الأمور عند بعض الناس، فيعتبر النزول عن الرأى تنازلاً عن قيمته وكرامته الشخصية.

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٤٩١٨).

ومن هنا أمرنا الإسلام بأن نراعي الآخر حين يكون منا دعوة أو تناصح أو إصلاح، وإلى هذه المعاني والقيم يشير قول الله تعالى :

﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل/١٢٥].

٩٥ - رضيناه حكمًا

جَدَّدت قريش بناء الكعبة، وأرادت إعادة الحجر الأسود إلى مكانه، فاختلفت القبائل فيمن يكون له شرف حمل الحجر الأسود ووضعه في مكانه بالكعبة، ثم اتفقوا على أن يُحَكِّموا أول داخل عليهم من باب شيبة، فكان أول داخل هو سيدنا محمد ﷺ، فقالوا:

هذا هو الأمين، رضيناه حكمًا. فبسط النبي ﷺ رداءه ووضع فيه الحجر، ثم قال:

«لتأخذ كل قبيلة بطرف من الثوب». فرفعوه جميعًا حتى انتهوا إلى موضعه، فأخذه رسول الله ﷺ ووضعه مكانه.

(*) السيرة النبوية (١/١٢٧).

هذا الموقف يحمل دلالات هادية منها:

أولاً: فطنة النبي ﷺ لروح القبلية من التعالي والتفاخر التي تسود بين أهل مكة، وكم كانت هذه القبلية سببًا للتنازع والتناحر والتقاتل !! على نحو ما ظهر في الموقف عن اختلاف القبائل فيمن يكون له شرف حمل الحجر ووضعه في مكانه بالكعبة ليكون له الذكر والثناء بين القبائل يتباهى ويتعالى ويفتخر بذلك، وقد وصل بهم الخلاف إلى درجة كاد معها أن ينشب القتال بينهم، فقد قربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دمًا ثم تعاقدوا مع بني عدى على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم، ومكثت قريش على ذلك أربع ليالٍ أو خمسًا، دون أن يردها إلى الوفاق أي رأي أو تدبير، حتى كان خمود الفتنة على يد رسول الله ﷺ. وما من شك في أن هذه الروح هي روح الجاهلية وأخلاقها، وقد عالجها الإسلام وعلمهم التواضع والتسامح والإيثار والتخلّي عن التنازع والأهواء المضلة.

ثانيًا: حكمة النبي ﷺ في معالجة الموقف وفض التنازع بينهم، حيث قام حكم رسول الله ﷺ على العدل، وإقامة العدل بين الشركاء، وهذه أسرع السبل لتحقيق الرضا والأمن، في حين أن اختلال ميزان العدالة هو الذي يجلب المصائب ويتولد عنه الشحناء والحقد والرغبة في التشفي والانتقام، ولذلك نرى في الموقف أن رسول الله ﷺ حقق العدالة بين القبائل المتشاحنة حيث بسط رداءه ووضع الحجر فيه، وأتاح لهم جميعًا المشاركة في حمل الحجر.

ثالثًا: موقف قبائل قريش من رسول الله ﷺ حين دخل عليهم من باب المسجد، إذ قالوا: إنه الأمين، رضينا به حكمًا. فهذا القول منهم يشير إلى ما كانت عليه حياة المصطفى سيدنا محمد ﷺ قبل النبوة. فقد كان ﷺ صاحب فكر صائب ونظر سديد، لأن الله قد حباه بحظ وافر من الفطنة والذكاء والحكمة والسداد، ولأنه ﷺ لم يتأثر بأخلاق الجاهلية في شيء؛ فقد أحاطه

الله تعالى بحفظه وعنايته، وكان النبى ﷺ يتمتع فى قومه بأخلاق فاضلة وشمائل كريمة، فكان أحسنهم خلقًا وأصدقهم حديثًا وأعفهم نفسًا وأكرمهم خيرًا وأوفاهم عهدًا وآمنهم أمانة؛ لذلك سماه قومه بـ «الأمين» لما رأوا فيه من الأحوال الصالحة والخصال المرضية.

والخلاصة : أن هذا الموقف المحمدى درس قيم فى فقه تدبير الأمور وسياسة القضايا وقطع دابر الخصومات، وأن الأساس فى تكوين شخصية سيدنا محمد ﷺ أنه نبى ورسول يرعاه ربه ويتولاه بالحفظ والعناية. كما يعبر الموقف عن مدى سمو منزلته ﷺ بين رجال قريش على اختلاف درجاتهم وطبقاتهم.

٩٦ - إن كان قال فقد صدق

لما أخبر النبي ﷺ الناس بأمر الإسراء والمعراج في صبيحة اليوم التالي لهذه الرحلة المباركة، أسرع بعض المشركين إلى أبي بكر ﷺ يخبرونه بما قاله النبي ﷺ من أمر الإسراء والمعراج رجاء أن يستعظمه فلا يصدقه.

فقال أبو بكر :

إن كان قال ذلك لقد صدق، إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك.

(*) أسد الغابة (٥/ ٣٧).

فى هذا الموقف الإيمانى لسيدنا أبى بكر الصديق ﷺ دلالات هادية منها :

الأولى : أدب التلقى عن الله وعن رسول الله ﷺ ، فحين يُسند الفعل لله، فينبغى أن يكون التسليم والتفويض والسمع والطاعة، فإن الله على كل شيء قدير، وفعل الحكيم كله حكمة؛ لذلك نرى سيدنا أبا بكر ﷺ فى هذا الموقف يعلمنا درسًا فى حسن التلقى عن رسول الله ﷺ ، فقد أعلن تصديقه للنبى ﷺ فى أمر الإسراء والمعراج، وكان ﷺ كلما أخبر النبى وأجاب عن أسئلة المشركين حين سألوه أن يصف لهم المسجد، قال أبو بكر : صدقت صدقت، فسمى الصِّدِّيق.

وهذا شأن أهل الإيمان يتلقون أوامر الله بالامتثال والطاعة، ولا يجدون فى نفوسهم غضاضة من أمر الله تعالى، بل إنهم يستشعرون حلاوة الإيمان فى قلوبهم بالامتثال لأمر الله تعالى، والقرآن الكريم يوضح لنا أن المؤمن ليس له أمام أمر الله تعالى إلا التسليم والامتثال، قال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب/٣٦].

ويستفاد من هذا أن التسليم لحكم الرسول ﷺ الذى قضى الله به من أساسيات الإيمان، وأن أوامر الله لا تُناقش وليست مواطن للمجادلة ولا مواضع للمناقشة.

الثانية : الثبات على الحق وعدم التأثر أمام الضغوط والحيل والمكر، فالمؤمن يقظ حذر، ثابت على الحق، لا تنهار قيمه ولا مبادئه؛ لينال نصيبًا وافرًا من تأييد الله له، وإلى ذلك يشير قوله تعالى : **﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾** [إبراهيم/٢٧].

الثالثة : درس للدعاة والمصلحين، بأن طريق الدعوة والإصلاح أمامه عقبات من أهل الباطل والشرك، وهذه سنة الله في خلقه، فليصبر الدعاة كما صبر أولو العزم من الرسل، وليستعينوا بالله تعالى، ليمدهم كما أمد نبيه ﷺ من فيض عطائه وواسع فضله وتأييده، فيكون لدعوتهم الفلاح.

وفي الموقف نرى المشركين واليهود يثيرون ضجة واسعة على النبي ﷺ حين أخبرهم بأمر الإسراء والمعراج ويقودون حملات التشكيك في صدقها، ثم ذهبوا إلى أبعد من ذلك بالتحدي وسؤال النبي ﷺ أن يصف لهم معالم المسجد الأقصى، وهكذا الجولة بين الخير والشر قائمة إلى يوم القيامة ليخلص أهل الحق لحقهم فينالهم من تأييد الله ونصره.

٩٧ - فجلاَّه الله له

لما أصبح رسول الله ﷺ صبيحة الإسراء والمعراج، وأخبر قومه بما أراه الله عز وجل ، ركز المشركون أسئلتهم لرسول الله ﷺ عن بيت المقدس، فجلاه الله له، وجعل يخبرهم عنه، فلا يستطيعون أن يردوا من ذلك شيئًا.

(*) راجع : تفسير الطبري ، سورة الإسراء.

هذا موقف يفيض بالدلالات والأسرار، وبخاصة تلك الدلالات المتعلقة بمستقبل الأقصى مع الإسلام والمسلمين، لقد حاول اليهود والمشركون التشكيك في أمر الإسراء والمعراج، لكن العناية الإلهية كشفت للنبي ﷺ مرادهم، وأمدته العناية الربانية بمعالم بيت المقدس فأجابهم ﷺ عن كل سؤال.

وربما عجزت عقول المشركين عن فهم دلالة الإسراء بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى، وعن تسميته مسجداً ولم يكن ساعتها تحت سلطان المسلمين، وربما عجزت عقول المشركين عن إدراك دلالات صلاة النبي ﷺ بالأنبياء فيه إماماً. لكن المتأمل لسورة الإسراء والمتدبر في سياق آيات هذه السورة يرى إجابات شافية وتفسيرات واضحة لهذه التساؤلات وتلك الأمور، لقد ذكر الله تعالى قصة الإسراء في آية واحدة فقط في صدر سورة الإسراء، ثم أخذ في ذكر فضائح اليهود وجرائمهم، ثم نبههم إلى أن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم.

والله تعالى يشير بهذا الأسلوب وهذا التعاقب إلى أن الإسراء إنما وقع إلى بيت المقدس؛ لأن اليهود سيعزلون عن منصب قيادة الإنسانية بسبب ما ارتكبوه من جرائم، وأن الله سينقل هذا المنصب فعلاً إلى رسول الله ﷺ، فقد آن الأوان لانتقال القيادة إلى أمة وصفها الله بقوله : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران/ ١١٠]، أمة تتدفق بالخير والبر والحق والعدل والرحمة، بعد أن ملأ اليهود التاريخ بالغدر والخيانة والإثم والعدوان والطغيان والفساد، ولكن كيف تنتقل هذه القيادة والرسول ﷺ يطوف جبال مكة مطروداً من قومه ؟ والله تعالى يجيبنا من خلال القرآن فقد أنزل ساعتها قرآناً يحمل الإنذار والوعيد بزوال طغيان المشركين، من ذلك قوله تعالى :

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾ الإسراء/١٦] .

وبجانب هذه الآيات آيات أخرى تبين للمسلمين القواعد والمبادئ التى تقوم عليها حضارة الإسلام، وفى هذا إشارة إلى بزوغ حضارة الخير والبر حضارة الإسلام.

كما يظهر من الموقف أن إسلامية المسجد الأقصى حقيقة قرآنية، وقد بشر النبى ﷺ بأن العاقبة للمسلمين فى المواجهة المرتقبة بين المسلمين واليهود، وأن الجمادات والأشياء سوف تتعاطف مع المسلم وتخبر عن مكان اليهودى ؛ ليتمكن منه المسلم فيقتله .

٩٨ - ذهب المفطرون بالأجر

كنا مع رسول الله ﷺ في السفر ، فمنا الصائم ومنا المفطر . فنزلنا منزلاً في يوم حارّ، أكثرنا ظلاً صاحب الكساء . ومنا من يتقي الشمس بيده، فسقط الصُّوَّام، وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقوا الركاب .

فقال رسول الله ﷺ : «ذهب المفطرون بالأجر» .

(*) أخرجه البخاري (٤ / ٤٢)، ومسلم في الصيام (ب / ١٦ رقم ١٠٠، ١٠١) .

هذا الموقف يعلمنا درسًا قيمًا في فقه العبادة، وأن أمر العبادة ليس مقصوراً على العبادات المفروضة من الصلاة والصيام والزكاة والحج، بل يمتد معنى العبادة ليشمل كل فعل صالح من الأعمال النافعة التي تعود بالخير على الإنسان ومجتمعه، قال الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [الحج/٧٧].

وفي الموقف الذي بين أيدينا قام المفطرون بخدمة الصُّوَّام، وأنجزوا الأعمال المطلوبة في هذا الحين، فأعلن النبي ﷺ أنهم فازوا بالأجر، ومن هنا ندرك أن العامل في مصنعه، والفلاح في حقله، والمعلم في مدرسته، حين يصحح كل منهم النية في عمله بأن يكون ابتغاء مرضاة الله تعالى، فإن هذا العمل يكون عبادة.

ولقد رفع النبي ﷺ اليد المنتجة الكادحة العاملة النافعة أمام الصحابة، حين التقى بسيدنا سعد بن معاذ وكانت بيده خشونة من فلاحة الأرض وسقيها، فَقبَّل النبي ﷺ يده وقال : «هذه يد يحبها الله ورسوله». فالإسلام يعلي من قيمة العمل والعاملين.

ومن دلالات الموقف التربوية : مراعاة الفروق الفردية في قدرات أفراد المجموعة حين يتولي الإنسان قيادتهم والإشراف عليهم، فالصحابة الذين كانوا مع رسول الله ﷺ منهم من كان صائمًا، ومنهم من كان مفطرًا، دون أن يشق النبي ﷺ على أحد أو يلزمه بالصوم، ما دام الأمر في إطار النافلة، فكل إنسان يأخذ منها على قدر طاقته.

وحين اشتد الأمر ودعت الحاجة إلى بعض الأعمال، أسندت الأعمال لمن يقوى عليها ويستطيع إنجازها، وهذا من حكمة رسول الله ﷺ . وهنا درس في الإدارة من حضرته ﷺ يعلِّمنا كيف تُوزع الأدوار.

ومن دلالات الموقف التربوية أيضًا : إعلان النبي ﷺ أن المفطرين قد

ذهبوا بالأجر اليوم، وفي هذا تقدير منه ﷺ لما بذلوا من جهد، وأن الثواب ليس فقط لهؤلاء الصوّام العُبَّاد، بل للمكافحين العاملين ثواب وأجر عظيم.

والمكافأة والثواب من عوامل التشجيع ورفع معنويات العامل ودفعه إلى الاجتهاد في عمله.

٩٩ - هل أضعناك يا فتى ؟

كان للإمام أبى حنيفة النعمان جار يلهو ويغنى :

أضاعُونى وأىَّ فتًى أضاعوا

ليومِ كريهةٍ وسدادِ ثغْرِ

وكان الضيق يصيب أبا حنيفة بسبب إزعاج الفتى وضجيجه في وقت الليل. ورغم ذلك كان أبو حنيفة صابراً محتسباً.

وذات يوم وضع رجال الشرطة هذا الفتى المزعج فى الحبس، فلما علم أبو حنيفة بأمر حبسه، شفع له، ثم قال له هاديًا ومعلمًا : هل أضعناك يا فتى ؟

فقال الفتى : لا والله !

وانتهى الفتى عن لهوه وكفَّ عن إزعاجه.

(*) ذكره ابن حجر فى: الخيرات الحسان بمناقب الإمام أبى حنيفة النعمان، ص ٧٠.

هذا الموقف يعلمنا كيف نعالج الأمور حين تكون مشكلة بين من تجمعهم صلة أو علاقة من العلاقات الإنسانية، كعلاقة الجوار، وعلاقة أخوة الإيمان، وعلاقة العلم فالعلم بين أهله رحم، وعلاقة قرابة النسب . . . ونحو ذلك.

والموقف يتناول علاقة الجوار، تلك العلاقة التي اهتم بها الإسلام اهتمامًا بارزًا، فقد جاءت التوصية بحق الجار في سياق كريم يأمر فيه الله تعالى عباده بحقه وحق الوالدين والأقربين، قال الله تعالى :

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا ﴾ [النساء/٣٦].

والنبي ﷺ يعظم حق الجار، قال ﷺ : «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»(١) أي : سيجعل له نصيبًا من الميراث كالأقارب.

وما من شك في أن الإحسان إلى الجار ورعاية حقوقه وتحمل أذاه يؤدي إلى حصول المحبة والألفة والمودة بين أفراد المجتمع، ويصبح المجتمع أسرة كبيرة تواجه ظروف الحياة من يسر وعسر.

والنبي ﷺ جعل الإحسان إلى الجار علامة على خيرية الإنسان وأمارة على صلاحه، من ذلك قوله ﷺ : «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره»(٢).

وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال : يا رسول الله، إن فلانة تكثر من صلاتها وصيامها، غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها. فقال النبي ﷺ : «هي في

---

(١) أخرجه البخاري (٨/١٢)، مسلم البر والصلة ب٢٤ رقم ١٤٠، ١٤١.
(٢) أخرجه الترمذي (رقم ١٩٤٤)، وأحمد (٢/١٦٨).

النار»، فقالوا: يا رسول الله إن فلانة تصلي المكتوبات ولا تؤذي جيرانها»[١].

فقال النبي ﷺ: «هي في الجنة»[٢].

وهكذا يكون إيذاء الجار سببًا في دخول النار، والإحسان إلى الجار سببًا في دخول الجنة.

وفي الموقف فضيلة من فضائل الإحسان إلى الجار، وهي أن الجار إن عصى الله فيك فينبغي أن تطيع الله فيه، وهذا ما فعله أبو حنيفة مع الفتى اللاهي، وهذا منهج قرآني، قال الله عز وجل: ﴿**وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾ [فصلت/٣٤].

أيضًا: نتعلم من الموقف متى نسدي النصيحة، واصطفاء الموقف المؤثر لذلك، فالإمام أبو حنيفة ما كان يستطيع أن يعظ هذا اللاهي إلا بعد هذا الموقف.

---

(١) رواه أحمد ٢/٤٤٠. (٢) سبق تخريجه.

١٠٠ – طفل نابه

كان أبو يزيد البسطامي طفلاً نابهًا، أرسله أبوه إلى معلم يعلمه القرآن، فلما قرأ الطفل: أول سورة المزمل:
﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [المزمل/ ١، ٢].

فقال لوالده: لم لا تقوم الليل يا والدى استجابة لأمر الله تعالى؟ فقال والده: هذا خاص برسول الله ﷺ.

فلما وصل الطفل فى التلاوة إلى قوله تعالى من نفس السورة: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ﴾ [المزمل/ ٢٠].

فقال الطفل لوالده: يا والدى، لا خير فيمن لا يقتدى بالنبى ﷺ وصحبه والذين آمنوا معه.

(*) حلية الأولياء – ترجمة أبى اليزيد.

هذا الموقف يحمل دلالات هادية، ودروساً تربوية هادية.

أولها : اصطفاء النبهاء لرسالة القرآن والدعوة، كما صنع والد أبي يزيد البسطامي، حيث أرسله إلى معلم يعلمه القرآن.

ثانيها : إتاحة الفرصة لأبنائنا للحوار معنا والإعلان عن آرائهم وأفكارهم، فلا نحجر على آرائهم أو نصادر أفكارهم بحجة أنهم صغار، كما ينبغي أن نأخذ بحجتهم وبرأيهم إذا كان صواباً.

وهذا المعنى يظهر من الموقف حين سأل أبو اليزيد الطفل والده، لما قرأ قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ : لم لا تقوم الليل؟

وأجاب والده بأن ذلك خاص برسول الله ﷺ.

ولكن ما إن وصل الطفل أبو يزيد إلى قوله تعالى في السورة نفسها : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ﴾ [المزمل / ٢٠].

فقال الطفل لوالده : لا خير فيمن لا يقتدي بالنبي ﷺ وصحبه والذين آمنوا معه.

ثالثها : يؤكد الموقف أهمية قيام الليل، تلك السُّنَّة التي تنادي المسلمين، بعد أن هجرها غالب المسلمين إلا من أنعم الله عليهم بها.

ومن وصف القرآن لأهل الإيمان، قوله تعالى :

﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات / ١٧، ١٨].

﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً ﴾ [الفرقان / ٦٤].

وفى الحديث النبوى، عن عائشة – رضى الله عنها – قالت : «كان النبى ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقلت له : لم تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال ﷺ : «أفلا أكون عبداً شكوراً»[١].

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال : «يا أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصَلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»[٢].

وحسب من حافظ على قيام الليل أن يفوز بساعة إجابة الدعاء التى أخبر عنها النبى ﷺ بقوله : «إن فى الليل لساعة، لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله خيراً من أمر الدنيا والآخرة، إلا أعطاه إياه، وذلك كل ليلة»[٣].

---

(١) أخرجه البخارى (٢/٦٣، ٦/١٦٩، ٨/١٢٤)، ومسلم فى صفات المنافقين (٧٩، ٨٠، ٨١).
(٢) الترمذى (رقم ١٨٥٤)، وابن ماجه (رقم ١٣٣٤، ٣٢٥١، ٣٢٥٢).
(٣) سبق تخريجه.

١٠١ - التثبت من الأخبار

أرسل النبي ﷺ الوليد بن عقبة لجمع صدقات بني المصطلق، فلما سمع القوم خرجوا للقائه تعظيمًا لأمر الله ولرسوله، فهابهم، فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله، فرجع من الطريق إلى رسول الله ﷺ، وقال : إن بني المصطلق قد منعوا صدقاتهم وأرادوا قتلي.

فغضب النبي ﷺ وهمَّ أن يغزوهم، فأسرع وفد من القوم إلى رسول الله ﷺ وقصوا عليه الأمر، وبينوا أنهم تلقَّوْه الصدقة فرجع، وتعوذوا بالله من غضب الله ورسوله.

(*) راجع تفسير الطبري، وابن كثير (سورة الحجرات، آية / ٦).

هذا الموقف يحمل دلالات نبوية هادية :

الأولى : أهمية التثبت من الأخبار ومصادر المعلومات حتى لا نبني أحكامًا خاطئة على الأخبار غير الصحيحة أو المعلومات المضللة، وكثيرة هي الأخبار عبر وسائل الإعلام المختلفة وشبكات الإنترنت.

وعلى المسلم أن يكون حذرًا من الشائعات والأخبار الكاذبة، وعليه أن يتثبّت ويتأكد قبل أن يسهم بحسن نية في إشاعة الخبر الكاذب.

وهذا ما وجهنا القرآن الكريم إليه من خلال هذا الموقف، فحين رجع بنو المصطلق إلى رسول الله ﷺ ووضحوا له الأمر بأنهم تلقوا الوليد بن عقبة بالصدقة تعظيمًا لأمر الله ولرسوله، وتعوذوا بالله من غضب الله ورسوله. أنزل الله قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾ [الحجرات/٦].

الثانية : الأثر السيئ للأخبار الكاذبة، فنرى في الموقف أن الحرب كادت أن تقوم بين رسول الله ﷺ وهؤلاء القوم.

الثالثة : خطورة الانقياد وراء وسوسة الشيطان وحديث النفس.

ففي هذا الموقف نرى أن الوليد بن عقبة انقاد لوسوسة الشيطان، وبنى على الوسوسة والأوهام أحكامًا مضللة.

والمؤمن كيِّس فطن ينبغي أن تقوم أحكامه على الحقائق والأدلة الصحيحة وليس على حديث النفس أو وسوسة الشيطان، وليدفع المؤمن عن نفسه هذه الوسوسة بذكر الله تعالى، والاستعانة بالله من الشيطان الرجيم.

١٠٢ - يا ودود

كان أبو معلّق الأنصارى فى سفر فقطع عليه لص الطريق، يريد ماله وقتله، فقال أبو معلق له: خذ أموالى ولا تقتلنى، فأبى اللص، فقال أبو معلق له: دعنى أصلى. فتركه اللص يصلى. حتى إذا كان فى السجدة الأخيرة دعا ربه فى خشوع قائلاً:

يا ودود، يا ذا العرش المجيد، يا فعّال لما تُريد، أسألك بعزتك التى لا ترام، وملكك الذى لا يضام، وبنورك الذى ملأ أركان عرشك، أن تكفينى هذا اللص، يا مغيث أغثنى، يا مغيث أغثنى، وكرر الدعاء ثلاثًا فإذا بفارس يأتى من حيث لا يدرى يضرب اللص. وانصرف الأنصارى آمنًا.

---

(١) أسد الغابة (٥/ ٢٩٥).

هذا الموقف يوضح لنا حقيقة مهمة، وهي : فضل دعاء المضطر، فترى أن هذا الأنصاري يقع في هذا الاضطرار عندما خرج عليه لص فاجر لا يكتفي بسلب ماله فقط، بل يريد مع ذلك قتل الأنصاري.

ولما لم تنجح محاولة الأنصاري في إقناع اللص بأن يكتفي بالمال ويرجع عن نية القتل، طلب من اللص أن يمهله لصلاة ركعتين، وقام الأنصاري يصلي حتى إذا كان في الركعة الأخيرة دعا ربه دعاء المضطر في خشوع وخضوع : «يا ودود، يا ذا العرش المجيد، يا فعّال لما تريد، أسألك بعزتك التي لا ترام، وملكك الذي لا يُضام، وبنورك الذي ملأ أركان عرشك، أن تكفيني هذا اللص، يا مغيث أغثني يا مغيث أغثني» والله تعالى يقول في كتابه : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ [النمل/٦٢].

واستجاب الله للأنصاري ورزقه بفارس يدفع عنه هذا اللص ويقتله.

ما أحوج المؤمن إلى اللجوء إلى الله تعالى في أوقات الشدائد.

أيضًا يظهر من هذا الموقف أن صلاح الإنسان في أوقات الرخاء يعود عليه بالمعونة والتأييد في أوقات الشدة.

فمن تعرّف على الله في الرخاء تعرّف الله عليه في الشدة، ومن هنا كان صلاح الأنصاري وحرصه على مرضاة ربه في أوقات الرخاء ذخرًا له عند ربه.

١٠٣ - فأذن له النبى ﷺ

جاء رجل من بنى عامر إلى بيت النبى ﷺ ، فقال الرجل : ألِج ؟

فقال رسول الله ﷺ لخادمه :

اخرج وعلِّمه الاستئذان .

فقال له : قل :

السلام عليكم ، أأدخل ؟

فسمعه الرجل ، فقال :

السلام عليكم ، أأدخل ؟

فأذن له النبى ﷺ فدخل .

(*) أخرجه الطبرانى فى الكبير (١٩ / ١٨٧) ، وابن سعد فى الطبقات (٥ / ٣٣٨) .

هذا الموقف يعلمنا أدبًا من آداب التعامل، هو أدب الاستئذان، فالإسلام الحنيف يحترم ويراعي خصوصية الغير، ومن مظاهر مراعاة خصوصية الغير أن يستأذن الإنسان غيره في الدخول عليه في أماكنه الخاصة كمنزله أو مكتبه ونحو ذلك. وهذا هدي قرآني مبارك، قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا**﴾ [النور/٢٧].

وعبر القرآن عن الاستئذان بالاستئناس؛ لأنه يوحي بأن القادم أو الداخل يستأنس بأهل البيت كما يستأنس أهل البيت به، الاستئذان والسلام يحصل بهما مودة ورضا.

ومن أدب الاستئذان إذا قيل له: من بالباب؟ لا يجيب بلفظ «أنا» حيث لا تحصل به معرفة محددة بالإنسان المستأذن، بل يذكر اسمه، لأن المقصود بالاستئذان التوضيح والإفصاح وليس الإبهام.

لأجل هذا أمرنا الإسلام بأدب الاستئذان والسلام، وعلمنا أنْ لا ندخل إلا إذا أذن لنا، والاستئذان ثلاث فقط، فلا يواصل الإنسان الاستئذان أكثر من ثلاث لما فيه من إزعاج وإلحاح لا يليق بالمؤمن، وإذا لم يؤذن له، وقيل ارجع، فليرجع دون غضب ودون ضجر، فإن هذا أزكى وأطهر للمستأذن.

قال الله تعالى: ﴿**وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ**﴾ [النور/٢٨].

ومن آداب الاستئذان ألاَّ يستقبل المستأذن الباب بوجهه، ولكن يجعل الباب عن يمينه أو عن يساره.

١٠٤ - أوى إلى الله

بينما رسول الله ﷺ جالس في المسجد ، والناس معه ، إذْ أقبل ثلاثة نفر ، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ ، فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها ، وأما الآخر ، فجلس خلفهم ، وأما الثالث فأدبر ذاهبًا ، فلما فرغ رسول الله ﷺ ، قال :

«ألا أخبركم عن النفر الثلاثة ؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله إليه ، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه ، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه» .

(*) أخرجه البخاري (١ / ٢٦ ، ١٢٨) ، ومسلم في السلام (٢٦) .

هذا موقف يقدم لنا دروساً إيمانية هادية :

الأول : فضل حلق الذِّكر، فمنزلتها عند الله تعالى عاليه وغالية، وأهلها مبشرون بمغفرة واسعة وجنة عالية، وفي الموقف رأينا أن من التحق بالحلقة في أي مكان بها نال حظًا من رضوان الله وفضله.

فالرجل الأول الذي رأى فُرجَة فجلس فيها، أخبر النبي ﷺ عنه بأنه رجل أوى إلى الله فآواه الله إليه. أي : تولاه بالرعاية وقرّبه لرحمته وفضله وإحسانه.

والرجل الثاني الذي استحيا فجلس في آخر الحلقة، أخبر النبي ﷺ بأنه رجل استحيا فاستحيا الله منه، وهذا تعبير من باب المشاكلة في اللغة العربية، حيث يكون الجزاء من جنس العمل، والمعنى أن الله سيكرمه، ولن يرده ولن يحرمه من واسع فضله.

الدرس الثاني من الموقف : أن المُعرِض عن الذكر وحلق الذكر والذاكرين محروم من فضل الله وسعة رحمته.

وفي هذا الموقف أخبر النبي ﷺ عن الرجل الذي أعرض بأنه أعرض فأعرض الله عنه، أي حرم نفسه بإعراضه، حرم نفسه من فيوضات الله ورحماته التي تتنزل على الذاكرين، وعلى حلق الذكر برحمات واسعة. من ذلك قول النبي ﷺ «لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده»(١).

الدرس الثالث : أن الناس في الطاعة منازل ودرجات، وكلها يرجى لها القبول والثواب عند الله تعالى، وفي هذا مراعاة من الداعية لأحوال الناس المتفاوتة، كي يتعامل معها بحكمة.

---

(١) سبق تخريجه.

الدرس الرابع : هو التوجيه التربوي التعليمي من رسول الله ﷺ حيث اتخذ النبي ﷺ من الموقف العملي وسيلة تربوية لإيضاح المعاني الإيمانية.

وهذا من هديه ﷺ في الدعوة إلى الله تعالى. حيث نوّع ﷺ أساليب الدعوة، فكان ﷺ يدعو إلى الله تارة بالنصيحة وتارة بالإشارة، وتارة بالهدية، وتارة بالإكرام، وتارة بالموقف العملي، وتارة بالترغيب، وتارة بالترهيب... وهكذا حسب ما يقتضيه الحال.

١٠٥ - إن ربك لبالمرصاد

حَرَّض أبو جهل قومه على إيذاء النبى ﷺ ، فعمد عقبة ابن معيط إلى أحشاء وأمعاء جمل ، فحملها وألقاها على رسول الله ﷺ وهو ساجد ، حتى جاءت فاطمة - رضى الله عنها - وأبعدت القذر عن رسول الله ﷺ .

فقام النبى ﷺ وقال :

« اللهم عليك بالملأ من قريش » وسمى أقوامًا .

قال ابن مسعود :

فرأيتهم جميعًا قتلوا يوم بدر .

(٭) أخرجه البخارى (٤ / ١٢٧ ، ٥ / ٥٧) ، ومسلم فى الجهاد (١٠٨) .

هذا موقف نبوي مبارك يعلمنا التضرع إلى الله تعالى والدعاء. فالإنسان لا يسلم ولا يخلو من وجود بعض المتاعب التي تثقل عليه، ويعجز بما بين يديه من أسباب خاصة أن يدفع هذه المشكلات. وهذا الموقف يعلمنا كيف نصنع إذا ضاقت بنا السبل وأحاطت بنا المخاوف. فنرى في الموقف أن عقبة بن معيط تحامل بالأذى على رسول الله ﷺ والقى على رأسه وهو ساجد أحشاء وأمعاء جمل، ولم يجرؤ أحد أن يقترب من رسول الله ﷺ كي يرفع هذا الأذى عن رأسه خوف بطش قريش وأهل الكفر، حتى جاءت فاطمة بنت رسول الله ﷺ فرفعت هذا الأذى عن أبيها.

فقام النبي ﷺ يدعو ربه على من صنع به هذا الصنيع قائلاً: اللهم عليك بالملأ من قريش، وسمى أقوامًا.

وكان العون الإلهي والانتقام الإلهي من أهل الشر والكفر.

قال ابن مسعود: فرأيتهم جميعًا، أي: رأى كل من دعا عليه المصطفى ﷺ قد قُتلوا يوم بدر. وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر/١٤].

وقد أخبر الحبيب النبي ﷺ أنه ما من مؤمن يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا كان له بها إحدى ثلاث:

- إما أن يعجل الله له دعوته في الدنيا: أي يحقق له ما دعا به.
- وإما أن يصرف عنه من السوء بمثلها.
- وإما أن يدخرها له يوم القيامة[١].

والله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة/١٨٦].

---

(١) سبق تخريجه.

١٠٦ - بقيت كلها

دفع النبى ﷺ شاةً للسيدة عائشة - رضى الله عنها - كى توزعها على الفقراء، وبعد وقت يسير سأل النبى ﷺ عائشة عن توزيع لحم الشاة، فقالت :

ذهبت كلها ولم يبق غير كتفها.

فقال النبى ﷺ :

«بل بقيت كلها ولم يذهب غير كتفها»، ثم قرأ قول الله تعالى :

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل/٩٦].

(*) أخرجه الترمذى (رقم ٢٤٧٠)، وراجع الترغيب والترهيب (٢/ ٦).

هذا الموقف المبارك يقدم لنا الأسوة والقدوة في السخاء والعطاء والادخار للدار الآخرة الباقية، ويؤكد الحقيقة الإيمانية والهدى القرآني بشأن ثواب النفقة في سبيل الله.

فهنالك في حياتنا نفقات كثيرة، لكن نفقة واحدة من بين النفقات هي التي يباركها الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ [البقرة/ ٢٦١].

أيضًا ما ننفقه في سبيل الله تعالى وابتغاء مرضاته، هو الذي يبقى، أما ما عداه من مطعم أو مشرب أو ملبس ونحو ذلك من شئون الدنيا فيفنى.

قال الله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل/ ٩٦].

وجاء الموقف نموذجًا عمليًا وتطبيقًا لهذا المعنى، فلما سأل النبي ﷺ السيدة عائشة عن توزيع لحم الشاة، قالت: ذهبت كلها ولم يبق غير كتفها، أي: تم توزيعها صدقة ما عدا لحم الكتف، لكن النبي ﷺ لم يرضه هذا التعبير الذي قالته السيدة عائشة، وقال لها مصححًا ومعلمًا ومرشدًا:

قولي يا عائشة: بقيت كلها ولم يذهب غير كتفها. فما تم إبقاؤه للطعام هو الذي ذهب، أما ما تم التصدق به فهو الذي بقي لنا ثوابًا عند الله تعالى يدخره لنا ليوم القيامة.

ومن هنا كان على المؤمن أن يقدم أفضل ما عنده للنفقة، وأن يجعل الصدقة في مقدمة نفقاته لينال ما عند الله من خير.

قال الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران/ ٩٢].

وقد يحسب بعض الناس أن ثواب الصدقة في الآخرة فقط، والحق أن

للصدقة جزاءً في الدنيا أيضًا. قال الله تعالى :

﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [سبأ / ٣٩].

١٠٧ - بالإيمان يتجدد الأمل

رأى إبراهيم بن أدهم رجلاً تبدو عليه علامات الضيق والحزن فقال له :

يا أخى، إنى سائلك عن ثلاث فأجبنى :

الأولى : أيحدث فى هذا الكون شىء لا يريده الله عز وجل ؟ قال الرجل : لا.

فسأله الثانية :

أينقص شىء من رزقك قدَّره الله لك ؟ قال الرجل : لا

فسأله الثالثة :

أينقص من عمرك لحظة كتبها الله لك؟ قال الرجل : لا.

فقال إبراهيم بن أدهم للرجل :

«فعلام الحزن يا رجل؟!!».

(*) تنبيه الغافلين، ص ٢١٣.

هذا الموقف يحمل دلالات هادية في فقه معالجة الهموم ودفع الكآبة عن النفس.

وأولى هذه الدلالات : اهتمام المسلم بأمر أخيه المسلم، فإبراهيم بن أدهم حين رأى الرجل تبدو عليه علامات الهم والحزن أسرع إليه يسأله عن سبب همه وضيقه، كي يخفف عنه ويرى كيف يمكن مساعدة الرجل وإعانته، مع الدعاء له.

وهكذا ينبغي أن يكون المؤمن، يهتم بإخوانه، يخفف عنهم، ويتعرف على أحوالهم لإعانتهم، أما ما شاع في حياتنا المعاصرة من السؤال العاجل إذا التقى الواحد منا بصاحبه سأله : كيف حالك ؟ ثم يجيب بنفسه : بخير والحمد لله، ثم ينصرف، دون أن ينتظر إجابة أخيه ويطمئن على أحواله.

فمثل هذا السؤال العاجل يتحلل به الإنسان من واجباته الاجتماعية وحقوق أخوّة الإيمان، وكي لا يتهم الإنسان بالتقصير في حق صاحبه. أما أهل الإيمان فإنهم يسألون باهتمام ورغبة في إعانة من يسألون، وهذه الروح الودودة الحميمة من سنة الهادي البشير سيدنا محمد ﷺ، وفي الحديث : «مَثل المؤمنين في تَوَادّهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد إذا اشتكى منه عُضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[1].

الدلالة الثانية : دور الداعية، فالداعية كالطبيب يداوي جراحات النفوس بهدي القرآن الكريم والسنة النبوية، فحين علم إبراهيم بن أدهم ما بالرجل من ضيق وما أصابه من هم أقبل عليه يسأله عن ثلاثة أشياء لا يمكن الإجابة عنها إلا بالنفي، لأنها مما قدّره الله عزّ وجلّ، ولا قدرة لأحد على تغييره أو تبديله.

وفي هذا حكمة غالية، حيث كان الخطاب بشكل مقنع كما يلفت انتباه المهموم إلى حقائق عالية خالدة في هذا الكون أمرها بيد الله الخالق وحده،

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٦٦).

ليبث الطمأنينة والرضا في قلب المهموم حيث قال ابن أدهم :

المسألة الأولى : أيحدث في هذا الكون شيء لا يريده الله عز وجل ؟

المسألة الثانية : أينقص شيء من رزقك قدره الله لك ؟

المسألة الثالثة : أينقص من عمرك لحظة كتبها الله لك ؟

وتتأكد هذه المعاني وينتبه المهموم إلى هذه الحقائق، حيث كانت إجابته على الأسئلة الثلاثة بقوله : لا.

وارتقى إبراهيم بن أدهم بالرجل إلى قمة إيمانية بسؤاله : فعلام الحزن يا رجل ؟!

الدلالة الثالثة : نتعلم من هذا الموقف أنه بالإيمان يتجدد الأمل، فرجاء المؤمن في الله لا ينفد، وأمل المؤمن في ربه لا ينقطع.

وفي الحديث : « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله »[١].

فإن كانت الأمور بيد الله تعالى فلتجعل الهموم همًّا واحداً هو مرضاة الله تعالى، فمن جعل الهموم همًّا واحداً استراح ونجا من السقوط في هوة اليأس والإحباط. والمؤمن يتجدد أمله بتجدد الأنفاس، ثقة منه ويقيناً في الله تعالى. إن الله على كل شيء قدير.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٢٠٥، ٢٢٠٦).

١٠٨ - كيف الخلاص ؟

لقي القاضي عياض رحمه الله شيخًا يستند على عصاه، فقال له :

كم بلغت من العمر يا رجل ؟

قال الرجل : ستين سنة .

قال القاضي :

لك في طاعة الله ستون عامًا ؟ توشك أن تصل .

فبكى الرجل قائلاً :

لقد ضاعت في المعصية ، ولا أدري ماذا يفعل الله بي ؟

قال القاضي :

ألا أدلك على الخلاص ؟ :

أَصْلِحْ ما بقي يُغْفَرْ لك ما مضى .

(*) جامع العلوم والحكم (٣ / ٩٢) .

هذا الموقف يقدم لنا حقيقة إيمانية غالية، ويقف بمن تفلتت أعمارهم في الزلات والمعاصي على سبيل الخلاص وطريقة النجاة.

ما أسرع مرور العمر، وإنها لحسرة وندامة أن تمر الأيام ويمضي العمر في غفلة، وإثم ومعصية، ولقد حذرنا القرآن الكريم من انقضاء العمر في المعاصي والذنوب دون توبة صادقة؛ فنأتي يوم القيامة يأكلنا الندم وتعذبنا الحسرات، قال الله تعالى :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ * وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ * وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر/٥٣ : ٦٠].

فعلى العاقل أن يبادر بالتوبة في الدنيا؛ كي يفوز بالغفران والرحمة في الآخرة، والسبيل العملي لذلك هو ما دلنا عليه الموقف، حيث قال القاضي للرجل الذي تفلت منه العمر في المعاصي : ألا أدلك على الخلاص؟ أي النجاة: أصلح ما بقي يغفر لك ما مضى.

ويقول النبي ﷺ : «إذا تاب العبد أنسى الله الحفظة ذنوبه، وأنسى ذلك جوارحه ومعالمه من الأرض حتى يلقى الله عز وجل وليس عليه شاهد بذنب»(١).

(١) راجع الترغيب والترهيب (٤ / ٩٤).

ووعد الله من تاب وآمن وعمل صالحًا أن يبدل سيئاته حسنات، قال تعالى في سياق الحديث عن عباد الرحمن :

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان / ٧٠].

كما يستفاد من الموقف أن يغتنم المؤمن ما بين يديه من فرص للطاعة والاستغفار والتقرب إلى الله تعالى. فاغتنام الفرص هدى إسلامي كريم، وفي الحديث النبوي الشريف : «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز»[١].

وفي الحديث أيضًا : «اغتنم خمسًا قبل خمس : شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وغناك قبل فقرك، وحياتك قبل موتك»[٢].

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) راجع الترغيب والترهيب (٤ / ٢٥١).

١٠٩ - هلك مَنْ قبلَنا

سرقت امرأة من بني مخزوم، وهم من أشراف قريش، فتشفَّع قومها للرسول ﷺ بأسامة بن زيد، فلما تكلم أسامة مع رسول الله ﷺ، غضب النبي ﷺ وقال:

«أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة؟! إنما هلك الذين من قبلكم؛ لأنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذى نفس محمد بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها».

(*) أخرجه البخارى (٤/٢١٣، ٨/١٩٩)، ومسلم في الحدود (ب٢ رقم ٩٢٨).

فى هذا الموقف عبر وعظات غالية، ودروس تربوية هادية، منها:

أن الناس سواسية أمام ميزان العدالة، يستوى فى الخضوع لها الملك المتوج والفقير البائس، وينبغى ألا يختل ميزان العدالة فى يد القاضى مهما كانت الدوافع والأسباب.

وجاءت آيات القرآن الكريم لتؤكد الأمر الإلهى بالعدل، من ذلك قوله تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل/ ٩٠].

وفى هذا الموقف نرى أنه عندما سرقت امرأة من بنى مخزوم وهى قبيلة من أشراف قريش، وخاف قومها أن يلحق بهم عار وسوء بين القبائل، فهداهم تفكيرهم إلى أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ وابن حبه؛ ليشفع لهم عند رسول الله ﷺ فى شأن هذه المرأة، وظنوا أن الرسول ﷺ سيقبل شفاعته لمكانته الغالية عنده، فلما كلم أسامة الرسول ﷺ فى شأن المرأة المخزومية التى سرقت، غضب النبى ﷺ وقال: «أتشفع فى حد من حدود الله يا أسامة؟!».

ولم يقبل النبى ﷺ أن يختل ميزان العدالة لأجل أحد.

ويمتد معنى العدالة إلى جوانب حياتنا، فلا يقتصر على المحاكم فقط، فالأب قاض فى بيته والمدرس قاض بين تلاميذه والمدير قاض بين موظفيه، وفى الحديث عن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته، الإمام راع ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية فى بيت زوجها،ومسئولة عن رعيتها، وكلكم راع ومسئول عن رعيته»[١].

---

(١) سبق تخريجه.

وفي الموقف أيضًا بيان لأثر اختلال ميزان العدالة في المجتمع، حيث قال النبي ﷺ لأسامة بن زيد :

« إنما هلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ».

ثم أقسم النبي ﷺ بربه بأنه لا مجاملة لأحد، ولا شفاعة في حد لأحد حتى ولو كان شريفًا مكرمًا، فقال ﷺ :

« لو أن فاطمة بنت محمد ﷺ سرقت (وحاشاها أن تسرق) لقطع محمد يدها ».

وهكذا أكد النبي ﷺ من خلال بيانه أثر الظلم، وكيف أن اختلال ميزان العدالة في الأمم السابقة قد أهلكهم. لأن المظلوم إذا تأكد له ضياع حقه وأصابه اليأس لجأ إلى طرق خاصة للانتقام والتشفي ولا تؤمن العاقبة لمثل هذه الأفعال. فالعدل أساس الأمن، وهذه حقيقة تؤكدها آيات القرآن الكريم، قال الله تعالى :

﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ** ﴾ [الأنعام / ٨٢].

١١٠ - مهلاً لِمَ تبكِي ؟

دخل الصُنابحى على عبادة بن الصامت ﷺ وهو فى أنفاسه الأخيرة قبل الموت فبكى.

فقال له عبادة :

مهلاً، لم تبكى ؟ فوالله لئن استُشْهِدْتُ لأشهدن لك. ولئن شُفِّعت لأشفعن لك. ولئن استطعت لأنفعنك.

ثم قال :

ما من حديث سمعته من رسول الله ﷺ لكم فيه نفع إلا حدثتكموه. إلا حديثًا واحداً وإنى محدثكموه الآن :

قال رسول الله ﷺ :

«من قال لا إله إلا الله دخل الجنة».

(*) صحيح مسلم، كتاب الإيمان (٢٠٧١).

في هذا الموقف دخل الصنابحي – وهو من أئمة التابعين – على عبادة بن الصامت ﷺ وهو آخر من مات من الصحابة على قول له، فبكى، لأنه كان آخر من بقي من صحابة رسول الله ﷺ، فقال الصحابي الجليل: لم تبكي؟ فليس هناك سبب يحملك على البكاء، فإن كنت تخشى الآخرة فإن صحبتك لي سوف تكون خيراً لك – إن شاء الله – فلئن استشهدت لأشهدن لك، أي: لو كنت ممن قال الله فيهم: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ** ﴾ [البقرة/١٤٣]، فسوف تكون ممن أشهد لهم، ولئن شفعت لأشفعن لك؛ أي: لو كنت من الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «لكل مؤمن شفاعة»[١]، فسوف تكون ممن أشفع فيهم عند الله سبحانه. ولئن استطعت لأنفعنك، فإن الرجل ينتفع يوم القيامة بأصحابه الصالحين، وبآبائه الصالحين، وبذريته الصالحين، فله منهم نصيب لأنهم من أعماله الخيِّرة، ولذا قال النبي ﷺ: «لا تصاحب إلا مؤمناً»[٢].

ثم بين له أنه ينبغي ألا يحزن وألا يفكر في أنه بموت الصحابة سوف ينقطع العهد برسول الله ﷺ، فإنه ما من حديث إلا حدث به إلا واحداً خاف أن يحدث به لأنه ربما لا يفطن الغافلون إلى معناه، ألا وهو قوله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة»، والمعنى أن كل من قال كلمة الإخلاص وعمل بحقها دخل الجنة؛ فقد روى الإمام البخاري في صحيحه معلقاً عن «وهب بن منبه» ﷺ قيل له: أليست لا إله إلا الله مفتاح الجنة؟ قال: «بلى، ولكل مفتاح أسنان فإذا وجدت فُتح الباب وإلا فلا»[٣].

ونتعلم من هذا الموقف فضل صحبة الصالحين، حيث إن لهم شفاعة يوم القيامة.

---

(١) تذكرة الموضوعات ٢٢٧.
(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٢٣٩٥)، وأبو داود (رقم ٤٨٣٢).
(٣) البخاري تعليقاً في كتاب الإيمان.

كما يبين لنا الموقف فضل كلمة الإخلاص، لا إله إلا الله، وأن ثوابها الجنة بشرط أن يعمل المسلم بحقها من إحلال الحلال وتحريم الحرام.

كما يتضح لنا من الموقف أن بركة العلم في العمل به.

١١١ - رجل بألف

عزم المسلمون على فتح مصر التى بشرهم رسول الله ﷺ بها ، فاتجه إليها عمرو بن العاص ﷺ بجيش كبير ، ولكن عندما وصل إلى مشارف مصر رأى كثرة عدد الروم فطلب مدداً من عمر بن الخطاب ﷺ واستجاب عمر لرأى عمرو ، وكتب له :

إنى قد أمددتك بأربعة آلاف رجل ، على كل ألفٍ رجلٌ بمقام ألف .

من هؤلاء الأربعة عبادة بن الصامت الذى وجهه عمرو على رأس جيش إلى الإسكندرية ففتحها .

(*) فتوح البلدان (جـ ٦ / ٢٧٨) .

هذا موقف يعلمنا فقه المواجهة، وأن القائد ينبغي الا يدخل معركة لا يملك فيها أسباب النصر، فلا مكان للعواطف الهائجة ولا الانفعالات الطائشة، وإنما الحكمة وتقدير الموقف، ومعرفة حجم العدو وقراءة أبعاد المعركة قبل وقوعها، كل هذه الملامح من صفات القائد الذكى الفطن. ومن هنا لم يبدأ عمرو بن العاص فتح مصر إلا بعد تحديد حجم العدو ومعرفة قوته وتقدير القوة اللازمة لتحقيق النصر عليه.

فلما رأى عمرو بن العاص قوة الروم وكثرتهم، طلب مدداً من المقاتلين من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ فأمده بأربعة آلاف، على كل ألف رجل بألف، إشارة إلى كفاءة المقاتلين ومهارتهم وصدقهم وشجاعتهم.

واستفاد عمرو بن العاص من هذا التقييم لهذه القوة الخاصة، التى أرسلها سيدنا عمر لتقوية جيشه عند فتح مصر، فوجه رجلاً من الأربعة الأفذاذ الذين زكاهم سيدنا عمر وجعل الواحد منهم بمقام ألف. ومنهم سيدنا عبادة بن الصامت، الذى قاد فرقة من الجيش فتح بها الإسكندرية، وكانت بداية مباركة لفتح مصر وتخليصها من سيطرة الرومان وظلمهم للمصريين؛ بما فرضوه من ضرائب باهظة وأحكام جائرة ونهب لثروات مصر.

ولم يفرض الفاتحون المسلمون الإسلام على أحد من أهل مصر، لكن أهل مصر لما رأوا أخلاق الفاتحين من صحابة رسول الله ﷺ وقيم الخير والعدل دخلوا فى دين الله أفواجاً.

١١٢ - لا يُدْخِل جوفه إلا طيباً

شرب أبو بكر الصديق ﷺ شربة من لبن، فأخبره غلامه أنه تكهن لقوم فأعطوه اللبن، فأدخل أبو بكر إصبعه في فمه، وجعل يتقيأ حتى أوشكت نفسه أن تخرج، ثم قال :

«اللهم إني أعتذر إليك مما حملت العروق وخالط الأمعاء».

فبلغ رسول الله ﷺ ما حدث من أبي بكر ﷺ فقال ﷺ :

«أو ما علمتم أن الصديق لا يُدخل جوفه إلا طيباً».

(*) ذكره الغزالي في الإحياء، راجع إتحاف السادة المتقين (٦ / ١٠).

هذا موقف إيماني يفيض بالدلالات الهادية ومنها :

حرص المؤمن على الحلال في مطعمه ومشربه وسائر شأنه، والحذر من الحرام ومن الشبهات. وفي الموقف نرى أبا بكر ﷺ وضع إصبعه في حلقه وجعل يتقيأ حتى أخرج كل ما دخل جوفه من شربة لبن، لمَّا علم أن غلامه جاء به من طريق به شبهة؛ حيث قام غلامه بأعمال الكهان والدجالين مقابل هذا اللبن. ولم يكتف أبو بكر بذلك، بل استغفر ربه من اليسير من شربة اللبن الذي خالط الأمعاء وجرى بالعروق؛ وذلك لأن الحلال باب القبول والإكرام، وفي الحديث النبوي الشريف قال ﷺ : «إن الله تعالى طيب لا يقبل من الأعمال إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ [المؤمنون/٥١]، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ [البقرة/١٧٢]، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنَّى يُستجاب له»[١].

وبيَّن النبي ﷺ أن ينابيع الحكمة ونور الله في القلب، يتأتَّى بالحرص على الحلال، قال ﷺ : «من أكل الحلال أربعين يومًا نوَّر الله قلبه، وأجرى ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»[٢].

والحرص على الحلال طريق لإجابة الدعاء، قال النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص ﷺ حين سأله أن يدعو له كي يكون مستجاب الدعوة، قال له ﷺ : «يا سعد، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة»[٣].

وحذرنا رسول الله ﷺ من كسب الحرام مهما كانت الدوافع حتى وإن أنفق في الصدقات أو في باب من أبواب البر، قال ﷺ : «من أصاب مالاً من

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (٦٥). (٢) إتحاف السادة المتقين (٦/٧).
(٣) سبق تخريجه.

مأثم، فوصل به رحمًا، أو تصدق به، أو أنفقه في سبيل الله، جمع الله ذلك جميعًا ثم قذفه في النار»[١].

في هذا الموقف أهمية تزكية المواقف الإيمانية من الدعاة والعلماء وأولي الأمر والحث عليها، فحين علم رسول الله ﷺ بأمر أبي بكر الصديق وحَذَرِه من الشبهة وإخراج بعض اللبن من بطنه، أثنى عليه وقال ﷺ : «أوما علمتم أن الصِّدِّيق لا يدخل جوفه إلا طيبًا».

(١) إتحاف السادة المتقين (٦/٩).

١١٣ - يُبخِّلان ابني عليَّ

كان قيس بن سعد - رضى الله عنهما - فى جيش العسرة، وكان ينحر ويُطعم حتى استدان بسبب ذلك، فقال أبو بكر وعمر - رضى الله عنهما - :

إن تركنا هذا الفتى أهلك مال أبيه، فمشيا فى الناس يقولان ذلك، فلما سمع والده سعد، قام خلف النبى ﷺ وقال : «من يعذرني من ابن أبي قحافة وابن الخطاب ؟

(*) راجع اسد الغابة (٤ / ١٢٥).

هذا الموقف الإيماني درس في العطاء والنجدة والتضحية من أجل نصرة الأمة، وما من شك في أن هذه النماذج الإيمانية هي الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة لنا في البناء والتنمية والإعداد، حين نتأسى بهم ونقدم مصلحة الجماعة والمجتمع والأمة على مصلحة الفرد، ونعلم ونوقن أن جميع صور الإقدام المخلص والتضحية والعطاء والنجدة صفقة رابحة مباركة عقدها الله مع عباده المؤمنين الصالحين، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ [التوبة/ ١١١].

وما من شك في أن ساعات الشدة التي تمر بالأمم تجعل الأمة في أشد الحاجة إلى مواقف التضحية والفداء والنجدة؛ كي تدفع شرور الأعداء، وتمكّن للحق على الأرض بعزة وأمان.

ومن هنا رأينا - في الموقف - الصحابي المبارك : قيسًا ووالده سعدًا يضربان المثل في قيمة العطاء، حيث مر المسلمون بشدة في جيش العسرة، وأقبل قيس ليطعم أصحابه وجنود الجيش، وكان ذلك يتكلف الكثير، واستمر الصحابي الكريم قيس ينحر الذبائح ويطعم الجيش، حتى نفد ماله فاستدان، فقال أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما - : إن تركنا هذا الفتى أهلك مال أبيه. فمشيا في الناس يقولان ذلك، فلما سمع سعد قام خلف النبي ﷺ وقال: من يعذرني من ابن أبي قحافة وابن الخطاب؟ يُبخّلان عليّ ابني!.

فقال النبي ﷺ : « دعوه ؛ فإن الجود من شيمة هذا البيت ».

والذي أود أن أشير إليه هنا هو أن الصحابي الكريم قيس بن سعد بن عبادة كان يستدين وعنده من عروض التجارة والأملاك ما يسد به هذا الدين. أي لم يكن أمره انفعالاً لا يعرف التدبير، أو تهورًا تمليه العاطفة في غيبة العقل. ولذلك أقره النبي ﷺ على ذلك لعلمه بحاله ومكانته المالية بين قومه.

١١٤ - استطلاع ذكى

أمسك الصحابة بغلامين لقريش بالقرب من مكان جيش المسلمين الذى كان يتأهب للقتال فى غزوة بدر.

فخاطب النبى ﷺ الغلامين قائلاً : أخبرانى عن قريش. قالا : هم وراء هذا الكثيب بالعدوة القصوى.

فقال لهما : كم القوم ؟ قالا : كثير.

فقال لهما : ما عِدَّتهم ؟ قالا : لا ندرى.

فقال لهما : كم ينحرون كل يوم ؟

قالا : يومًا تسعًا ويومًا عشرًا.

فقال النبى ﷺ : القوم ما بين التسعمائة إلى الألف.

ثم قال لهما : فمن فيهم من أشراف قريش ؟

قالا : عتبة وشيبة ابنا ربيعة وعدُّوا رجالاً منهم.

(*) السيرة النبوية (١ / ٢١١).

في هذا الموقف دروس تربوية هادية، تشتد إليها الحاجة في حياتنا المعاصرة، فالنبي ﷺ يعلمنا الأخذ بأسلوب التفكير العلمي في معالجة الأحداث وإدارة شئون الحياة، بعيداً عن العشوائية والانفعال الطائش، أو الاندفاع المتهور.

بل إننا نرى رسول الله ﷺ في هذا الموقف يقوم باستطلاع ذكي يستطيع من خلاله أن يحصل على معلومات خطيرة ومهمة بشأن العدو.

فسأل الغلامين عن مواقع العدو، وعن عددهم، وحين عجز الغلامان عن تقدير العدد، استخدم رسول الله ﷺ أسلوب الاستدلال والاستنباط، فسألهم: كم ينحرون في اليوم؟ فأجاب الغلامان : ينحرون تسعًا أو عشراً من الإبل، ومعلوم عند العرب أن الواحدة من الإبل تكفي مائة فرد.

وهنا تم التقدير القائم على الحساب العلمي الدقيق، فقال ﷺ : «القوم بين التسعمائة إلى الألف»، ثم سأل النبي ﷺ الغلامين عن العناصر المؤثرة في صفوف جيش الأعداء، فأخبر الغلامان بوجود عتبة وشيبة ابني ربيعة وعدداً أقواماً.

وهكذا يكون سلوك المؤمن في معالجة الأحداث يتحرى الأخذ بالأسباب، فهذا نبي الله ورسوله ﷺ قد بشره الله بالنصر، وهو مع ذلك لا يألو جهداً في الأخذ بالأسباب، فما بالنا في حياتنا المعاصرة نريد أن ننجز الأشياء بعصا سحرية من الغيب دون جهاد أو تضحية، نطلب النصر ولا نأخذ بأسبابه، ونطلب التقدم ولا نأتي دواعيه، سبحانك ربنا، ورحماك ربنا، فما أعجب حالنا !!

إن الله عز وجل كما أمرنا أن نؤمن بالغيب كلفنا الأخذ بالأسباب، وجعل فعل السبب طاعة وترك السبب معصية والاعتماد على السبب شركًا بالله تعالى.

١١٥ - لو كانت لكِ مائة نفس

كان سعد بن مالك - وهو ابن أبي وقاص - بارًا بأمه، فلما أسلم قالت أمه له:

لَتدعنَّ دينك هذا أو لا أطعم، ولا أشرب حتى أموت، فتُعيَّر بي، فيقال: هذا قاتل أمه.

فقال سعد:

إني لا أدع ديني هذا لشيء.

فمكثت أمه ثلاثة أيام دون أن تأكل حتى اشتد جهدها، فقال سعد لأمه:

والله لو كانت لكِ مائة نَفْسٍ فخرجت نَفْسًا نَفْسًا ما تركتُ ديني هذا لشيء، فكلي. فأكلت.

(*) راجع أسد الغابة (٢/٢١٦).

هذا الموقف يحمل دروساً إيمانية في المعاملة بين الآباء والأبناء:

الدرس الأول: أهمية البر بالأم، فقد رأينا في الموقف أن سعد بن مالك كان باراً بأمه، ولقد وصى الله في القرآن الكريم بالبر بالوالدين وبخاصة الأم، من ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ [لقمان/ ١٤].

الدرس الثاني: درس في العقيدة ومراتب الإيمان، فإن كان الله قد أمر بالبر بالوالدين، وجعله في سياق الأمر بتوحيد الله والإيمان به، فقال جل شأنه: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [الإسراء/ ٢٣]. إلا أن البر بالوالدين ينبغي أن لا يتقدم على حق الخالق سبحانه وتعالى، فالله سبحانه هو الخالق للأبناء والآباء، والله سبحانه صاحب الفضل على الجميع. فالابن يطيع والديه في كل شيء إلا في ما يغضب الله الخالق، وهذا أدب مع الله الخالق سبحانه وتعالى.

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة/ ٢٤].

وهذا ما ينبغي أن يكون عليه قلب المؤمن وعقله، كي ينال فضل الله تعالى، من كمال الإيمان به، ومن حلاوة الإيمان في القلب، لقول النبي ﷺ لسيدنا عمر بن الخطاب ﷺ حين قال له: يا رسول الله إني أحبك أكثر من مالي وأهلي إلا نفسي التي بين جنبي.

فقال له النبي ﷺ: «لن يؤمن أحدكم (أي: لن يكمل إيمان أحدكم) إلا إذا كنتُ أحبَّ إليه من ماله وولده ونفسه التي بين جنبيه» فقال سيدنا عمر:

الآن يا رسول الله . أي : الآن أنت أحب إليَّ من أهلي ومالي وولدي ونفسي التي بين جنبي ، فقال له النبي ﷺ : «الآن يا عمر»[١] أي : الآن كمل إيمانك يا عمر .

أيضًا قول النبي ﷺ : «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»[٢] .

---

(١) أخرجه البخاري (١ / ١٠) ، ومسلم في الإيمان (٧٠) ، وأحمد في المسند (٣ / ١٧٧) وغيرهم باختلاف يسير .
(٢) سبق تخريجه .

١١٦ - الحــذر

فى أثناء الهجرة النبوية الشريفة، وفى الطريق إلى المدينة، بعد خروج النبى ﷺ وصاحبه أبى بكر الصديق من الغار، جعل أبو بكر يلتفت يميناً مرة ويساراً مرة وخلفه مرة.

فقال له النبى ﷺ :

«لا تخف يا أبا بكر».

فقال أبو بكر : ي

ا رسول الله، أنا لا أخاف على نفسى؛ فإنى إن هلكتُ هلك فرد واحد، وإنما أخاف عليك يا رسول الله؛ فإنك إن هلكت هلكت الأمة بأسرها.

(*) راجع أسد الغابة (١ / ٣٤).

هذا الموقف يحمل دلالات تربوية هادية، أهمها :

• الحذر في حياة الإنسان، فالمفروض في العاقل الحذر، كي لا يقع فريسة لمكر عدوه وكيده، وهذا شأن المؤمن، يكون واعيًا بما حوله من أحوال وشئون، فإن الله يحب عبده الكَيِّس الفطن الحذر، كما رأينا في هذا الموقف من سيدنا أبي بكر وهو يلتفت حوله حذرًا وخوفًا على رسول الله ﷺ .

وفي الحديث قال النبي ﷺ : «المؤمن كيِّس حذر»(١).

وكان سيدنا عمر بن الخطاب يقول : لست بالخب، ولكن الخب لا يخدعني، أي : لست بالماكر المخادع، ولكن الماكر لا يستطيع خداعي.

نعم فليس الإيمان وسيلة للغفلة والسذاجة والانخداع، بل الإيمان طريق لمزيد من الحذر واليقظة والانتباه، والله تعالى يقول : **﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ﴾** [المائدة/٩٢].

ومعنى الحذر يمتد في حياة المسلم ليشمل جوانب كثيرة، فالمؤمن يحذر عدوه ويحذر نفسه الأمَّارة بالسوء، ويحذر شيطانه، ويحذر أخطاء الآخرين، ويحذر أكثر ما يحذر من مخالفة أوامر الله عز وجل، قال تعالى : **﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾** [النور/٦٣].

وقال تعالى : **﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾** [آل عمران/٢٨].

وقوله تعالى : **﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾** [البقرة/٢٣٥].

• أيضًا يظهر من الموقف درس التضحية من أجل الأهداف الغالية

---

(١) أخرجه الحافظ في الفتح (١٠/٥٣٠).

والمقاصد السامية، فهذا أبو بكر الصديق ﷺ يضحي من أجل رسول الله ﷺ ويبين أنه يعلم أن حياة رسول الله ﷺ حياة للأمة كلها، وأن النبي ﷺ يمثل الأمة كلها، وليس عاديًا.

ويظهر هذا من قول أبي بكر حين سأله النبي ﷺ: لِمَ تلتفت يا أبا بكر؟ قال: يا رسول الله، أنا لا أخاف على نفسي فإني إن هلكتُ هلك فرد واحد، وإنما أخاف عليك فإنك إن هلكتَ هلكتْ أمة بأسرها.

وبمثل هذه التضحيات وهذه الهمم العالية تُبني الأمم وتتقدم المجتمعات وتتسيد العالم، حين نقدم مصلحة الأمة على المصلحة الشخصية، ونقدم النفع العام على النفع الخاص. والرجال مواقف ومعادن لا تظهر إلا في أوقات الشدائد.

١١٧ - اجعل لنا من نفسك يومًا

جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ ، فقالت : يا رسول الله ، ذهب الرجال بحديثك ، فاجعل لنا من نفسك يومًا نأتيك فيه تعلِّمُنا مما علمك الله .

قال ﷺ :

«اجتمعن يوم كذا وكذا» .

فاجتمعن ، فأتاهن النبي ﷺ فعلمهن مما علمه الله .

---

(٥) البخاري (١ / ١٩٥) ، ومسلم (١٦ / ١٨١) .

هذا الموقف يحمل دلالات هادية، أهمها :

الدلالة الأولى : إظهار فضل العلم، وبخاصة العلم الذى فرضه الله على عباده، وجعله فرض عين على كل مسلم ومسلمة، وهو العلم الذى تصح به العقيدة وتصلح به العبادة، كيف لا، والله تعالى لما أراد أن يجعل لآدم -عليه السلام- منزلة عالية، لم يجعل ذلك له بمال ولا سلطان، وإنما بالعلم.

قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** ﴾ [البقرة/ ٣٠ : ٣٢].

والدلالة الثانية : هى أن الله تعالى حين أمر حبيبه المصطفى ﷺ بأن يدعو ربه لطلب الزيادة، لم يأمره بالدعاء بطلب الزيادة من مال ولا سلطان، وإنما أمره بطلب الزيادة فى العلم. قال تعالى : ﴿ **وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا** ﴾ [طه/ ١١٤].

وقد أدركت الصحابية الفُضلى هذا الفضل للعلم فذهبت لرسول الله ﷺ تطلب منه أن يجعل للنساء مجلساً يعلمهن فيه مما علمه الله.

وما من شك فى أن للعلم أهمية بالغة فى تشكيل عقلية المؤمن وبناء شخصيته، كى يقوم تفكيره وقوله وفعله على علم وبصيرة. بدلاً من عشوائية التفكير أو الانصياع وراء العادات والتقاليد أو اتباع الهوى... وغير ذلك.

الدلالة الثالثة : أهمية تعليم المرأة فى المجتمع المسلم، كى ينهض المجتمع بجناحيه، فالمرأة هى الأم وهى الزوجة وهى الأخت، وهى التى حباها الله بفضل الأمومة والتربية بدون علم، لذلك استجاب النبى ﷺ وجعل لهن مجلساً يكون فيه التعليم المباشر والحوار المباشر معهن، وبأن يقوم الزوج بتعليم زوجه ما تعلمه من رسول الله ﷺ.

وهذا درس للدعاة أن يجعلوا نصيبًا وافيًا للنساء من الدروس والمحاضرات تأسيًا برسول الله ﷺ، والمتأمل لتاريخ الدعوة؛ يرى بوضوح أن كثيراً من الصحابيات قمن بواجب الدعوة، ورواية السنة النبوية المطهرة، وبخاصة ما يتصل بشئون النساء، والسيدة عائشة - رضي الله عنها - خير نموذج لهذا. كما قامت المرأة في تاريخ الدعوة بدور بطولي رائع في التضحية والجهاد، ومن هؤلاء السيدات أسماء بنت أبي بكر وأم كلثوم بنت عقبة، وأم سليم، وأم عمارة، وأم ذر، وأم حرام بنت ملحان ... وغيرهن.

كل ذلك يؤكد مشاركة المرأة وإسهامها في بناء الأمة، وحسبنا أن نقرأ قول الله تعالى: ﴿ **فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ** ﴾ [آل عمران / ١٩٥].

١١٨ - الانهيار

وجد النبى ﷺ امرأة تبكى عند قبر، فقال لها :

«اتقى الله واصبرى».

ولم تكن تعرفه ﷺ ، فقالت له :

إليك عنى، فإنك لم تُصَبْ بمصيبتى .

ثم عرفته، فاعتذرت له قائلة : لم أعرفك .

فقال لها الرسول ﷺ :

«إنما الصبر عند الصدمة الأولى».

(*) البخارى (٢ / ١٠٥)، ومسلم فى الجنائز (١٤).

إن هذا الموقف يقدم لنا قيمة غالية في حياة الإنسان، ألا وهي قيمة التماسك وقت المحن، وعدم الانهيار أمام الشدائد، فإنه لا ينهار على الطريق من أول صدمة إلا الضعفاء، ويتخطاهم الزمن ويطويهم التاريخ كأنهم لم يكونوا شيئًا مذكورًا !!

وحين نسأل أنفسنا: ما الذي يحمينا من الجزع والانهيار عند الشدائد ؟

إنه الصبر، وقد مدح القرآن من واجهوا الشدائد بصبر ويقين، قال الله تعالى: ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ [البقرة/١٧٧].

والذي يقوي صبر الإنسان هو الإيمان بالله تعالى، فكلما زاد الإيمان زاد المؤمن يقينًا وصبرًا.

وأود أن أشير إلى حقيقة مهمة بشأن الشدائد والمصائب، وهي أن أكثر الناس تعرضًا للشدائد هم الأقوياء والقادة وأصحاب الرسالات من الدعاة والمصلحين والعلماء الذين لا يعيشون لأنفسهم وإنما لشعوبهم، ومن هنا كان الأنبياء هم أشد الناس بلاء، قال النبي ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة (أي : ضعف) ابتلى على حسب دينه، فما يزال البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه من خطيئة»[١].

وهذا رسول الله ﷺ تعرض لما لم يتعرض له مصلح أو نبي، فقالوا فيه ما قالوا من أنه شاعر وساحر وكاهن ومجنون... إلخ، وقالوا إفكًا في أهل بيته أم المؤمنين السيدة عائشة – رضي الله عنها – ما قالوا. وقالوا في حق الله تعالى: «إن الله فقير»، والملائكة بنات الله... إلخ ما قالوا مما يؤذي النبي ﷺ.

فيصبر النبي ﷺ ويرشده الله إلى أبواب تقوية الصبر وإزالة الضيق، وذلك

---

(١) راجع كنز العمال (رقم ٣٢٥٣، ٣٢٥٥، ٦٧٨٣).

بكثرة التسبيح لله والصلاة تضرعاً إلى الله وشغل النفس بما هو أعلى، ألا وهو الإعداد للقاء الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ** ﴾ [الحجر/٩٧/٩٩].

وهكذا يربي الإيمان فينا الصبر، والصبر يعطينا قوة التحمل والمواجهة ليس مع الناس وأحداث الحياة فقط، بل مع شرور النفس الأمارة بالسوء، لقوله ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[١].

---

(١) أخرجه البخاري (١٠/٥١٨)، ومسلم (٤/٢٠١٤).

١١٩ - إنها الرحمة

دخل عبد الرحمن بن عوف على رسول الله ﷺ وولده إبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان الدمع.

فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه :

حتى أنت يا رسول الله؟!

فقال ﷺ :

«يا ابن عوف، إنها الرحمة».

ثم قال ﷺ :

«إن العين لتدمع ، وإن القلب ليحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا : إنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون».

(*) أخرجه أبو داود (٣١٢٥).

هذا موقف نبوى كريم تتجلى فيه مظاهر الرحمة وأثرها فى العطف على الغير، كيف لا وصاحب الموقف هنا هو من أرسله ربه رحمة لسائر العوالم من إنس وجن، ونبات وطير، وحيوان وجماد، وغير ذلك، قال الله تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء/١٠٧].

ووصفه ربه بالرحمة فى معالجة شئون أصحابه وأمته، قال تعالى :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران/١٥٩].

وظهرت آثار رحمته ﷺ فى شفقته على أمته وخوفه عليها من أن تقع فى مشقة أو ضيق، فكان اليسر والتيسير منهجه، قال تعالى :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة/١٢٨].

ويعلمنا رسول الله ﷺ أن معنى الرحمة ومداها يمتد ليشمل القريب والغريب، وربط بين منسوب الإيمان والرحمة، فقال ﷺ : «لن تؤمنوا حتى تراحموا» (أى : لن تؤمنوا إيمانًا كاملاً)، قالوا : يا رسول الله كلنا رحيم، فقال النبى ﷺ : «إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه، ولكنها رحمة العامة»[١].

ونتعلم من الموقف أن الإسلام لا يصادر المشاعر ولا يمنع العواطف، وإنما يهذبها فى إطار ما يرضى الله عز وجل، ولعل بعض الصحابة حين رأى دموع الحزن من سيدنا رسول الله ﷺ أصابته الدهشة، وقال: حتى أنت يا رسول الله؟ وكأنه يفهم أن العظماء ليس لهم إظهار ذلك، وكأن جمود المشاعر أمام الحوادث من سمة القادة والعظماء، فصحح النبى ﷺ هذا المفهوم وبيّن أن

(١) راجع الترغيب والترهيب (٣/ ٢٠١).

الإنسان لا تصادر مشاعره ولا دموعه ولا عواطفه، وإنما المطلوب أن تجرى هذه المشاعر وتلك العواطف فى حدود ما يرضى الله عز وجل، ولا تدفع الإنسان مع الانفعال بها إلى شىء يغضب الله تعالى.

وهذا هو قول النبى ﷺ : « يا ابن عوف إنها الرحمة، إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا : إنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون ».

اللهم صلِّ على صاحب الخلق العظيم وعلى آله وصحبه وسلم.

١٢٠ - كيف تركتَ أصحابك ؟

دخل شقيق البلخي ﷺ على إبراهيم بن أدهم فقال له : كيف تركت أصحابك يا إبراهيم ؟

قال :

تركتهم إن أعطُوا شكروا وإن مُنِعُوا صبروا .

قال :

هكذا حال العامة .

لقد تركت أصحابي إن مُنعوا شكَروا ، وإن أعطُوا آثروا غيرهم على أنفسهم .

(*) تنبيه الغافلين ، ص ١٨٩ .

هذا موقف كريم يحمل هديًا وفقهًا في واحدة من مكارم الأخلاق التي تبعث في رحاب هدى صاحب الخلق العظيم، الذي بعثه الله ليتمم الله مكارم الأخلاق، نبي الله ورسوله، سيدنا محمد ﷺ، ونتعلم من الموقف أن أصحاب الهمم العالية لهم من مكارم الأخلاق ما يعبر عن كمال إيمانهم بالله وصدق أسوتهم برسول الله ﷺ .

فإذا كان شأن عامة المسلمين أنهم إن أعطوا شكروا وإن مُنعوا صبروا، وهو ما عبر عنه إبراهيم بن أدهم . فإن أصحاب الهمم الإيمانية العالية ومكارم الأخلاق السامية أخلاقهم ترقى إلى مستوى الأحسن والأكمل والأفضل، وهو ما عبر عنه شقيق البلخي بقوله : لقد تركت أصحابي إن مُنعوا شكروا، وإن أعطوا آثروا غيرهم على أنفسهم.

كما يلفت الموقف انتباهنا إلى خلق الإيثار، ولقد مدح الله السابقين الأولين بخلق الإيثار، قال تعالى : ﴿ **وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [الحشر/ ٩].

وقال تعالى : ﴿ **وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا** ﴾ [الإنسان/ ٨].

وفي خلق الإيثار لون من التضحية من أجل الغير رغبة فيما عند الله من خير ومثوبة، قال تعالى :

﴿ **وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ [البقرة/ ١١٠].

ولنا أسوة في خلق الإيثار عند الإمام علي ﷺ حين نام في فراش رسول الله ﷺ ليلة الهجرة فداءً لرسول الله ﷺ . وهكذا يؤثر المسلم غيره على نفسه، ويجود حتى بنفسه، وهذا غاية الجود والإيثار.

فالجودُ بالمالِ جُودٌ فيه مكْرمَةٌ والجودُ بالنَفْسِ أقصَى غايةِ الجودِ

وتقدم لنا السنة النبوية المطهرة الأسوة والقدوة من إيثار الرسول ﷺ وإيثار صحابته الكرام، فعن أبي هريرة ﷺ قال : جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال : إني مجهود . فأرسل إلى بعض نسائه، فقالت : والذى بعثك بالحق ما عندى إلا ماء، ثم أرسل إلى أخرى، فقالت مثل ذلك، حتى قلن جميعًا مثل ذلك : لا والذى بعثك بالحق ما عندي إلا الماء.

قال النبي ﷺ : «من يضيف هذا الليلة ؟ فقال رجل من الأنصار : أنا يا رسول الله، فانطلق به إلى رحله، فقال لامرأته : هل عندك شيء ؟ فقالت : لا، إلا قوت صبياني . قال : علّليهم بشيء وإذا أرادوا العشاء فنوّميهم، وإذا دخل ضيفنا فأطفئي السراج وأريه أنَّا نأكل؛ فقعدوا وأكل الضيف وباتا طاويين (أى جائعين)، فلما أصبح غدا على النبي ﷺ ، فقال : «لقد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة»[١].

---

(١) أخرجه البيهقي (٤ / ١٨٥)، وراجع تخريج الإحياء (٣ / ٢٥٢).

١٢١ - خصلة تستر سائر العيوب

اجتمع قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي، فقال أحدهما لصاحبه: كم وجدت في ابن آدم من العيوب ؟

قال : هي أكثر من أن تحصى، غير أن به خصلة لو استعملها سترت سائر عيوبه.

قال : وما هي ؟

قال : حفظ اللسان.

(*) القراءة الرشيدة، ص ١٩.

هذا الموقف يحمل دلالات تربوية هادية :

الأولى : ما ينبغي أن تكون عليه مجالسنا من الاشتغال بالحوار المفيد، والمناقشة النافعة.

قال الله تعالى : ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [النساء/١١٤].

الدلالة الثانية : أن الموقف يقدم لنا هديًا أخلاقيًا عظيمًا، وهو حفظ اللسان عن كل ما نهى الله عنه من غيبة أو نميمة أو كذب أو إفك أو بهتان، أو قول زور، أو إشاعة فتنة، أو لغو الكلام، والقرآن يبين لنا أن المؤمن معرض عن لغو الكلام، فقال الله تعالى في أوصاف المؤمنين المفلحين:

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون/٣].

وفي الحديث النبوي الشريف، قال النبي ﷺ : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»[١]، وفي الحديث قال النبي ﷺ : «كل كلام ابن آدم عليه لا له، إلا أمر بمعروف أو نهي عن منكر أو ذكر الله عز وجل»[٢].

وقال الحكيم : احفظ لسانك، واعلم أن ذكر الناس داء، وذكر الله عز وجل دواء.

فعلى المؤمن أن ينظر إلى نعمة اللسان القادر على البيان التي ميز الله بها الإنسان، ليستعملها فيما يرضي الله عز وجل من نشر العلم وتعليم القرآن، وذكر الله تعالى، والدعوة إلى الله عز وجل.

الدلالة الثالثة : هي أثر حفظ اللسان في ستر العيوب، فإن الإنسان مخبوء تحت لسانه إذا تكلم ظهر واتضح حاله، وظهرت أخطاؤه.

---

(١) البخاري (٨/١٣، ٣٩/١٢٥)، ومسلم في الإيمان (٧٤).
(٢) الترمذي رقم (٢٤١٢)، والنووي في الأذكار (٢٩٧).

ومن هنا فإن حفظ اللسان عن كثرة الكلام وعن الكلام فيما لا يحسن الإنسان يكون ستراً لعيوبه .

كما أن في الصمت سلامة من فلتات اللسان، وبخاصة في أوقات الغضب والانفعال، فإن جراحات اللسان خطيرة، يترتب عليها قطع المودة وتغير الصدور وشيوع العداوة، هذا بين الناس . أما عند الله تعالى فقد يتكلم العبد بالكلمة من سخط الله عز وجل فتودى به في جهنم وبئس المهاد .

١٢٢ - موائد علمية

نزل بأبي الدرداء ضيف ، فقال له أبو الدرداء :

أما إني لا أجد ما أضيفك به أفضل من شيء سألت عنه رسـول الله ﷺ قلت : يا رسـول الله . ذهب أهل الدثور بالأجور ، يصومون كما نصوم ، ويصلون كما نصلي ، ويتصدقون وليس لنا أموال نتصدق .

فقال النبي ﷺ :

«يا أبا الدرداء ، ألا أدلك على شيء إن أنت فعلته لم يسبقك من كان قبلك ولم يدركك من كان بعدك إلا من جاء بمثل ما جئت به ؟ تسبح الله في دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين ، وتحمده ثلاثًا وثلاثين ، وتكبره ثلاثًا وثلاثين» .

(*) راجع سنن الترمذي ، كتاب الصلاة ، باب ما جاء في التسبيح في أدبار الصلاة (٢/٢٦٤ - ٢٦٥) .

هذا موقف تربوى كريم، يقدم لنا هديًا تشتد الحاجة إليه فى عالم طغت فيه وعليه المادة. فإن كانت عادة الناس قد جرت على أن يقدم للضيف ما لذ وطاب من الطعام والشراب، فهذا الموقف يلفت انتباهنا إلى نوع آخر من كرم الضيافة وهو كرم أبقى أثرًا وأنفع من كرم الطعام والشراب. فإن كان الطعام والشراب غذاءً للأبدان فإن موائد العلم النافع الذى يقربنا إلى الله تعالى - غذاء الأرواح والعقول.

ومن هنا عَدَّ أبو الدرداء ﷺ الزاد العلمى زادًا لا يفضله آخر مما تعارف عليه الناس.

وهذه نظرة تأكدت لدى هذا الصحابى، وكثيرًا ما كان يلفت انتباه المسلمين إليها، فها هو يقف يومًا أمام الكعبة، ثم ينادى : أيها المسلمون، أليس إذا أراد أحدكم سفرًا استعد له بزاد؟ قالوا : بلى، فقال لهم : فسفر الآخرة أبعد ما تسافرون، فقالوا له: دُلنا على زاده.

فقال لهم : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «حجوا حجة لعظائم الأمور، وصلوا ركعتين فى ظلمة الليل لوحشة القبور، وصوموا يومًا شديد الحر لطول يوم النشور»[١].

وأبو الدرداء قد استمد هذا الفهم من هدى القرآن الكريم. قال الله تعالى: ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة/١٩٧].

فهذا هو الزاد الحقيقى الذى يبقى ويصل معنا إلى القبر وعند الحساب.

أما زاد الدنيا من أملاك وطعام وشراب ونحو ذلك فيتخلف عنا، يرثه الناس ونحاسب عليه بين يدى الله تعالى.

وفى الحديث، قال النبى ﷺ : «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من

---

(١) راجع الاستيعاب (ترجمة أبى الدرداء).

ثلاث : صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له »[١] .

ومن دروس الموقف أيضاً ما أشار إليه الحديث النبوى عن فضل المحافظة على التسبيح والتحميد والتكبير ثلاثًا وثلاثين فى دبر كل صلاة، وأنه يرفع منزلة الإنسان عند الله درجات عالية لا يدانيه ولا يساويه فيها إلا من عمل مثل عمله . وفضل الله أوسع .

---

(١) الترمذى (رقم ١٣٧٦)، وأصله عند مسلم فى (الوصية ١٤) .

١٢٣ - هيبة الإسلام

صحب أبو عبيدة بن الجراح عمر بن الخطاب - رضى الله عنهما - إلى الشام، وكان بينهما مناوبة لركوب الدابة، وعلى مشارف الشام جاء الدور على عمر ليمشى على الأرض، فقال له أبو عبيدة :

يا عمر، أخشى من نظر أهل الشام إلينا، أنت تمشى بينما أنا راكب.

فقال له عمر :

نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فلا نبالى بمقالة الناس فينا.

(*) أخرجه البخارى تعليقًا.

إن هذا الموقف يظهر لنا تماسك الأمة واعتزازها بإسلامها في مواجهة الآخر فلا تذوب فيه ولا تقلده تقليداً أعمى، وإنما هي في المقدمة دائماً؛ لأنها الأفضل فهي خير الأمم، قال الله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران / ١١٠].

لكن واقع أمتنا ليس كذلك، فما الذي نزع هيبة الأمة ؟ وما الذي حرمنا مما كانوا عليه من بركات وفيوضات؟ وكيف هُنّا ؟؟!!!

هذه تساؤلات حول واقع أمتنا . ويجيبنا النبي ﷺ كي تدرك موضع الخلل وأسباب الضعف والهوان والفرقة والتمزق، والاختلاف . بقوله ﷺ : «إذا عظمت أمتي الدينار والدرهم نزعت منها هيبة الإسلام، وإذا تركت أمتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حرمت بركة الوحي، وإذا تَسَابَتْ أمتي سقطت من عين الله»(١).

نعم حين فتنا بالأموال والماديات ولم نعمل لبناء ورفعة الأمة، حين قدمنا المصالح الشخصية على المصلحة العامة للأمة، حين أهملنا حق الله عز وجل فينا في العبادات والمعاملات، وأصبح الطموح والأمل مرتبطاً بالملذات والشهوات، أصابنا الضعف وتداعت علينا الأمم . قال النبي ﷺ : «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها»، فقال قائل : أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال ﷺ : «بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن»، قالوا : وما الوهن ؟ قال ﷺ : «حب الدنيا وكراهية الموت»(٢).

وحين ضعفت منا الاستجابة لهدى قرآن الله وسنة نبيه حرمنا بركة الوحي بركة القرآن والسنة؛ لأن الله تعالى جعل بركته منوطة بالإيمان والتقوى، قال

---

(١) راجع إتحاف السادة المتقين (٤ / ٥١٥).
(٢) البخاري في مناقب عمر.

تعـالى : ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾ [الأعراف/٩٦].

وحين تبادلنا الاتهامات واختلفنا وتمزقنا وأخذ بعضنا يتتبع عيوب بعض، حرمنا تأييد الله لنا، فسباب المسلم فسوق وقتاله كفر، ومن تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته فضحه ولو في جوف بيته كما أخبر المعصوم ﷺ(١)، وحين أصاب شبابنا التغريب بالتقليد الأعمى بدلاً من أن نقوم بدورنا في التأثير في غيرنا.

قال الله تعالى : ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ [الرعد/١١].

ورأينا في الموقف أن سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ يرد أبا عبيدة بن الجراح ﷺ إلى منطق الإيمان حيث تكون العبرة بالله وبرسوله ﷺ، فقال عمر : «نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فلا نبالي بمقالة الناس فينا».

(١) أخرجه البخاري (١/١٩، ٨/١٨، ٩/٦٣)، ومسلم الإيمان ب ٢٨، رقم ١١٦.

١٢٤ - أفلا أكون عبداً شكوراً ؟!

قام النبى ﷺ من الليل، وتوضأ فأسبغ الوضوء، ثم قام يصلى فأطال القراءة، وأطال الركوع، وأطال السجود، فلما رأت السيدة عائشة - رضى الله عنها - حال رسول الله ﷺ من التبتل والخشوع وطول القيام من الليل حتى تفطرت قدماه، قالت :

يا رسول الله، لِمَ تصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟

فقال ﷺ :

«يا عائشة ، أفلا أكون عبداً شكوراً ؟!».

(*) البخارى (٦ / ١٦٩).

هذا موقف نبوى كريم، يقدم لنا الأسوة والقدوة، فى القيام بواجب العبودية لله رب العالمين، فهو ﷺ سيد العابدين وإمام الخاشعين، خاطبه ربه بقوله : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر/٩٩].

صلى الله وسلم على سيدنا محمد، فلم تمنعه مشاغله عن وقوفه بين يدى ربه إذا أرخى الليل سدوله، وغارت النجوم ونامت العيون.

وما أكثر المشاغل التى كانت عند رسول الله ﷺ : مشاغل الحياة، والدعوة، وبناء الأمة، ومواجهة الأعداء من اليهود ومن والاهم، ومواجهة المنافقين. كل ذلك لم يشغل رسول الله ﷺ عن التبتل والخشوع والقيام تضرعًا لله تعالى، وهو ﷺ لا يؤدى ذلك لمجرد الامتثال فقط لأمر الله تعالى، بل بدافع من الشوق والحب، كان النبى ﷺ يتشوق ويحن للقاء ربه، وهو القائل ﷺ : « وجعلت قرة عينى فى الصلاة »(١).

ويعلمنا النبى ﷺ من خلال هذا الموقف أن نقابل نعم الله علينا بالشكر، وذلك لقوله ﷺ : « يا عائشة، أفلا أكون عبداً شكوراً ؟! ».

كما يعلمنا النبى ﷺ من خلال هذا الموقف أن المؤمن يطيل الصلاة إذا كان وحده، ويطيل قراءتها وركوعها وسجودها، أما إذا صلى بالناس فالتخفيف سنته ﷺ مراعاةً لأحوال الناس من المرضى وأصحاب الحاجات ونحوهم.

قال ﷺ : « من صلى بالناس فليخفف؛ فإن فيهم الضعيف والمريض وذا الحاجة ... »(٢).

فما بال بعض الناس الذين إذا صلُّوا بالناس جماعة أطالوا، وإذا صلى الواحد منهم نافلة منفرداً أسرع وقصر ... إن هذا مخالف لهديه ﷺ.

---

(١) الشفا للقاضى عياض ١ / ١٢٠ ..
(٢) أخرجه البخارى (٣٠٧)، ومسلم (٤٦٧).

ولقد علمنا رسول الله ﷺ أن الحياة إنما تكون لله وبالله، فكل الأنفاس وكل الحركات وكل الأقوال والأفعال لله. هكذا علمه ربه، قال الله تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام / ١٦٢].

كما يعلمنا الموقف ألا نركن إلى شهادات الثناء والتقدير، بل ينبغي أن يكون ذلك دافعًا لنا إلى مزيد الإحسان والإجادة.

ويرشدنا الموقف أيضًا إلى فضل قيام الليل، وهو هدى نبوى كريم، قال رسول الله ﷺ :

« أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام »[١].

---

(١) سبق تخريجه.

١٢٥ - رسول الله ﷺ يحبك

زار النبي ﷺ والصحابة معه البقيع، فسلم عليهم ودعا لهم، ثم قال ﷺ :

«وددتُ أنّا قد رأينا إخواننا».

فقالت الصحابة :

أو لسنا إخوانك ؟

فقال ﷺ :

«أنتم أصحابي، أما إخواني فقوم لم يأتوا بعد، آمنوا بي ولم يروني».

(*) مسلم في الطهارة (٣٩)، أحمد (٢/٤٠٨).

هذا موقف نبوى يحمل للأمة حبًا وودًا من رسول الله ﷺ ، وأن نحب رسول الله ﷺ فهذا شرع وفرض، أما أن يحبنا رسول الله ﷺ فهذا شرف وفضل . ولقد أكد القرآن الكريم حب رسول الله ﷺ لأمته وحرصه عليها .

قال الله تعالى : ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [التوبة/١٢٨] .

ومن حب النبى ﷺ أن الله أعطى كل نبى دعوة مستجابة فتعجل كل نبى دعوته، وادخر النبى ﷺ دعوته شفاعةً لأمته يوم القيامة .

والنبى ﷺ فى آخر حياته ينزل عليه جبريل، والنبى ﷺ يقول : «أمتى أمتى» ، فيقول له جبريل : سنرضيك فى أمتك ولا نسوؤك . فقال النبى ﷺ : «يا رب وأنا لا أرضى وواحد من أمتى فى النار»(١) .

ومن حب الرسول ﷺ لأمته أنه كان فى بداية الإسلام لا يصلى على من عليه دَيْن، فلما اتسع بيت المال كان يقول : «من ترك دَيْنًا فعلىَّ، ومن ترك مالاً فلورثته»(٢) .

قال الله تعالى : ﴿ **النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ** ﴾ [الأحزاب/٦] .

وإذا كان هذا الحب عامًا لكل الأمة، فقد زاد عليه رسول الله ﷺ حبًا خاصًا لمن آمن به ولم يره .

ولقد سألت الصحابة رسول الله ﷺ : وكيف تعرف يوم القيامة من آمن بك ولم يرك ولم تره يا رسول الله ؟

فأجاب النبى ﷺ : «أرأيتم لو أن رجلاً له خيلٌ غُرٌّ محجلة (ومعنى غُر، أى : بمقدمة وجهها بياض بالجبهة، ومعنى محجلة : أى بالقوائم الأمامية

---

(١) رواه الطبرى فى التفسير غير مرفوع .

(٢) رواه أحمد (٢/ ٢٩٠، ٣/ ٢٦٩)، وأصله فى الصحيحين.

بياض أيضًا) بين ظهراني خيل دُهْم بُهْم (أي : سوداء سوادًا خالصًا) ألا يعرف خيله ؟» فقالت الصحابة : بلى يعرف الرجل خيله، فقال النبي ﷺ : «فإنهم يأتون غرًا محجلين من الوضوء»(١)، حيث تأتي أعضاء الوضوء يشع منها نور يَعْرِفنا به حضرة النبي ﷺ يوم القيامة.

ومن دلالات الموقف أيضًا : أدب زيارة القبور، فمع تحصيل العظة والعبرة من الزيارة، ينبغي الدعاء لهم تأسيًا برسول الله ﷺ . فإذا دخل المقابر سلم عليهم قائلاً : السلام عليكم ورحمة الله، ثم يدعو لهم : أنتم السابقون ونحن اللاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية.

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٣٠٦).

١٢٦ - هل عاملته ؟

سمع عمر بن الخطاب ﷺ رجلاً يُزَكِّي رجلاً ويثني عليه، فقال له سيدنا عمر ﷺ : هل تعرفه؟

فقال الرجل: نعم.

فقال عمر : لعلك رأيته يطيل السجود في المسجد.

فقال الرجل : نعم.

فقال سيدنا عمر : هل عاملته ؟

فقال الرجل : لا.

فقال سيدنا عمر : إذًا فأنت لا تعرفه.

(*) جامع العلوم والحكم (٣ / ١٢١).

هذا الموقف يحمل دلالات تربوية هادية منها :

أهمية جانب السلوك الاجتماعي في تقييم الأفراد، فسيدنا عمر ﷺ نبه الرجل إلى أن المعرفة الحقيقية بالناس لا تتأتى فقط بمعرفة أنهم عُبّاد، ولكن بصلاحهم في معاملاتهم الاجتماعية بين الناس.

ولقد رفع الإسلام من شأن الواجبات الاجتماعية فجعل رتبتها تلي رتبة الإيمان بالله تعالى، قال الله تعالى:

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ [الماعون/ ١ : ٣].

وقال الله تعالى : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ [الحاقة/ ٣٠ : ٣٤].

كما ربط الإسلام بين العبادة والسلوك الاجتماعي في الإسلام، فامرأة عابدة كانت تكثر الصلاة والصيام ولكنها تؤذي جيرانها بلسانها، قال عنها رسول الله ﷺ : «هي في النار» وأخرى لا تصلي إلا الفرائض ولا تصوم إلا رمضان، لكنها أحسنت المعاملة لجيرانها، فقال رسول الله ﷺ : «هي في الجنة»[١].

إن العبادة لها عظيم الأثر في تصفية النفوس وإعانة العبد على فعل الخيرات والإحسان لإخوانه.

ومن دلالات الموقف أيضًا عدم التسرع في تقييم أحد إلا بعد معاملته، كي يتم التقييم بأسلوب علمي يتسم بشمول جوانب الشخصية، ويستوفي العناصر الأساسية، ويقوم على أسس وحقائق، ولا يقوم على الهوى أو الرؤية الشخصية، أو الإحساس الفردي.

(١) سبق تخريجه.

ولذلك لم يقبل سيدنا عمر تقييم الرجل، وقال له: أنت لا تعرفه.

ومن دلالات الموقف أيضاً أن المؤمن كَيِّس فطن حذر، يحترس من الناس، فكم أصاب الأذى أناساً بسبب فرط ثقتهم بمن ليسوا أهلاً للثقة، ومن وصايا القرآن لأهل القرآن قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا**﴾ [النساء/ ٧١].

١٢٧ - قَلَّ صبرى عنك يا رسول الله !!

كان ثوبان ﷺ شديد الحب لرسول الله ﷺ، قليل الصبر عنه، فأتاه يومًا باكيًا قد تغيّر لونه، فسأله النبى ﷺ عن سبب تغير لونه، فقال :

يا رسول الله، ما بى مرض ولا وجع، غير أنى أستوحش وحشة شديدة إن لم أرَكْ، ثم أتذكر أمر الآخرة وأنك تُرفع مع النبيين فأنَّى لى برؤيتك ؟!.

فأنزل الله تعالى :

﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء/٦٩].

(*) راجع تفسير الطبرى.

هذا الموقف يقدم لنا دلالات هادية في رحاب محبة المصطفى ﷺ وما كان عليه أصحابه من الحب والود له:

● الدلالة الأولى: هذا التعلق العظيم وهذه العاطفة الودودة من الصحابة لرسول الله ﷺ، لقد أحبوه ﷺ حبًا تجاوز أولادهم وأموالهم بل وأنفسهم، وأورثهم هذا الحب حلاوة الإيمان بالله تعالى. وفي الحديث: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار»(١).

● الدلالة الثانية: التأسي برسول الله ﷺ في سؤال المسلم عن إخوانه للاطمئنان عليهم إذا ظهر له من حالهم ما يستوجب السؤال، ويظهر هذا من قول النبي ﷺ لثوبان لما تغير لونه: ماذا بك ؟

● الدلالة الثالثة: التأسي برسول الله ﷺ في عدم التعجل في الفتوى والإجابة، وأن هناك أسئلة جوابها عند الله تعالى لا يملكه بشر مهما كان علمه، ورأينا في الموقف أن رسول الله ﷺ سكت حتى جاءت الإجابة وحيًا من عند الله تعالى، وأنزل الله على قلب نبيه ﷺ قرآنًا يُتلى.

● الدلالة الرابعة: ما تحمله الآية التي نزلت في هذا الموقف من عبر وعظات، حيث أكدت الآية حقيقة مهمة، وهي أن الحب ليس كلامًا ولا مشاعر جوفاء، وإنما هو مشاعر صادقة تدفع صاحبها إلى الاستجابة لهدى الله تعالى والتأسي بحضرة النبي ﷺ وإلا فما أرخص الحب إن كان كلامًا.

ولقد جعل الله استجابة المؤمن وطاعته لربه وتأسيه برسول الله ﷺ من وسائل الفوز بالرفقة المباركة مع النبيين والشهداء والصالحين يوم القيامة،

---

(١) سبق تخريجه.

فقال الله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء/٦٩].

١٢٨ - لا تَعْدُ عَيناك عنهم

دخل عيينة رئيس قومه على النبي ﷺ وعنده صهيب وسلمان الفارسي وبلال بن رباح وعليهم ثياب خلِقة، فقال عيينة للنبي ﷺ :

إن لنا شرفًا، فإذا دخلنا عليك فأخرج هؤلاء واجعل لنا مجلسًا.

فأنزل الله تعالى على نبيه ﷺ :

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [الكهف/ ٢٨].

XXX (*)

هذا موقف حسبه شرفًا أن الله أنزل فيه قرآنًا يُتلى، ولنا فيه دلالات هادية وعبر نافعة:

● في غيبة الإيمان يتعاظم الشعور عند الإنسان بالتعالي والتفاخر بالقبلية أو بالمال أو بالسلطان، وهذا ما ظهر من عيينة وقومه، وذلك من قولهم: إن لنا شرفًا، فإذا دخلنا عليك فأخرجه هؤلاء واجعل لنا مجلسًا.

أما في الإسلام فلا مكان للتباهي أو التعالي والتفاخر بالماديات حيث لا يكتسب الإنسان قيمته مما يملك أو ينتسب إليه من شئون الدنيا، وإنما بتقواه وعلمه ونفعه لمجتمعه، قال الله تعالى:

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ [الحجرات/١٣]. فالذي يضعه في المقدمة عند الله تعالى الإيمان والتقوى.

● ومن عبر الموقف ما أرشدت إليه الآية الكريمة: ﴿ **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا** ﴾.

حيث تشير الآية إلى أن الطاعة تجعل الإنسان كريمًا على الله تعالى، وقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يصبر نفسه مع هؤلاء الفقراء؛ لأنهم يدعون ربهم ليل نهار بإخلاص وحب لله تعالى، وأمر الله نبيه ألا يهملهم لخاطر عرض الأغنياء.

ونهاه عن صحبة أصحاب الأهواء المضلة.

● ومن دلالات الموقف أيضًا تنبيه الدعاة والعلماء من ورثة الأنبياء أن يحذروا عروض الإغراء التي تُعرض عليهم لتحولهم عن غايتهم ومقصودهم مهما بدت هذه العروض برّاقة لامعة؛ فالداعية لا يقول ما يرضى الناس، بل ما يرضى الله تعالى.

١٢٩ - إذًا تُكْفَى همَّك

قام النبي ﷺ من الليل يصلي، ثم قال :

«يا أيها الناس اذكروا الله، جاءت الراجفة، جاء الموت بما فيه».

فقال أبي بن كعب ؓ : يا رسول الله :

إني أكثر الصلاة فكم أجعل لك من صلاتي ؟

قال النبي ﷺ : «ما شئت».

قال أبي بن كعب : أجعل لك الربع.

قال النبي ﷺ : «ما شئتَ، وإن زدتَ فهو خير لك».

قال أبي بن كعب : أجعل لك الثلث.

قال النبي ﷺ : «ما شئت، وإن زدت فهو خير لك».

فقال أبي بن كعب : أجعل لك صلاتي كلها.

فقال النبي ﷺ : «إذًا تكفى همك، ويغفر لك ذنبك».

(*) أخرجه أحمد (٥/١٣٦)، والترمذي (٢٤٥٧) وقال : حديث حسن صحيح.

هذا موقف نبوى كريم يقدم لنا دروسًا تربوية هادية، كما يبين لنا فضل الصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ، فأما عن فضل الصلاة والسلام على الرسول ﷺ، فحسبنا فيها أن الله تعالى أمر أمرًا فى القرآن بدأ فيه بذاته العليَّة وثنى بملائكة قدسه، وثلث بالمؤمنين من إنسه وجنه، فقال تعظيمًا وتكريمًا لحضرة النبى ﷺ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب/٥٦].

ويكفى المصلى على رسول الله حديث النبى ﷺ : «من صلى علىّ صلاة صلّى الله عليه بها عشرًا»(١)، وقوله ﷺ : «أولى الناس بى يوم القيامة أكثرهم علىّ صلاة»(٢).

وفى الموقف نرى أن النبى ﷺ بشّر من جعل مجلس ذكره كله الصلاة والسلام على النبى ﷺ أن يكفيه الله همه، وأن يغفر له ذنبه.

وذلك قوله لسيدنا أبى بن كعب ﷺ : «إذًا تكفى همك ويغفر لك ذنبك».

أما بشأن الدروس التربوية فى الموقف :

فهى التربية عن طريق إثارة الحب والرغبة فى الشيء والاقتناع به، عن طريق إظهار النفع والثمرة التى تعود على فاعله والملتزم به، بدلاً من أن يُفرض إجبارًا فتنفر منه النفس. ويظهر هذا من قول النبى ﷺ لأبى بن كعب، إجابة عن سؤاله المتكرر : كم أجعل لك من صلاتى؟ أى من ذكرى ودعائى.

فكان جواب النبى ﷺ : «ما شئت ، وإن زدت فهو خير لك».

---

(١) رواه مسلم (٤٠٨)

(٢) رواه الترمذى (٤٨٤) وقال : حديث حسن.

فقوله : « ما شئت »، يترك له الرغبة والاختيار، وقوله : « وإن زدت فهو خير لك »، يشوِّقه ويقنعه بالزيادة لما فيها من خير وفلاح .

وهذا أسلوب تربوى تشتد الحاجة إليه فى عصرنا مع الأبناء والطلبة، وذلك لأن الأوامر الصارمة والإجبار والإكراه على الفضيلة لا يصنع مؤمنًا، وإنما سبيل الإقناع بمخاطبة العقل، وسبيل التأثير على العواطف والمشاعر بإظهار المحاسن هو السبيل المفيد والمثمر فى إنجاز بناء الأجيال بناءً إيمانيًا كما يحب ربنا ويرضى .

١٣٠ - لو كان فى سبيل الله

رأى الصحابة شابًا جلدًا قويًا يخرج كل يوم قبل صلاة الفجر ليحتطب، ويستمر طوال يومه فى عمله الدؤوب، ولا يعود إلا بعد صلاة العشاء.

فقال الصحابة فى شأن هذا الشاب : «لو كان شبابه وجلده وقوته فى سبيل الله لكان خيراً له».

فسمع النبى ﷺ مقالتهم، فقال لهم : «لو كان يسعى على أولاده فهو فى سبيل الله» وعدّ النبى ﷺ أموراً كلها فى سبيل الله.

(*) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله ، كالذى يقوم بالليل ويصوم بالنهار» [رواه البخارى (٦ / ١٨٩) ، ومسلم (٨ / ٢٢١)].

هذا الموقف يصحح فيه سيدنا محمد ﷺ مفهومًا خاطئًا شاع بين الناس قديمًا وحديثًا، وهو اقتصار مفهوم العمل الصالح والعبادة على الشعائر الإسلامية المعروفة كالصلاة والصيام والزكاة والحج.

وعلمنا النبي ﷺ أن معنى (في سبيل الله) يمتد ليشمل الأعمال النافعة الحلال التي نقوم بها في دنيانا لتحصيل الأرزاق وعمارة الدنيا وكفاية الحاجة.

وقد رأينا في الموقف موضوع الحديث أن النبي ﷺ عَدَّ عمل الشاب وسعيه من أجل أسرته عبادة في سبيل الله يثاب عليها من الله عز وجل.

والقرآن الكريم يؤكد هذا المفهوم الإيماني، قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الحج / ٧٧].

فجاء ذكر فعل الخير عامًا وشاملاً في سياق ذكر العبادات المشهورة كالسجود والركوع، وفي هذا تعظيم لقيمة العمل وعمارة الدنيا وبناء الأمة بالحلال الطيب.

ولقد جعل الله السعي على المعاش سببًا من أسباب المغفرة، لقوله ﷺ : « من أمسى كالاً من عمل يده أمسى مغفوراً له »[١].

كما يستفاد من الموقف الهمة العالية في إنجاز الأعمال، فالتبكير والمواصلة في العمل سبيل لإنجاز الأعمال، وقد دعا النبي ﷺ للمبكرين إلى أعمالهم، فقال ﷺ : « اللهم بارك لأمتي في بكورها »[٢].

---

(١) راجع الترغيب والترهيب (٢ / ٥٢٤).
(٢) الترمذي (١٢١٢)، وأبو داود (٢٦٠٦).

١٣١ - خذ الخلافة وأرحني منها

جاء رجل إلى الخليفة أبي بكر الصديق ﷺ في حاجة، فوجهه إلى عمر بن الخطاب ﷺ فمنعه عمر لعدم استحقاقه، فرجع الرجل ناقمًا، وقال كذبًا لأبي بكر:

يا خليفة رسول الله، منعني عمر وما احترم لك رأيًا ولا سمع لك قولاً، وقال: إنه أحق منك بالخلافة.

فدعا أبو بكر عمر بن الخطاب وقال له:

يا عمر ألم أقل لك: خذ الخلافة وأرحني منها؟!

فقال عمر ﷺ:

والله ما أجد أحق بها منك، وإنما منعت الرجل لكذبه.

(*) الخلفاء الراشدون، ص ٨١.

هذا الموقف يحمل دلالات هادية ودروساً نافعة :

● الدرس الأول : درس في أسلوب الإدارة إذا ازدحمت الأعباء وجاوزت حد الطاقة، فللإنسان المسئول أن يلجأ إلى تفويض غيره ليقوم بمهام الوظيفة، كي لا تتعطل المصالح، وكي تسير الأمور في نصابها، وقد استفادت الإدارة الحديثة من أسلوب التفويض في إنجاز الأعمال وتدبير الأمور.

وقد رأينا خليفة رسول الله ﷺ يرسي هذه القاعدة حين وجه صاحب الحاجة إلى سيدنا عمر ليقوم بما ينبغي له.

● الدرس الثاني : عدم التسليم لصاحب الحاجة وطالب المصلحة دون بحث وتمحيص كي تصل الصدقات إلى أصحابها ولا يحجبها أهل المكر والحيلة ومحترفو التسول، فإن ثبت صدقهم أُعطُوا وإلا فلا. وهذا ما صنعه سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الموقف.

● الدرس الثالث : التبين إذا ما جاءنا من يريد إفساد العلاقات، فسيدنا أبو بكر دعا سيدنا عمر - رضي الله عنهما - ليتثبت من كلام الرجل.

وهذا هدى قرآني كريم، قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ [الحجرات / ٦].

● الدرس الرابع : هو هذه الروح الودودة التي تحدث بها سيدنا أبو بكر مع سيدنا عمر، حيث إن عبارته وضحت للرجل - الذي أساء وأراد أن يفسد لما لم يعط ما طلب - أن ما بين الرجلين (أبي بكر وعمر) رابطة عظيمة لا تنال منها نميمة ولا إفك، فقد قال أبو بكر لعمر : يا عمر، ألم أقل لك خذ الخلافة وأرحني منها ؟!

• الدرس الخامس : الإحساس بالمسئولية وهمّها الثقيل، وأنها أمانة، ويظهر هذا الإحساس من قول أبي بكر ﷺ : ارحني منها.

ويظهر من هذا أن صحابة النبي ﷺ لم يكونوا حريصين على الإمارة، بل كانوا يتورعون عنها إلا إذا كُلفوا بها، لعلمهم بقول النبي ﷺ : «إنكم ستحرصون على الإمارة وإنها يوم القيامة خزى وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها»[١].

---

(١) أخرجه البخارى (٩ / ٧٩).

١٣٢ - إنى لأخشاكم لله

جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادته . فلما أخبروا بها كأنهم تقالُّوها ، فقالوا :

أين نحن من النبى ﷺ ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

قال أحدهم :

أما أنا فأصلى الليل أبدًا ، وقال آخر :

أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال الثالث :

وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا .

فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال :

«أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى» .

(*) البخارى (٧ / ٢) ، ومسلم فى النكاح (٥) .

هذا الموقف يحمل فقهًا تشتد الحاجة إليه في حياتنا المعاصرة، ومن أهم دلالاته: النهي عن الغلو في الدين، كما يشير إلى أن التيسير من هدى المصطفى ﷺ. أما الغلو في الدين فقد نهى القرآن عنه، فلا نبالغ ولا نتجاوز الحد ولا نتشدد.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة/٧٧].

وقال النبي ﷺ: «إياكم والغلو في الدين؛ فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين»(١).

والموقف الذي بين أيدينا يعالج الغلو والتشدد بشكل مقنع، فقد كان الدافع وراء غلو هؤلاء أنهم رأوا اجتهاد رسول الله ﷺ في العبادة على الرغم من أن الله غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

وأحسوا أنهم دون رسول الله ﷺ بكثير، يظهر هذا من قولهم: وأين نحن من رسول الله ﷺ؟، وظنوا أنهم بتشددهم وغلوهم سيكونون أكثر قربًا من الله وتعبدًا، فأزال النبي ﷺ هذه الشبهة من تفكيرهم بقوله ﷺ: «إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني».

وهكذا يظهر من هدى رسول الله ﷺ التيسير على الأمة، والله تعالى أخبر عن حبيبه النبي ﷺ أنه يعز عليه أن تقع أمته في مشقة وأنه حريص على الأمة. قال الله تعالى:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم

---

(١) أخرجه أحمد (١/٣٤٧)، ومسلم (الحج ٢١٠).

بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة / ١٢٨].

وقال النبي ﷺ : «إن هذا الدين يسر لا عسر فيه، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه»[١].

وتخبر السيدة عائشة – رضي الله عنها – أن النبي ﷺ ما خُير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس عنه»[٢].

---

(١) أخرجه لنسائي (٨ / ١٢٢)، والبيهقي (٣ / ١٨).
(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٨٥).

١٣٣ - متى عهدتني فاحشًا ؟!

استأذن رجل على رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ عنه :

«بئس أخو العشيرة»، فلما جلس هَشَّ وبَشَّ وانبسط إليه، فلما انطلق قالت السيدة عائشة - رضي الله عنها - : يا رسول الله، حين رأيت الرجل قلت : بئس أخو العشيرة !! ثم تطلَّقت في وجهه وانبسطت إليه ؟!

فقال النبي ﷺ :

«يا عائشة، متى عهدتني فاحشًا ؟! إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة : من تركه الناس اتقاء شره».

(*) ذكره الحافظ في الفتح (١٠ / ٤٧١).

هذا موقف نبوى كريم يحمل دلالات هادية، منها :

ما يعلمنا النبى ﷺ، وهو كيف نسلم من أهل السوء والأذى، فلا نجاريهم فى سوء قولهم أو فعلهم، بل المؤمن يصون لسانه وخلقه عما يغضب الله عز وجل.

ومن هدى النبى ﷺ قوله : «ليس المؤمن بطعان ولا لعان ولا فاحش ولا بذىء»(١).

ولعل السيدة عائشة – رضى الله عنها – كانت تنتظر أن يعامل رسولُ الله ﷺ الرجل – الذى وصفه بأنه بئس أخو العشيرة – بقسوة وشدة، فلما رأت حسن معاملة رسول الله ﷺ له، سألت تطلب تفسيرًا للموقف، فوضح له النبى ﷺ أنه صنع ذلك اتقاء فحشه وشره، كما بيَّن لها أنه رسول الله ﷺ ولا يجوز به أن يخرج منه ما لا يليق، فقال لها ﷺ : «يا عائشة، متى عهدتنى فاحشًا؟» لقد كان خلق رسول الله ﷺ القرآن، ولم يكن رسول الله ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا ولا صخَّابًا فى الأسواق، ولكنه يعفو ويصفح.

وكان ﷺ أحسن الناس خلقًا، ولا يجزى السيئة بمثلها. وكان يحب الرفق فى شأنه كله ﷺ، كيف لا، وقد بعثه الله ليتمم مكارم الأخلاق ووصفه ربه بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم/ ٤].

ومن دلالات الموقف أيضًا الحذر من إرهاب الناس وتخويفهم؛ فإن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره وفحشه، فالضرر بالناس عاقبته وخيمة وعقابه عند الله أليم.

ومن دلالات الموقف أيضًا ألاَّ نقابل السيئة بالسيئة، وإنما ندفع بالتى هى أحسن، وهذا هدى قرآنى.

---

(١) سبق تخريجه.

قال الله تعالى :

﴿ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ [فصلت/٣٤].

١٣٤ - لا تعينوا الشيطان

أتى النبي ﷺ برجل قد شرب الخمر، فأمر النبي ﷺ الصحابة أن يضربوه، فضربوه، فمنهم الضارب بيده، ومنهم الضارب بثوبه، فلما انصرف الرجل قال بعضهم له : أخزاك الله، فغضب النبي ﷺ وقال :

«لا تقولوا هذا، لا تعينوا عليه الشيطان».

(*) البخاري (٨/ ١٩٦).

هذا موقف نبوى كريم، يقدم فيه النبى للأمة درسًا فى التربية وأسلوب معاملة المخالفين والعصاة، كيف لا وهو ﷺ الذى قال : «إن الله لم يبعثنى معنتًا ولا متعنتًا، ولكن بعثنى معلمًا ميسرًا».

بل كانت الحكمة منهجه، واللين فى القول طريقته، والتيسير على الناس هديه. ورأينا فى الموقف أن رسول الله ﷺ أمر بضرب هذا الرجل عقوبة وزجرًا له، وهذا نوع من العلاج، لكن النبى ﷺ لم يوافق على شتم الرجل أو الدعاء عليه؛ لأن سب الرجل والوقوع فيه من باب التشديد المخالف لسماحة الدين ويسره، وقال النبى ﷺ : «لا تعينوا عليه الشيطان».

وهنا نتعلم من رسول الله ﷺ الحرص على المخالف والأخذ بيده ليعود إلى صوابه، ويرجع إلى هدى ربه تعالى. وهذا من هدى المصطفى ﷺ : لا يعامل العاصى بالتكفير، وإنما إن عوقب فأقيم عليه الحد فهو كفارة له وطهر وتطهير للمجتمع، ومن ستر الله عليه وتاب فهو إلى الله، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له.

فعن عبادة بن الصامت ﷺ قال : كنا عند رسول الله ﷺ فى مجلس، فقال : «بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا» وقرأ قول الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [الممتحنة/١٢].

ثم قال ﷺ : «فمن وفَّى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله عليه، إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه»[1].

---

(١) أخرجه البخارى (١/١١، ٥/٧٠، ٨/١٩٨).

ومعاوية بن الحكم السلمي ﷺ أثناء صلاته شمت رجلاً عطس، ولم يكن يعلم حرمة الصلاة، بمنع الكلام فيها، فتعجب الصحابة من أمره، فمنهم من يضرب فخذه، ومنهم من ينظر إليه بشدة، فلما انتهى معاوية بن الحكم من صلاته ناداه النبي ﷺ وقال له : «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس»[١]، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن.

فقال معاوية بن الحكم : والله ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا من رسول الله ﷺ، فو الله ما نهرني ولا ضربني ولا شتمني.

---

(١) أخرجه مسلم (٣٨١).

١٣٥ - هلاَّ جلست فى بيت أبيك ؟!

استعمل رسول الله ﷺ رجلاً على صدقات بنى سليم، فلما جاء إلى رسول الله ﷺ وحاسبه النبى ﷺ ، قال لرسول الله ﷺ :

هذا الذى لكم وهذه هدية أهديت إلىَّ.

فقال رسول الله ﷺ :

«فهلاَّ جلست فى بيت أبيك وأمك حتى تأتيك هديتك»!!

(*) مسلم فى الإمارة (ب ٧ رقم ٢٦).

هذا موقف نبوى كريم يعالج فهمًا معوجًا، كثيرًا ما يقع فيه من تُسند إليهم المصالح العامة، فيقع بعضهم فى غفلة من أمره أو نسيان فى هذا الخطأ، لقد نسوا أنهم وضعوا فى مواقعهم ووظائفهم ليحققوا النجاح لهذه المواقع، فهم يعملون لحساب هذه المواقع وليس لحساب أشخاصهم. ويوم أن تتحول الوظيفة إلى مغنم، وتتحول الوظائف لخدمة من يشغلونها، تكون خيانة الأمانة التى حذرنا منها رسول الله ﷺ لمَّا سأله أبو ذر رضي الله عنه عن الإمارة، قال ﷺ : «يا أبا ذر : إنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزى وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها»[1].

وقد حذرنا رسول الله ﷺ من خيانة الأمانة، وبيّن أنها علامة من علامات النفاق، قال ﷺ : «آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»[2].

وقال ﷺ : «لكل غادر لواء يوم القيام، يقال : هذه غَدْرَة فلان»[3].

ومن دلالات الموقف التربية بالحجة، حيث لجأ النبى ﷺ إلى إظهار الحجة على بطلان تفكير الرجل الذى جمع الصدقات وقال : هذا لكم وهذا أُهدى إلىّ . فقال له ﷺ : «هلاَّ جلس أحدكم فى بيت أبيه وبيت أمه حتى تأتيه هديته ؟!».

والمعنى أن هذا النفع وهذه الهدية حصلت عن طريق الوظيفة، ولو كنت خارج الوظيفة ما أهدى إليك أحد ممن عليهم الصدقات شيئًا.

إذن ليس الدافع المحبة ولا المودة، لتكون هذه الهدايا من قبيل قول النبى ﷺ ، «تهادوا تحابوا»[4] ولكنها إلى الرشوة أقرب ؛ فلابد وأن لها مقابلاً فى تسهيل أمور أو المرونة فى تقدير نسبة ما ونحو ذلك.

---

(١) أخرجه مسلم فى الإمارة (١٦).

(٢) أخرجه البخارى (١/ ١٥)، ومسلم فى الإيمان (١٠٧).

(٣) أخرجه البخارى (٤/ ١٢٧)، ومسلم فى الجهاد (١١، ١٢).

(٤) أخرجه البيهقى (٦/ ١٦٩)، الموطأ (٩٠٨).

ومن دلالات الموقف مسئولية المتابعة، فالمتابعة من أهم أسرار نجاح الإدارة، فمن يتولى شئون عمل من الأعمال وجب عليه أن يتابع من أسند إليهم أدواراً وأعمالاً ليتأكد من إنجازها على الوجه المطلوب.

ورأينا فى الموقف أن رسول الله ﷺ تابع الرجل الذى كلفه بجمع الصدقات وحاسبه، وكانت نتيجة الحساب هذا الجزء الذى جعله الرجل فى جانب وحده، فلما سأله النبى ﷺ عنه قال: أهدى إلىَّ. فصحح له النبى المفهوم وعالج الموقف بحكمته ﷺ .

١٣٦ - حدثونى ما هى ؟

بينما الصحابة جلوس حول رسول الله ﷺ إذ سألهم النبى ﷺ :

«إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المؤمن، حدثونى ما هى ؟»

فوقع الناس فى شجر البوادى، ووقع فى نفس ابن عمر أنها النخلة، لكن الحياء منعه من الإجابة لصغر سنه بين الحاضرين، ثم قال القوم للنبى ﷺ :

حدثنا ما هي يا رسول الله ؟

فقال النبى ﷺ : «هى النخلة».

(*) أخرجه البخارى (١/ ٢٤، ٢٨، ٤٥، ٣/ ١٠٣)، مسلم (صفات المنافقين ٦٣/ ٦٤)

هذا موقف نبوى كريم يفيض بالقيم التربوية الهادية، ومنها :

الإشارة إلى أسلوب من أهم أساليب التعليم، وهو التعليم بالسؤال، كى يهيء المستمع والمتعلم لاستقبال العلم، وينتبه فيفهم ما يلقى إليه، وكى يحرك رغبته فى معرفة الإجابة، فإن ما يُساق بعد الطلب أعز وأغلى مما يُساق بلا طلب، وهذا من هديه ﷺ، ورأينا فى الموقف كيف سأل النبى ﷺ . وعلى الدعاة، وأهل التعليم أن يتأسوا برسول الله ﷺ فى إثارة ذهن المستمع وتهيئة الطالب للدرس .

كما يشير الموقف إلى أسلوب تربوى آخر وهو ضرب المثل؛ لما فيه من التوضيح والبيان للحقيقة المطلوبة، أيضًا فى المثل تيسير للفهم على المتعلم، ورأينا النبى ﷺ يضرب المثل للمسلم بالنخلة، والذى يجمع بينهما صفات حميدة مثل : العطاء المتنوع، والقوة، والصمود، والارتفاع، ودوام الانتفاع، وهكذا المؤمن صبور يتحمل ما لا يتحمل غيره، قوى بإيمانه يواجه الشدائد، وينجز الأعمال العظيمة بإتقان وإحكام وهو مرتفعٌ عن الأحقاد والدسائس والنقائص والعيوب، والمؤمن يداوم على السعى الصالح والعمل النافع. كما يظهر من ضرب المثل بالنخلة، أن المؤمن يقابل السيئة بالحسنة، كما تُرمَى النخلة بالحجارة فترجع على الرامى بالتمر والرطب .

ومن يتأمل أمثلة المؤمن فى القرآن والسنة يرى أنها تعددت وتنوعت ويجمعها كلها الصفات الحميدة التى ينبغى للمؤمن أن يتحلى بها .

كما يظهر من الموقف أن رسول الله ﷺ كان لا يثقل على أصحابه بالموعظة الطويلة، بل كانت موعظته خلاصة مركزة، واضحة بيِّنة، وفى هذا بيان للدعاة ألاَّ يثقلوا على الناس فى دروسهم أو موعظتهم تأسيًا بسيدنا رسول الله ﷺ حتى ينصرف الناس على شوق للحديث ورغبة فيه، وحتى لا تشتت

الناس بكثرة الكلام، فإن كثرة الكلام ينسي بعضه بعضاً.

وقد نبه القرآن الكريم أن الفائدة من ضرب الأمثال إنما هو للعظة والعبرة والفهم والتدبر، قال الله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم/٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر/٢١].

ونتعلم من الموقف أن السن ليس معياراً للعلم، فقد يكون من هو أصغر سناً أكثر نباهة وفهماً، فقد رأينا ابن عمر قد عرف أنها النخلة، ولم يمنعه من الإجابة إلا الحياء، في حين أخفق الحاضرون في معرفة الصواب.

١٣٧ - علِّمني شيئًا

بينما كان العباس بن عبد المطلب مع رسول الله ﷺ في مجلس، سأله قائلاً:

يا رسول الله، علمني شيئًا أسأله الله تعالى فقال له النبي ﷺ :

«سل الله العافية».

فمكث العباس أيامًا ثم جاء لرسول الله ﷺ، فقال له : يا رسول الله، علمني شيئًا أسأله الله تعالى .

فقال النبي ﷺ :

«يا عباس، يا عم رسول الله ﷺ سل الله العافية في الدنيا والآخرة».

(*) أخرجه الترمذي (رقم ٣٥١٤).

هذا الموقف يقدم لنا دروساً هادية :

أولها : حرص صحابة رسول الله ﷺ على اغتنام فرصة جلوسه ﷺ معهم ليتعلموا ويهتدوا، ويسألوه ﷺ عما يدور بأذهانهم من أفكار، ورأينا في الموقف أن العباس ﷺ يتقدم للنبي ﷺ بسؤاله.

والمؤمن الموفق هو الذى يقتدى بسلوك صحابة رسول الله ﷺ في اغتنام الفرص للإفادة من هدى النبي ﷺ وعرض أفكاره على سنته ﷺ . فما وافق هديه اتبعناه وما خالف هديه ﷺ اجتنباه.

ثانيها : فضل الدعاء، حيث وجه النبي ﷺ العباس لما سأله أن يعلمه شيئاً يسأله الله عز وجل، أرشده إلى الدعاء بالعافية، ولم يرشده النبي إلى شيء آخر مما يتكالب الناس عليه من أمور دنياهم، وفي هذا إشارة إلى أن فضل الدعاء يسبق كل فضل.

وفى الحديث النبوى، قال ﷺ : «الدعاء مخ العبادة»(١) والله تبارك وتعالى يبين فى قرآنه أنه قريب سميع مجيب، فليجتهد العبد في الدعاء. قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة/١٨٦].

ثالثها : فضل الدعاء الجامع، وهذا من هديه ﷺ، حيث كان دعاؤه ﷺ جملة واحدة أو جملاً يسيرة، كي لا يشق على أمته بطول الدعاء، ومن خصائص النبي ﷺ أنه أوتي جوامع الكلم ﷺ .

ولذلك لما عاود العباس سؤال النبي ﷺ بنفس سؤاله السابق بعد مرور عدة أيام، أجابه النبي ﷺ بنفس الإجابة ليشعره بأن هذا الدعاء فيه كفاية وخير كثير. لأنه ربما استقل العباس هذا الدعاء القصير، كما أن النبي ﷺ قال له في

(١) الترمذى (رقم ٣٣٧١).

الإجابة الثانية : «يا عباس يا عم رسول الله ﷺ» ليشعر العباس بقربه منه ﷺ فهو عمه، وجعل النبي ﷺ يعلمه من الدعاء ما يناسب حاله .

رابعًا : فضل الدعاء بالعافية في الدنيا والآخرة، فمن عافاه الله في بدنه، وفي عقله، وفي سمعه، وفي بصره، وفي لسانه، وفي سائر أعضائه، فقد أنعم الله عليه بنعمة عظيمة، يبين لنا قدرها رسول الله ﷺ بقوله : «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ»[١] .

ويقول النبي ﷺ : «من أصبح آمنًا في سربه معافى في بدنه عنده قوت يومه فقد حيزت له الدنيا بحذافيرها»[٢] .

هذا عن فضل العافية والصحة في الدنيا، فأما عن فضل العافية في الآخرة فإنما يكون بالسلامة من عقاب النار والسلامة من شدائد وأهوال يوم القيامة .

ومن هنا كان الدعاء بالعافية يحمل خيرًا كثيرًا للمؤمن في الدنيا والآخرة .

---

(١) رواه البخاري (٨ / ١٠٩) ، والترمذي (٢٣٠٤) .
(٢) راجع الترغيب والترهيب (١ / ٥٩٠) .

١٣٨ - ارجع فصلِّ

رأى النبي ﷺ رجلاً يسرع في صلاته فلا يتم ركوعها ولا سجودها ، فقال له النبي ﷺ :

«ارجع فصلِّ فإنك لم تُصلِّ»

فأعاد الرجل صلاته مسرعًا كالمرة الأولى ، فقال له النبي ﷺ : «ارجع فصلِّ فإنك لم تصلِّ» .

فرجع الرجل وأعاد صلاته مسرعًا ، فقال له النبي ﷺ للمرة الثالثة : «ارجع فصل فإنك لم تصلِّ»

فقال الرجل : والذي بعثك بالحق ما أحسن غير هذا فعلمني مما علّمك الله .

فقال له النبي ﷺ : «إذا قمت إلى الصلاة فكبر ، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ، ثم اركع حتى تطمئن راكعًا ثم ارفع حتى تطمئن قائمًا ، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدًا ، ثم ارفع حتى تطمئن جالسًا ، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها» .

(٥) البخاري (رقم ٧٥٧) ، ومسلم (رقم ٣٩٧) .

هذا موقف نبوي كريم يحمل دروسًا تربوية نافعة :

الأول : تعدد أساليب التربية عند حضرة النبي ﷺ رعاية لحال المتلقي. فهو يربي بالموعظة، ويربي بالحوار، ويربي بالقصص، وغير ذلك من عشرات الأساليب التي ربى بها ﷺ، ومن بين أساليب التعليم عند النبي ﷺ التعليم الذاتي، بتربية القدرة الذهنية عند الإنسان على الانتباه واليقظة والتفطن إلى أخطائه بالتجربة العملية كي يصلحها.

ونرى في الموقف أن النبي ﷺ طلب من المسيء في صلاته أن يعيدها مرارًا كي ينتبه إلى أخطائه، ولما لم ينتبه الصحابي إلى خطئه وإلى أنه مسرع في صلاته - لا يتم الركوع ولا السجود - وأعلن الرجل عن عدم قدرته على إدراك الخطأ الذي وقع فيه في أثناء صلاته تحول النبي ﷺ إلى أسلوب آخر أنسب لحال الرجل، وهو أسلوب الشرح والتفصيل تلقينًا للرجل بما ينبغي عليه فعله.

الثاني : أهمية الاطمئنان في الصلاة وأنه ركن من أركان الصلاة لا تصح الصلاة إلا به، وهو مذهب المالكية.

وحَدُّ الاطمئنان للأعضاء الظاهرة استقرار الأعضاء في القيام والسجود والركوع، والتلفظ بالذكر والدعاء المطلوب - في كل حركة من حركات الصلاة - تلفظًا سليمًا.

وهذا المظهر الخارجي الخاص بالجوارح ينبغي أن يكون معبرًا عن حقيقة وواقع حاصل في قلب المسلم في أثناء الصلاة، وهي الطمأنينة، حتى لا يكون ذكره أو صلاته ذكر وصلاة الغافلين.

والنبي ﷺ حين رأى رجلاً يعبث بلحيته في أثناء صلاته ويكثر من الحركات ولا يتم الركوع ولا السجود، لما رأى النبي ﷺ اضطراب الجوارح

بهذه الصورة، قال ﷺ : «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه»(١).

وسبيل تحصيل الخشوع في الصلاة يتأتى بإسباغ الوضوء، واستحضار عظمة الله تعالى، والتفكر في معاني ما يقرأ من الآيات، مع تعظيم الله بالقلب في الركوع والخشوع التام بالتعظيم والتقديس بالقلب في السجود.

وعلى العاقل أن يتدبر عظمة الموقف في أثناء الصلاة، وإذا كان أحدنا يتهيأ للقاء أصحاب القدر والمكانة والمنزلة العالية في دنيا الناس، ويراعي آداب اللقاء، ويجتهد في اصطفاء ألفاظ التحية اللائقة بقدر هذا الإنسان صاحب المنزلة الرفيعة، فأولى بالمؤمن أن يستشعر عظمة الله في قلبه وأن يستحضر عظمة الله عزّ وجل، وجلال هذه اللحظات النورانية التي يخاطب فيها ربه .

بهذا يتأتى للمسلم أن ينال الطمأنينة والخشوع في صلاته ويشعر بلذة المناجاة التي هي من حلاوة الإيمان .

كما نتعلم من الموقف، أن رسول الله ﷺ نصح الرجل في رفق ولين دون تعنيف. وهذا أدب نبوي كريم في الرفق بالجاهل حتى يتعلم، يقول رسول الله ﷺ : «إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله»(٢).

---

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (٢ / ٢٨٩)، وذكره الحافظ في الفتح (٢ / ٢٢٥).
(٢) أخرجه البخاري (٨ / ١٤)، ومسلم في البر والصلة (٧٧)

١٣٩ - لا يا أخي يا جبريل !!

لما ذهب النبي ﷺ إلى أهل الطائف ليدعوهم إلى الإسلام، طردوه وسلطوا عليه عبيدهم وصبيانهم فآذوه حتى دميت قدماه الشريفتان. فشكا النبي ﷺ إلى الله تعالى ضعف قوته وقلة حيلته وهوانه على الناس، فنزل عليه جبريل - عليه السلام - وقال له :

يا محمد، لو شئت أن أطبق عليهم الأخشبين لفعلت.

فقال النبي ﷺ :

«لا يا أخي يا جبريل، لعل الله أن يخرج من أصلابهم ذرية توحد الله».

(*) السيرة النبوية (٢/ ١٧).

هذا موقف نبوى كريم يقدم لنا دروساً نافعة وقيماً تربوية هادية :

الدرس الأول : الجدية والمحاولة الدائمة والسعى لتحقيق الهدف، فالنبى ﷺ لما جفاه أهل مكة ولم يستجيبوا له، لم يقف مكتوف الأيدى أمام صدهم وجفائهم ورفضهم لدين الله تعالى، بل فكر ﷺ فى منقذ لهذه الدعوة فأرسل أصحابه إلى الحبشة لأن بها ملكًا عادلاً.

ومن جانبه ﷺ فقد ذهب إلى الطائف، وبعد الطائف وما حدث له بها، كان لقاؤه بوفود الحجيج وعرضه الإسلام عليهم ، فكانت بيعة العقبة الصغرى ثم الكبرى. وهكذا لم يهدأ ﷺ ولم يستسلم أمام عناد الكفار وصدهم له، بل كانت العقبات التى تصادفه ﷺ تزيده حماساً وقوة وثباتاً.

وهذا درس قيم للمؤمنين فى حياتهم المعاصرة.

الدرس الثانى : عدم الانهيار فى أوقات الشدائد، فالمؤمن لا يصاب بإحباط ولا انهيار، ولكن إن لم يوفق فى جولة فأمامه جولات أخرى، فلينهض وليراجع نفسه وليبدأ الإعداد لجولة أخرى يملك فيها أسباب النصر.

الدرس الثالث : التمييز بين أمرين : بين أمر الدعوة إلى الله عز وجل وما ينال الإنسان من إيذاء فى سبيلها، وبين شخص الإنسان وذاته، فالنبى ﷺ لم يكن يغضب لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمة من حرمات الله تعالى. ورأينا فى الموقف أن النبى ﷺ لم ينتصر لنفسه، وإنما عينه وفكره وكله نحو المقصد الأعلى الذى يتحرك من أجله ويتحمل الأذى من أجله، وهو نشر الدعوة والتمكين لدين الله فى الأرض، لا أن تتحول المواجهة إلى مواجهة شخصية يسيطر عليها الهوى وتتسلط عليها نزغات الشيطان كما يحدث فى أحوال كثيرة فى حياتنا المعاصرة.

الدرس الرابع : النبى ﷺ يعلمنا من خلال هذا الموقف أن نراجع أنفسنا

وأن نعود باللائمة على أنفسنا، مع الاستعانة بالله نشكو إليه حالنا ونستمد منه العون، وهذا ما نستشعره من دعائه الخاشع بعد أن طُرِدَ وأوذى.

قال ﷺ : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربى، إلى من تكلُنى، إلى بعيد يتجهمنى؟ أم إلى عدوٍ مَلَّكته أمرى ؟ إن لم يكن بك علىَّ غضب فلا أبالى، ولكن عافيتك هى أوسع لى. أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن ينزل بى سخطك، أو يَحُلَّ علىَّ غضبك، لك العُتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله »[١].

---

(١) كنز العمال (٣٦١٣، ٣٧٥٦، ٥١٢٠)، جوامع الكلم (٩٧٤٣).

١٤٠ - اجعلوا بيوتكم قبلة

أتى أنصارى لرسول الله ﷺ قائلاً :

يا رسول الله، إذا كانت الأمطار وسال الوادى، صليت بأهلى بالمنزل، ووددت يا رسول الله أنك تأتينى فتصلى فى بيتى فأتخذه مُصَلّى، فذهب النبى ﷺ إلى بيت الأنصارى وقال له : «أين تحب أن أصلى من بيتك ؟» فأشار الأنصارى إلى ناحية من البيت، فقام النبى ﷺ فيها فقمنا فصففنا فصلّى ركعتين ثم سلم .

(*) أخرجه البخارى (١ / ١١٥، ١١٦، ١٧٠، ١٧٥)، ومسلم (المساجد ٢٦٣).

هذا موقف إيماني يحمل دلالات هادية، ودروسًا نافعة :

الدرس الأول : الحرص على صلاة الجماعة .

ورأينا في الموقف أن الأنصاري من حرصه على صلاة الجماعة، إذا عجز عن الصلاة في المسجد بسبب عذر المطر أو غيره صلى بأهله جماعة في بيته، كي يحظى ويفوز بفضل صلاة الجماعة، فهي تفضل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة ؛ لقوله ﷺ : « صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذّ بسبع وعشرين درجة »[١] .

كما أن صلاة الجماعة من كبريات الوسائل التي تُغفر بها الذنوب وترفع بها الدرجات ؛ لقول النبي ﷺ :

« صلاة الرجل في جماعة تُضعَّف على صلاته في بيته وفي سوقه خمسًا وعشرين ضعفًا، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم خرج إلى المسجد، لا يخرجه إلا الصلاة، لم يَخْطُ خطوة إلا رفعت له بها درجة، وحُطَّتْ عنه بها خطيئة، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه مادام في مصلاه ما لم يحدث تقول : اللهم صل عليه، اللهم ارحمه . ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة »[٢] .

كما أن صلاة الجماعة حصن يحفظنا من الشيطان؛ لقول النبي ﷺ : « ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان . فعليكم بالجماعة، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية »[٣] .

الدرس الثاني : الحرص على أمر الأهل بالصلاة وإعانتهم على ذلك، فهي وصية الله لنبيه ﷺ، قال الله تعالى :

الآية ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طه / ١٣٢] .

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٦٤٥)، ومسلم رقم (٦٥٠) .
(٢) أخرجه البخاري (١ / ١٦٦)، ومسلم في المساجد (ب ٤٩ رقم ٢٧٢) .
(٣) أخرجه أبو داود (ب ٤٧)، والنسائي (٢ / ١٠٦) .

كما أوصى القرآن الكريم أهل الإيمان أن يحرصوا على تعليم أزواجهم أمر الدين، وجعل ذلك في مقدمة واجبات الزوج ؛ لقوله تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ** ﴾ [التحريم /٦].

قال رسول الله ﷺ : « رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى فأيقظ امرأته فصلت فإن أبت نضح في وجهها الماء »[١].

الدرس الثالث : الحرص على عمارة البيوت بالذكر والصلاة، وقد رغّب النبي ﷺ في عمارة البيوت بذكر الله، قال ﷺ : « مثل البيت الذي يُذكر الله فيه، والبيت الذي لا يُذكر الله فيه مثل الحي والميت »[٢].

كما رغب النبي ﷺ في عمارة البيوت بالصلاة وبخاصة النوافل دون المكتوبات، فصلاة المكتوبات بالمساجد أفضل، لقوله ﷺ :

« صلوا أيها الناس في بيوتكم ؛ فإن أفضل الصلاة صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة »[٣].

وقوله ﷺ : « اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبوراً »[٤].

ويبين النبي ﷺ أن الله يجعل الخير والبركة في البيت بسبب الصلاة فيه، قال ﷺ : « إذا قضى أحدكم صلاته في مسجده فليجعل لبيته نصيباً من صلاته، فإن الله جاعلٌ في بيته من صلاته خيراً »[٥].

الدرس الرابع : حرص النبي ﷺ على أمته ورأفته بها، فقد جبر خاطر الأنصاري، وذهب معه كي يعينه على الطاعة، ومدح الله نبيه ﷺ وبين هذه النعمة للأمة، قال تعالى :

---

(١) أبو داود رقم (١٣٠٨، ١٤٥٠) ، والنسائي (٣/ ٢٠٥).
(٢) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين (٢١١).
(٣) البخاري (١/ ١٨٦، ٩/ ١١٧).
(٤) أحمد (٢/ ١٦، ٦/ ٦٥).
(٥) ابن ماجه (رقم ١٣٧٦)، وأحمد (٣/ ١٥، ٥٩).

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة/١٢٨].

١٤١ - ذهب باكيًا

كان أبو طلحة يعمل في حديقته، ثم نظر فوجد الشمس على رءوس الشجر، فألقى الفأس من يده وأسرع إلى المسجد، فأدرك العصر في آخر وقته، ولما انتهى من صلاته ذهب باكيًا إلى رسول الله ﷺ وقال له :

هلك أبو طلحة يا رسول الله، لم أدرك صلاة العصر إلا مع غروب الشمس بسبب الحديقة، فهي وما فيها صدقة لله عز وجل.

(*) سير أعلام النبلاء (أبو طلحة).

هذا موقف إيماني يحمل دروسًا إيمانية تقربنا إلى الله عز وجل :

الأول : فقه الأولويات : فالمؤمن يراعي ترتيب الأعمال مقدمًا الأولى فالأولى، والصلاة عبادة عَظَّم الله شأنها، وجعل لها المقدمة بين أعمال الخير، قال النبي ﷺ : «واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة»[1] .

وأوصى النبي ﷺ أهل الإيمان بالتبكير في أداء الصلاة، فالصلاة في أول الوقت تستجلب رضوان الله تعالى، وقد مدح الله المؤمنين الذين يحافظون على صلاتهم، فقال تعالى في سياق وصف المؤمنين الفالحين : ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ** ﴾ [المؤمنون/٩] .

ولقد حذر النبي ﷺ من الانشغال عن الصلاة مهما كانت دواعي الانشغال .

الدرس الثاني : تعظيم شعائر الله تعالى، وهذا شأن المؤمن مع أوامر الله تعالى، فلقد مدح الله هذه الفضيلة في أهل الإيمان، وجعلها علامة على صحة القلب وصدق إيمانه، قال الله تعالى : ﴿ **ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ** ﴾ [الحج/٣٢]، لذا نرى من أهل الإيمان الفورية والمسارعة في شأن العبادات استجابة لأمر الله تعالى : ﴿ **سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴾ [الحديد/٢١] .

الدرس الثالث : شعور المؤمن بالتقصير يحمله على تصحيح الأخطاء، وفي الحديث : «المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه، والمنافق يرى ذنبه كذباب وقع على وجهه فطاره»[2] .

---

(١) أخرجه ابن ماجه رقم (٢٧٧، ٢٧٨)، وأحمد (٥/ ٢٨٢) .
(٢) راجع إتحاف السادة المتقين (٨/ ٥٧١) .

ورأينا - في الموقف - أبا طلحة يبكي لما أخذه النسيان بسبب الانشغال بفلاحة الحديقة حتى غروب الشمس، ولم يكفه البكاء بل لامَ نفسه قائلاً: لقد هلك طلحة. وهذا أدب كريم مع النفس، تربى الصحابة عليه في حجر النبوة، قال النبي ﷺ: «الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت»(١).

الدرس الرابع: إتباع السيئات بالحسنات، فقد جعل أبو طلحة الحديقة التي شغلته عن صلاة العصر في أول وقتها صدقة لله تعالى، حرصًا على مرضاة الله تعالى، وعملاً بقول الله عز وجل: ﴿ **إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ** ﴾ [هود/١١٤]، وقول النبي ﷺ:

«وأتبع السيئة الحسنة تَمْحُها»(٢).

وهكذا يكون حال المؤمن يقظًا حذرًا من الزلات والهفوات والذنوب والآثام، حريصًا على فعل الخيرات، وعلى مرضاة الله عز وجل، كما يبادر بالحسنات لتكون كفارة للسيئات.

الدرس الخامس: مرجعية السنة النبوية كمعيار إيماني للمسلم، فأبو طلحة قد عرض عمله على النبي ﷺ وأقره النبي عليه، والنبي ﷺ فينا بسنته، وربنا تبارك وتعالى قال في قرآنه: ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ** ﴾ [النساء/٦٥].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

١٤٢ - ما على هذا اتبعتك !

لما عاد النبي ﷺ ومعه المسلمون من إحدى الغزوات بنصر الله تعالى، أخذ النبي ﷺ في توزيع الغنائم على أصحابه، حتى جاء الدور على أحدهم فغضب واحْمَرّ وجهه ولم يأخذ شيئًا من الغنائم، وقال لرسول الله ﷺ :

ما على هذا اتبعتك ! لكني اتبعتك على أن أُرْمَى ها هنا بسهم - وأشار بيده إلى حلقه - فأموت فأدخل الجنة.

فقال رسول الله ﷺ :

«إن صدق الله يصدقه».

(*) النسائي (٤/ ٤٩)، والحاكم (٣/ ٥٩٥، ٥٩٦).

هذا موقف إيماني عظيم في تعظيم أمر الدين والتضحية من أجل مرضاة الله تعالى، فهذا رجل أتى إلى النبي ﷺ ضيفًا عليه، فأكرم النبي ﷺ نزله، وأعجب الرجل بخلق سيدنا رسول الله ﷺ، فأسلم، ثم سأل رسول الله ﷺ عن أفضل الأعمال في الإسلام وأعلاها درجة، فقال له النبي ﷺ : «الجهاد في سبيل الله»(١).

وخرج الرجل مع النبي ﷺ في أول غزوة خرجها بعد إسلام الرجل، وانتصر المسلمون وعادوا بالغنائم، وقسم النبي ﷺ الغنائم؛ فلما جاء دور الرجل في الغنائم ودعاه رسول الله ﷺ ليعطيه نصيبه؛ احمرَّ وجه الرجل وقال لرسول الله ﷺ : «يا رسول الله : ما على هذا اتبعتك، ولكني اتبعتك على أن أرمى ها هنا بسهم كي أنال الشهادة وأدخل الجنة. فقال النبي ﷺ : «إن صدق الله يصدقه».

وفي الغزوة التالية خرج الرجل مجاهداً مع رسول الله ﷺ، وبعد انتهاء الغزوة، وجد الصحابة ومعهم رسول الله ﷺ الرجل قد استشهد وقد أصابه السهم في الموضع الذي أشار إليه عند حلقه.

فقال النبي ﷺ : «هذا رجل صدق الله فصدقه الله عز وجل».

إن الصدق قيمة عالية، تسمو بالمؤمن إلى الدرجات العُلى من رضوان الله تعالى.

وأفضل الصدق وأعلاه ما كان مع الله تعالى. ولقد جعل الله الصدق في قمة الفضائل التي أوصانا بها في القرآن الكريم. قال الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة/١١٩].

وقال تعالى :

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٩٧)، ومسلم رقم (٨٥).

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب/٢٣].

ووضح لنا النبى ﷺ أن الصدق باب من أبواب الخير والبر الذى ينتهى بالعبد إلى الجنة، قال ﷺ : «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة، وإن العبد ليصدق ويتحرى الصدق – فى حديثه – حتى يكتب عند الله صدّيقاً»[١].

(١) أخرجه مسلم فى البر والصلة (١٠٥).

١٤٣ - أرانى لم يرقّ قلبى

ذات يوم استمع الحسن البصرى رضي الله عنه إلى رجل يعظ الناس.

وبعدما انتهى من موعظته وانصرف الناس، أقبل الحسن البصرى إلى الرجل الواعظ، وقال له - فى السرّ - : أرانى لم يرقّ قلبى ولم تصل موعظتك إلىّ، فإما بقلبى شىء أو بقلبك.

فانصرف الرجل باكيًا.

(*) الرسالة القشيرية، ص ٢١١.

هذا موقف تشتد الحاجة إلى معانيه الهادية في واقعنا المعاصر، إن أحدنا إذا أصابه تعب أو إعياء، فأحس معه بأعراض أي مرض في جسمه، أسرع إلى الطبيب على الفور، حفاظًا على صحته، وهذا أمر طبيعي . ولكن من غير المعقول أن يرى أحدنا الأعراض الواضحة لمرض القلب من القسوة وعدم الخشية والوجل، ولا يهتم.

وهذا الموقف ينبهنا إلى أنه ينبغي علينا أن نهتم بصحة القلب ، أي بأحوال الإيمان فيه . ومؤشرات صحة القلب يبينها القرآن الكريم وهديه الحكيم، قال الله تعالى :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال/ ٢].

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ [المؤمنون/ ٦٠].

وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج/ ٣٥].

وقال تعالى :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الحديد/ ١٦].

ويقول النبي ﷺ : « من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة »[١].

فإذا فارق القلب الخشوع والوجل أثناء الذكر وأصيبت العين بالجمود، فهذه أمارات المرض، فلا يتحرك القلب لذكر ولا طاعة، قال الله تعالى :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الزمر/ ٢٢].

وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة/ ٧٤].

---

(١) أخرجه الترمذي رقم (٢٤٥٠).

كما وصف الله في القرآن الكريم القلوب المريضة بالعمى، أي أنها لا تدرك النور ولا تنتفع بالهدى، فحال القلب المريض أخطر من حال العين التي أصابها العمى، قال تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج/٤٦].

إن أثر الذنوب على القلوب خطير، قال النبي ﷺ : « إذا أذنب العبد ذنبًا نُكِتَتْ نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب واستغفر صقل قلبه، وإلا اسود القلب كله، فذلك الران » ثم تلا النبي ﷺ قول الله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين/١٤] (١).

على المؤمن أن يكون بصيرًا بأحوال قلبه كما رأينا في الموقف من الحسن البصري حين استمع للواعظ فلم يرقَّ قلبه، ولا تأثرت مشاعره ولم تصل موعظة الواعظ إليه. فقال للرجل الواعظ : إما بقلبي شيء أو بقلبك.

وهنا درس جديد وفقه نافع، حيث تشير العبارة في شقها الأول إلى أن مرض قلب المستمع يمنعه من الإفادة من المواعظ التي يستمع إليها، فمرض القلب حجاب خطير عند المستمع.

والشق الثاني من كلمة الحسن البصري قوله : أو بقلبك، أي بقلبك شيء أفقد كلامك التأثير، فما من كلام يخرج من إنسان إلا وعليه حُلّة من قلب قائله، وكم تموت الكلمات على ألسنة تحترف الكلام ولا تعمل به، قال الله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [الفتح/١١].

وقال تعالى : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف/١٧٩]. فالمعاصي حجاب عند المتحدث أيضًا، وكم تحيا الكلمات

---

(١) المستدرك (١/٥)، والطبري في التفسير (٣٠/٦٢).

البسيطة وتؤثر تأثيراً عظيماً في المستمع حين تخرج من قلب محب لها مهتم بها يعمل بها، ولذلك نرى أن كثيراً من العلماء الصالحين يكثرون من قيام الليل وذكر الله عز وجل، ويحرصون على فعل الخيرات، ولا يتقدمون لحديث أو موعظة إلا بعد أن يكونوا من أهل العمل بها.

قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الزمر/ ٢٣].

وهذه الموعظة من الحسن البصري تجعلنا نراجع أنفسنا حين يلقي كل منا باللائمة على الآخر، المستمع يلقي باللائمة على الخطيب، والخطيب يلقي باللائمة على الجمهور، فما أحوجنا لموعظة الحسن البصري : إما بقلبك شيء أو بقلبي.

وسبيل صلاح القلوب يبدأ بصدق التوبة إلى الله تعالى، قال الله تعالى : ﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ [التحريم/ ٤].

وقال تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ [التغابن/ ١١].

وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد/ ٢٨].

أيضاً الاستعانة بالله والتفرغ إليه سبيل عظيم لعلاج القلوب؛ فالله سبحانه وتعالى صاحب الفضل العظيم في صلاح القلب. قال تعالى :

﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات/ ٧].

والحذر من المعاصي باب من أبواب صلاح القلب، قال النبي ﷺ : «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، من تركها مخافة الله عز وجل، أبدله الله إيماناً يجد حلاوته في قلبه»[١].

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤ / ٣١٤).

كما أن طُهر القلب من أمراض الحقد والغل والحسد والكراهية ونحو ذلك، طريق للفوز بالجنة، فالرجل الذى بشره النبى ﷺ بالجنة لما دخل عليه والصحابة حوله، كان بسبب طُهر قلبه من الحقد والحسد .

١٤٤ - كيف تفتح العقول ؟

كان مصعب بن عمير ﷺ ضيفًا عند أسعد بن زرارة بالمدينة المنورة للدعوة إلى الإسلام، إذ أقبل أسيد بن حضير غاضبًا؛ وقال لمصعب :

إن كنت باقيًا على حياتك فاخرج من بلادنا.

فقال له مصعب :

يا سيد قومه، اجلس فاسمع منى فإن رضيت قولى قبلته، وإلا أجبتك لما تريد.

فجلس أسيد، فقرأ مصعب ﷺ عليه بعض آى القرآن، فرقَّ قلب أسيد وأسلم، ثم أسلم قومه بإسلامه.

(*) أسد الغابة، ترجمة أسيد بن حضير.

هذا موقف عظيم تشتد الحاجة إليه في واقعنا المعاصر، حيث يعلمنا الموقف درساً تربوياً عظيماً في الدعوة الناجحة إلى الله عز وجل.

يعلمنا الموقف كيف تُفتح العقول بالقرآن؛ وكيف تكون حكمة المواجهة، وكيف يكون ذكاء الداعية، وكيف يكون خلق الداعية.

وأول درس في الموقف: هو سعة صدر سيدنا مصعب ﷺ فأمام الغضب الشديد والتهديد والوعيد من أسيد بن حضير لم يَتَخلَّ مصعب عن دماثة الخلق وبسمة الوجه وطيب الكلام، وأجاب في هدوء الإيمان، وثبات المتوكل على الله، وحكمة العاقل في الدعوة إلى الله تعالى؛ حيث قال لأسيد:

يا سيد قومه، اجلس واسمع، فإن رضيت قولي قبلته، وإلا أجبتك إلى ما تريد.

فجلس أسيد، فقرأ مصعب عليه شيئًا من القرآن؛ فَرقَّ قلب أسيد، واهتدى عقله إلى الحق؛ فأسلم ثم أسلم قومه لإسلامه.

وهكذا يكون أثر الخلق الطيب والدفع بالتي هي أحسن، قال الله تعالى:

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت/ ٣٤].

والدرس الثاني في الموقف: هو أنه علمنا كيف تُفتح العقول الجامدة والقلوب القاسية.

إنه يقف بنا على سر نجاح الخطاب الديني الإسلامي في بواكير الدعوة، وكيف اهتز معسكر الشرك والكفر رغم امتلاكه أدوات السيطرة والهيمنة؟!

وكيف فتحت المدينة المنورة دون سيف ولا قتال ؟!

إنه يضع أيدينا على أهم أسباب نجاح الداعية، وأهم وسائل الخطاب المؤثر، إنه القرآن الكريم.

لقد قرأ مصعب بعض آي القرآن على أسيد فأثرت في قلبه وعقله، وهكذا فُتحت المدينة بالقرآن، لقد تعلم مصعب كيف يفتح القلوب والعقول بالقرآن من رسول الله ﷺ .

فحين جاء أبو الوليد (عتبة بن ربيعة) إلى رسول الله ﷺ ليفاوضه في أمر الدين بعد أن اهتز معسكر الشرك بإسلام حمزة وعمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - وعجزت قريش عن القضاء على الدعوة وصاحبها ﷺ بالحصار الاقتصادي، أو بالتصفية الجسدية قتلاً وتعذيباً، أو بالسخرية والاستهزاء، جاء الوليد بعد أن حاروا في أمر هذا النبي ودعوته، وقال لرسول الله ﷺ : يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من البسطة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرّقت به جماعتهم، وسفّهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها.

فقال رسول الله ﷺ : « قل يا أبا الوليد اسمع ».

قال : يا ابن أخي، إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه . أو كما قال له ، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال ﷺ : « أو قد فرغت يا أبا الوليد ؟ »

قال : نعم.

قال : « فاسمع مني ».

قال : أفعل.

فقال ﷺ : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ حم * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون * بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ﴾ [فصلت / ١ : ٤].

ولم يزد رسول الله ﷺ على قراءة القرآن شيئًا، فتغير لون أبي الوليد، وقال : ما هذا بقول بشر.

أيضًا كانت الوفود التي تأتي إلى النبي ﷺ في المدينة فيشير إلى أبيّ بن كعب أن يقرأ عليهم القرآن.

وعمر بن الخطاب بشدته وقسوته وقوته وعناده قبل الإسلام.. لما ذهب إلى دار أخته غاضبًا معاقبًا لها ولزوجها على إسلامها؛ لما قرأ القرآن : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى * إلا تذكرة لمن يخشى * تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى * الرحمن على العرش استوى ﴾ [طه / ١ - ٥]. فلما وصل إلى قوله تعالى : ﴿ إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ﴾ [طه / ١٤].

قال : دلوني على هذا النبي، إنه القرآن الكريم فيه سر الهداية، قال الله تعالى :

﴿ الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾ [البقرة / ١ : ٢].

وقال تعالى :

﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾ [الإسراء / ٩].

وفيه شفاء العقول بما يملك من وسائل الإقناع والحوار ومقارعة الحجة بالحجة، وهو شفاء للنفوس بما يملك أمر تزكيتها وأمر صلاحها.

فالقرآن حوّل النبي ﷺ مجتمع البداوة والقبلية والضلال إلى مجتمع

هداية وخير وفلاح للدنيا كلها، قال الله تعالى :

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [آل عمران/ ١٦٤].

وهكذا تصنع الكلمات الإلهية في العقول والقلوب والنفوس.

ولذلك قال ابن كثير وابن عباس في قوله تعالى :

﴿ فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان/ ٥٢].

أي : جاهدهم بالقرآن الكريم.

يبقى أن نسأل أنفسنا :

لماذا كان للقرآن على ألسنتهم هذا الأثر الخطير في القلوب والعقول، ولا يكون للقرآن معنا هذا الأثر ؟

وتأتي الإجابة حقيقة واضحة يؤكدها القرآن نفسه، حيث تؤكد الآيات أن بركة القرآن لمن يعمل به.

قال الله تعالى :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا ﴾ [الإسراء/ ٨٢].

فالذي ينتفع بالقرآن هو الذي يعمل بالقرآن ابتغاء مرضاة الله عز وجل.

فهذا هو القرآن . فأين منه المسلمون ؟!

أين المسلمون من تعظيم كتاب الله تعالى بتعظيم أوامره والحذر من إتيان نواهيه ؟!

أين المسلمون من العمل بتعاليم القرآن في شتى شئون حياتهم ؟!

أم أننا نستمع إلى القرآن نغمًا نطرب له دون أن نعتبر.

إن القرآن هو روح الإسلام، قال الله تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى/ ٥٢].

والقرآن سر حياة المسلمين، قال الله تعالى : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ [الأنعام/ ١٢٢].

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال/ ٢٤].

والقرآن نور البصائر والأبصار، قال تعالى :

﴿ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى/ ٥٢].

هذا هو القرآن، فأين منه المسلمون ؟!

أفــمــسلمــونَ وأمّــةٌ شــلاَّءُ ... لا مَــيِّــتُــونَ ولا هُمْ أحْــيــاءُ !!

يَهِنُون والإســلامُ أشْــرَفُ منزلٍ ... ومُــحــمَّــدٌ مــمــا أتوهُ بَراءُ !!

نعم أصبح المسلمون كما وصفهم النبي ﷺ : «غثاء كغثاء السيل»(١).

وما لم يتحول المسلمون عن مقاطعتهم وهجرهم للقرآن، وما لم يتمسك المسلمون بالقرآن، وما لم يستجب المسلمون لهدى القرآن، فلن يزدادوا إلا هوانًا ومذلة.

---

(١) سبق تخريجه

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد/ ١١].

فكفانا تبعية للغرب أو للشرق، كفانا تبعية للآخر، لأفكار البشر بما تحمله من أخطاء فادحة في حق أمتنا وإسلامنا، ولنصحح وجهتنا إلى القرآن، بما فيه من قيم حضارية للمسلمين وللإنسانية كلها، وبما فيه من آفاق علمية تدفع الأمة إلى أن تأخذ مكانها في المقدمة بين الأمم.

عوداً حميداً للقرآن كي تتحقق الخيرية التي زكى الله بها هذه الأمة، قال الله تعالى:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران/ ١١٠].

١٤٥ – من بركة التسبيح

ذهب الإمام على ومعه السيدة فاطمة – رضى الله عنهما – إلى بيت رسول الله ﷺ ، فقال الإمام على لرسول الله ﷺ :

يا رسول الله ! أدارت فاطمة الرحى حتى أثرت فى يدها ، وحملت القربة حتى أثرت فى نحرها ، فهلاً أمرت لها بخادم يُعينها ؟

فقال النبى ﷺ :

«عليكما بكلمات علّمنيهنّ جبريل – عليه السلام – :

إذا أويتما إلى فراشكما تسبحان ثلاثًا وثلاثين ، وتحمدان ثلاثًا وثلاثين ، وتكبران ثلاثًا وثلاثين» .

(*) أخرجه البخارى (٧ / ٨٤ ، ٨ / ٨٧) .

نحن أمام بيت تعمره زوجة أرهقها العمل، وزوج له ظروفه الاقتصادية، لكنْ قلبه مملوء بهموم كبار في سبيل الله.

هذه بنت رسول الله ﷺ، وهذه حياتها في دنيا الناس. لقد أحست من أول يوم في بيت الزوجية بظروف زوجها، الذي لم يجد مهرًا لها سوى درع عنده يستخدمها في الحرب، ولا يستطيع الزوج أن يستأجر لها من يقوم بالأعمال الشاقة، من إدارة الرحى ونحو ذلك في بيته، رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت، ورضي الله عنكم.

وبعد عودة النبي ﷺ منتصرًا من إحدى غزواته، بغنائم وسبايا، دخل الإمام عليّ على زوجته فاطمة فرآها متعبة من مشقة إدارة الرحى، فأشفق عليها، وقال لها: «اذهبي لرسول الله ﷺ فالتمسي منه خادمًا يعينك».

وذهبت – رضي الله عنها – على استحياء، فلما رآها رسول الله ﷺ فرح بها، وسألها: «ما جاء بك يا بنية؟» فمنعها الحياء أن تُصرِّح بما جاءت من أجله، وقالت: «جئت لأسلم عليك»، وانصرفت.

وكانت السيدة فاطمة – رضي الله عنها – كما يصفها الرواة صغيرة الجسم، نحيلة العود، رقيقة الإحساس، مرهفة الشعور.

ولما تكررت رؤية الإمام علي رضي الله عنه للمشقة التي تظهر على السيدة فاطمة – رضي الله عنها – والتعب الذي تعانيه من إدارة الرحى وحمل القربة، اصطحبها إلى رسول الله ﷺ، وتولى الحديث عنها، فقال: يا رسول الله، أدارت فاطمة الرحى حتى أثرت في يدها، وحملت القربة حتى أثرت في نحرها، فلما جاءك الخدم بعد الغزوة أمرتها أن تأتيك فتعطيها خادمًا.

يا له من موقف! إن الأمر يتعلق بفاطمة – رضي الله عنها – أقرب الناس إلى أبيها رسول الله ﷺ، إنها قطعة منه.

وكان بوسع رسول الله ﷺ أن يبدي تلميحًا يسيرًا لواحد من أغنياء المسلمين بحاجة فاطمة، فيذهب إلى بيتها الخدم والعمال.

ألم يكن بوسع رسول الله ﷺ أن يجعل لها شيئًا من الغنائم ؟!

لكن الرسول ﷺ يعلمنا أن من تولى أمانة أمر ما، عليه أن يؤدي الأمانة، وألا تهتز العدالة بين يديه تبعًا لعواطفه ومشاعره لأهله وأبنائه وقرابته؛ لذلك قال النبي ﷺ لعليّ وفاطمة - رضي الله عنهما - : «لا والله لا أعطيكما وأدع أهل الصُّفَّة تتلوى بطونهم، لا أجد ما أنفقه عليهم»[1].

وانصرف الإمام عليّ ومعه السيدة فاطمة ، رضي الله عنهما.

وكأني بك يا سيدي يا رسول الله، تمضي ابنتك .. وهي قطعة منك، والقلب ينسحب معها انسحابًا، لكن أمر الله أغلى وأعلى؛ أغلى من الولد، وأعلى من كل شيء.

وفي المساء ذهب الحبيب المصطفى ﷺ إلى منزل الحبيبين الإمام عليّ والسيدة فاطمة - رضي الله عنهما - يردهما إلى الله عز وجل، لنتعلم أن ما نعجز عن تحقيقه من آمال أو طموحات لأولادنا، علينا أن نوجه أولادنا إلى أن يرفعوه إلى الله عز وجل، وأن يستعينوا بالله .. إن الله على كل شيء قدير.

فقال النبي ﷺ لهما : «عليكما بكلمات عَلَّمنيهنَّ جبريل - عليه السلام- : إذا أويتما إلى فراشكما تسبحان الله ثلاثًا وثلاثين، وتحمدان ثلاثًا وثلاثين ، وتكبران ثلاثًا وثلاثين»[2].

فكانت القوة والعافية والبركة من ثمرات الاستجابة لنصح رسول الله ﷺ ووصيته.

---

(١) مجمع الزوائد (١٠ / ١٠٠). (٢) أخرجه البخاري (٧ / ٨٤).

تقول السيدة فاطمة – رضى الله عنها – : «فصنعت ما أوصانى به رسول الله ﷺ فاغنانى الله عن الخادم».

وفى هذا درس قيم فى ثمرة اتباع هدى رسول الله ﷺ عن إيمان وحبٍّ، لأن رسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى.

فينبغى التأسِّى بالمفلحين، باهل بيت النبى ﷺ وصحابته الكرام – رضى الله عنهم – فى اتباع رسول الله ﷺ دون تردد أو مراجعة، لنفوز بما فازوا به من توفيق الله تعالى وعنايته فى الدنيا ، وبالجنة والرضوان فى الآخرة.

وهكذا يتأكد لكل مؤمن من هذا الموقف أن بركة السنة النبوية لمن يعمل بها.

رضى الله عن آل بيت رسول الله ﷺ ، وأدّبنا الله بادبهم وخلّقنا باخلاقهم، والحمد لله رب العالمين.

١٤٦ - أمين حق أمين

لما ذهب عمر بن الخطاب ﷺ إلى الشام، صحبه أبو عبيدة بن الجراح ﷺ إلى بيته، فلم يرَ عمر من الأثاث شيئًا، لم يجد إلا سيفه وترسه ورَحْله.

فسأل عمر أبا عبيدة :

هلا اتخذت لنفسك مثلما يصنع الناس ؟!

فقال أبو عبيدة :

يا أمير المؤمنين، هذا يبلغني المقيل.

(*) رجال حول الرسول، ص ٢٦٤.

رضي الله عن صحابة رسول الله ﷺ، الذين آمنوا به واتبعوه واتبعوا النور الذى أنزل معه.

أى رجال هؤلاء ؟! إنه الإيمان الذى يصنع بالنفوس المعجزت، إنه القرآن الذى يربى رجالاً على الفضائل والمكارم، إنه النبى محمد ﷺ الذى كان أسوة لأصحابه فى كل أحواله.

لذلك هانت ملذات الدنيا فى نظرهم، فحَسْبُهم أنهم عظّموا ما عظم الله، وهذا شأن المؤمن، يُعظم ما عظم الله، ويحقر ما حقر الله.

إن حب مرضاة الله ملأت قلوبهم فكانت أفعالهم كأفعال حبيبهم المصطفى ﷺ، كلها لمرضاة الله رب العالمين.

لذلك ترى أبا عبيدة ﷺ حين رأى بعض أهل الشام قد فُتنوا بقوته وعظمته وأمانته، خاطبهم فى تواضع جم قائلاً لهم:

يا أيها الناس: إنى مسلم من قريش، ما منكم من أحد أحمر ولا أسود يفضلنى بتقوى، إلا وددت أنى فى إهابه.

هذه حال أمين هذه الأمة سيدنا أبى عبيدة بن الجراح، الذى أثنى عليه النبى ﷺ بقوله:

«إن لكل أمة أمينًا، وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»[١].

ويخبرنا الموقف أن هذه القمة الإيمانية كان بيته بلا أثاث فاخر، وكان بوسعه أن يتخذ أعظم المتاع، وأفخر الأثاث!

هذه حال واحد من العشرة المبشرين بالجنة، بيته من البساطة بهذه الدرجة، وإلى الحد الذى لا يوجد فيه إلا الضروريات فقط.

---

(١) أخرجه البخارى (٥ / ٣٢)، ومسلم فى فضائل الصحابة (٥٣).

نعم، لقد علموا أن الذى يجعل المقدمة للمؤمن عند الله تعالى ليس الأثاث الفاخر، ولا ممتلكات الدنيا، ولا الأموال الكثيرة، إن الذى يجعل المقدمة للعبد عند الله تعالى، ويجعل العبد كريمًا على الله تعالى هو الإيمان والعمل الصالح.

أما القيم الاستهلاكية التى تجعل الإنسان فى صفوف المستهلكين للحضارة لا المنتجين لها، والتى تجعل الإنسان عبئًا على مجتمعه – فإنها تؤخر ولا تقدم- فرضى الله عن صحابة رسول الله ﷺ.

لأجل كل هذه المعانى تمنى عمر رضي الله عنه فقال :

لو كنت متمنيًا، ما تمنيت إلا بيتًا مملوءاً برجال من أمثال أبى عبيدة الجراح رضي الله عنه.

ومن عبر الموقف : جواب سيدنا أبي عبيدة رضي الله عنه على سيدنا عمر رضي الله عنه لما سأله : ألا اتخذت لنفسك مثلما يصنع الناس ؟!

فأجاب رضي الله عنه : هذا يبلغني المَقيل !

وفى هذا درس لنا لكى نأخذ من المتاع والأثاث والفراش بقدر حاجتنا دون إسراف ولا تبذير، نأخذ منها بقدر بقائنا فى الدنيا، إنها لقدرٌ قليل يفنى سريعًا، والآخرة خير وأبقى.

وكان هذا شأن كثير من صحابة رسول الله ﷺ، إذا دخل عليهم بعض الناس فسألوهم : أين أثاث البيت ؟ وأين الفراش ؟ قالوا : أرسلنا كل ذلك إلى هناك .. فإن لنا بيتًا آخر.

يقصدون بيوتهم فى الجنة، فرضى الله عنهم وأرضاهم أجمعين.

١٤٧ - ذكرت في الملأ الأعلى

دعا النبي ﷺ أبيّ بن كعب ؓ وقال له: «يا أُبيّ: إني أمرت أن أعرض عليك القرآن».

فقال أبيّ:

يا رسول الله! بأبي أنت وأمي، هل ذُكرتُ هناك باسمي؟!

فأجابه النبي ﷺ:

«نعم، باسمك ونسبك قد ذُكرت في الملأ الأعلى».

فبكى أبي:

فقرأ النبي ﷺ عليه:

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ .. إلى قوله تعالى: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة / ١-٨].

(*) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٤٥) باب (٣٩).

يؤكد هذا الموقف النوراني جملة من الحقائق الهادية :

أولاها : أن الله يرفع بالقرآن الكريم من استجاب لهديه وأخلص له .

فسيدنا أبيّ ﷺ تعاهد القرآن وتدارسه في سفره وفي حضره، في ليله ونهاره، يقرأ ويحفظ، ويفهم ويتفقه، يكتب الوحي كما أنزل على رسول الله ﷺ، ويرتل القرآن ليحاكي نُطق رسول الله ﷺ كما أنزل عليه. فإذا جاءت الوفود أجلسها النبي ﷺ مع أبيّ لتستمع منه إلى القرآن، وليشرح لهم ويعلمهم.

فإذا غاب النبي ﷺ في سفر عن المدينة أمر أبيّ بن كعب ﷺ أن يؤم الناس، وزكاه النبي ﷺ فقال : «أقرأ أمتي أبيّ بن كعب»[1].

وزكاه عمر بن الخطاب ﷺ بقوله : هذا سيد المسلمين أبيّ بن كعب .

وهكذا نال سيدنا أبيّ الدرجات العالية والمنازل الرفيعة .

وفي هذا أسوة وقدوة للمسلمين، أن يجعلوا القرآن الكريم إمامهم في شتى نواحي حياتهم، إذا أرادوا أن يرفع الله ذكرهم، وأن يحقق لهم مجدهم، وأن يتولاهم ويرضى عنهم.

ثانيتها : هذا الأدب الجم من سيدنا أبيّ بن كعب بين يدي رسول الله ﷺ، فقد بكى سيدنا أبيّ أمام هذه المكرمة العالية التي أكرمه الله بها، فألزم نفسه التواضع أمام رسول الله ﷺ .

ثالثتها : أن الآيات التي قرأها النبي ﷺ من سورة البينة جاءت تثبيتًا لقلب سيدنا أبي، حيث اشتملت السورة الكريم على توبيخ أهل الكتاب والمشركين، لإصرارهم على ضلالهم بعد أن تبين لهم الحق، والتعجب من

---

(١) ذكره ابن سعد في الطبقات (٢/٢، ١٠٣ - ٣/٢ - ٥٩، ٦٠).

تناقض أحوالهم، وبيان أن كفرهم لم يكن بسبب جهلهم، وإنما كان بسبب جُحودهم وعنادهم، وحسدهم للنبي ﷺ، على ما آتاه الله من فضله، ثم بيّن الله حُكمه فيهم أنهم شرُّ البرية.

وفي مقابل ذلك مدح الله تعالى المؤمنين بأنهم خير البرية، وفي هذا إشارة إلى أن سيدنا أُبيّ مقصود بهذه المعاني العالية، وأنه من أهل هذه البشرى القرآنية، وأنه من خير البرية، وأنه من أهل الرضا، الذين قال الله تعالى في شأنهم:

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ** ﴾ [البينة/ ٧-٨].

وهكذا حمل ختام الآيات البشرى - له ولكل المؤمنين - بما أعد الله لهم من الرضوان والفوز بجنات عدن.

فهنيئًا لك يا أبا المنذر، يا من بلغتَ هذه المنزلة العالية من قلب رسول الله ﷺ، ونلت هذه الدرجة الرفيعة عند الله تعالى، فأمر الله نبيه أن يعرض عليك القرآن، وذُكرْتَ هنالك في الملأ الأعلى باسمك ونسبك، رضوان الله عليك وعلى صحابة رسول الله ﷺ أجمعين.

١٤٧ - ماذا عَمِلْتَ فيما عَلِمْتَ ؟!

جلس أبو الدرداء ﷺ يومًا بين أصحابه، فتذاكروا أمر الآخرة، فسال الدمع من عينى أبى الدرداء ﷺ فسأله الصحابة - رضى الله عنهم - عن سبب تأثره حتى سال الدمع من عينيه، فقال ﷺ :

إن أخشى ما أخشاه على نفسى أن يقال لى يوم القيامة على رؤوس الخلائق :

يا عُويمر : هل علمت ؟

فأقول : نعم.

فيقال لى : فماذا عَمِلتَ فيما عَلِمتَ ؟

(*) رجال حول الرسول ، ص ٣٦٢.

هذا موقف إيماني مبارك، ينقلنا إلى هذا الجو الإيماني بين صحابة رسول الله ﷺ، في مجلس من مجالسهم النورانية، لنتأمل معًا كيف كانت مجالسهم؟ وفيمَ كانوا يتحدثون ؟

يخبرنا الموقف بأن مجالسهم كانت مجالس ذكر وعلم، يتذاكرون أمر الآخرة، إذ كانت الآخرة أكبر همهم وملء قلوبهم، وهكذا ينبغي أن تكون مجالس المؤمنين، فمثل هذه المجالس الإيمانية تفوز ببشريات رسول الله ﷺ، قال ﷺ :

«ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»(١).

في حين حذرنا رسول الله ﷺ من مجالس الغفلة واللهو، يقول ﷺ :

« ما جلس قومٌ مجلساً فلم يذكروا الله فيه إلا كان عليهم ترة»(٢).

ومن دلالات الموقف الإيمانية: خشوع القلب لذكر الله؛ فقد سال دمع أبي الدرداء رضي الله عنه لما تذاكروا أمر الآخرة، وهذا ما صنعه القرآن بهؤلاء الرجال، وهذا أثر الهدى النبوي المبارك فيهم، لقد تم البناء الإيماني لهم، فكانوا كما وصفهم ربهم تبارك وتعالى في قرآنه ، قال الله تعالى :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾
[الأنفال / ٢-٤].

ومن دلالات الموقف الإيمانية : استعداد أبي الدرداء رضي الله عنه ليوم القيامة،

---

(١) ، (٢) سبق تخريجه.

واتهام نفسه بالتقصير، وهذا شأن المؤمن الكيّس، الذى دان نفسه وعمل لما بعد الموت.

ثم تأتى إلى الحكمة التى كانت وراء دموع أبى الدرداء رضي الله عنه وهى إعلانه أنْ أخشى ما يخشاه، أن يسأل يوم القيامة: هل علمت؟ فجيب: نعم، فيسأل: وماذا عَمِلْتَ فيما عَلِمْتَ؟

وقد أكدت السنة النبوية المطهرة هذه الحقيقة، حقيقة أن ما علمناه إما أن يكون حُجة لنا إن عملنا به، وإما أن يكون حُجة علينا إن لم نعمل به.

وفى الحديث النبوى الشريف: «والقرآن حجة لك أو عليك»[١].

وقد نعى القرآن على اليهود أنهم علموا ولم يعملوا، وضرب بهم مثلاً قاسياً، قال تعالى:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة/٥].

وحين تحدث النبى ﷺ عن أهل القرآن، وصفهم بأنهم الذين يعملون به فى الدنيا، قال ﷺ: «يؤتى يوم القيامة بأهل القرآن وأهله - الذين كانوا يعملون به فى الدنيا - تَقْدُمُه سورة البقرة وآل عمران، تحاجان عن صاحبهما»[٢].

وهكذا تأكد لكل مؤمن هذه الحقيقة الإيمانية، وهى أن بركة القرآن لمن يعمل به.

---

(١) جزء من حديث سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم فى صلاة المسافرين (٢٥٣) باب (٤٢).

١٤٨- غسيل الملائكة

لمّا استشهد سيدنا حنظلة ﷺ يوم أحد، أخبر النبى ﷺ أصحابه أن الملائكة تغسله، وأمرهم أن يسألوا أهله عن أمره.

فسأل الصحابة - رضى الله عنهم - امرأته، فأخبرتهم بأنه كان معها، فلمّا سمع صيحة الجهاد، قام من فوره وذهب إلى الجهاد جُنُبًا فى سبيل الله تعالى دون أن يغتسل.

(*) أسد الغابة (ترجمة حنظلة بن أبى عامر).

هذا موقف عظيم يفيض بالدلالات الهادية والقيم التربوية النافعة.

الدلالة الأولى: المسارعة لنداء الجهاد دون تثاقل أو تباطؤ، وهذا ما صنعه القرآن في صحابة رسول الله ﷺ، قال الله تعالى:

﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران/١٣٣].

وقال تعالى:

﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون/٦١].

وأيضًا تقديم أمر الله، والجهاد في سبيله، على ما جُبلت النفوس على حبه من متعة الأهل، فهذه درجة إيمانية عالية.

وفي الحديث: «ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليهما مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذفَ به في النار»(١).

ونتعلم من هنا أن نجعل أمر الله تعالى في المقدمة، فأوامر الله غالية، وهذا شأن المقربين الأبرار.

وكان الجزاء موفورًا، فمع نيل منزلة الشهادة، نال سيدنا حنظلة ﷺ شرف تولي الملائكة غسله، وأخبر بذلك النبي ﷺ. وبمثل هذه التضحيات وهذه المسارعة تبنى الأمم ويرتفع شأنها.

الدلالة الثانية: حكمة رسول الله ﷺ في الاستفادة من المواقف الإيمانية لتعليم أصحابه ولفت أنظارهم إلى مواطن الموعظة والعبرة من المواقف الإيمانية المختلفة.

---

(١) سبق تخريجه.

وفي الموقف – موضوع الحديث – أخبر النبي ﷺ الصحابة عن المنزلة السامية التي وصل إليها حنظلة بإخلاصه وحبه لأمر ربه، حتى تولت الملائكة غسله، ووجههم إلى أن يسألوا أهله؛ كي يعلموا العمل الذي وصل به إلى هذه المنزلة، وهذا من عظيم حكمته ﷺ في تربية أصحابه، وفي هذا أسوة وقدوة للدعاة والمصلحين والمربين أن يتخذوا من مواقف الحياة الحية مادة لاستخلاص العظات والعبر وإرشاد الناس وهدايتهم من خلالها.

الدلالة الثالثة: أن رسول الله ﷺ يُعلم أصحابه من الواقع العملي، وفي أرض الميدان كيف يعيش المؤمن هذا الدين، وكيف يحيا بالإسلام، إنه ﷺ يفتح أعينهم على المستقبل العظيم الذي ينتظرهم عند الله تعالى، ويلفت انتباههم إلى أن ما عند الله من المنازل العالية والدرجات الرفيعة، مما يدفع الصحابة لمزيد من التضحية والفداء، من أجل إقامة دين الله عزّ وجلّ.

١٤٩ - علام نرضى الدَّنيَّة فى ديننا ؟

فى عام الحُديبية ، لمَّا خرج رسول الله ﷺ فى ألف وأربعمائة من أصحابه يقصد البيت الحرام ، اعترضته قريش ، ثم أرسلت الرسل تريد الصلح والمعاهدة ، وتم الاتفاق ولم يبق إلا كتابة الصلح ، وإذا بعمر بن الخطاب يقول لأبى بكر رضى الله عنهما : أو ليس رسول الله ﷺ ؟ أو لسنا بالمسلمين ؟ أو ليسوا بالمشركين ؟ وأبو بكر يقول له : بلى ، فقال عمر : فعلام نعطى الدَّنيَّة فى ديننا ؟

فقال أبو بكر : الزم غَرْزَك يا عمر ، إنه رسول الله .

فقال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله ﷺ .

فلمَّا كرر عمر الأسئلة نفسها على رسول الله ﷺ ، قال له النبى ﷺ : «يا عمر أنا عبد الله ورسوله ، ولن أخالف أمره ، ولن يضيعنى» .

فما هى إلا أن نزلت سورة الفتح على رسول الله ﷺ ، فأرسل إلى عمر فأقرأه إياها ، فقال : يا رسول الله أو فتح هو ؟

قال ﷺ : «نعم» . فطابت نفس عمر رضي الله عنه .

(*) السيرة النبوية (١ / ١٨٩) .

هذا موقف يظهر فيه التدبير الإلهي لنبيه ﷺ؛ حيث وضع الله في هذا التدبير الإلهي سر النجاح والنصر والفتح المبين، ومن هذا الموقف يدرك الفرق بين تدبير النبوة وتدبير الفكر البشري، بين من يعمل بعقله فقط، ومن أرشده الله إلى الحق وحيًا وإلهامًا، مع ما أولاه الله من نعمة العقل والتدبير والبصر والبصيرة.

فبحكم الأسباب وحدود العقل البشري دهش المسلمون من شروط صلح الحديبية، ودهشوا أكثر مما رأوه من رسول الله ﷺ من التساهل والموافقة على كل شروط المشركين في الصلح، لقد أعطاهم النبي ﷺ كل ما سألوه، وكان من أشد شروط الصلح: أن يرجع المسلمون دون زيارة البيت الحرام، وأن يرد الرسول ﷺ على المشركين من يأتيه منهم، أما من جاء من المسلمين إليهم فلا يردونه إلى رسول الله ﷺ.

فنظر العقل المجرد – إلى هذه الشروط – هو الذي استفزّ سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ بحماسه للدين ولعزة هذا الدين، فتوجه إلى أبي بكر ثم إلى النبي ﷺ بأسئلته اللاهبة: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟! ألست رسول الله ﷺ ؟! فلِمَ نرضى الدنية في ديننا ؟!.

وتأتي حكمة رسول الله ﷺ في معالجة الأمر؛ حيث بين ﷺ أن الأمر له بُعْد أعمق، وأن النبي ﷺ لا يتصرف بعقله المجرد فقط ولا ببشريته المطلقة، ولكنه يتصرف من موقع النبوة المؤيدة بالوحي من الله تعالى، وأن النبي ﷺ لا يعصي ربه، وأن الله لن يضيعه، وعندئذ هدأت نفس سيدنا عمر – رضي الله عنه ، بعد بيان رسول الله ﷺ لحقيقة الأمر، وما هو إلا وقت يسير حتى نزلت سورة الفتح على رسول الله ﷺ : ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا** ﴾ [الفتح/١].

وهكذا تأكد للمسلمين أن صلح الحديبية كان مقدمة لنصر مبين وفتح عظيم . وفي هذا يقول الله تعالى :

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح/ ٢٧].

لقد كان صلح الحديبية هدنة مكنت للمسلمين، حيث اختلط المسلمون بالكفار ونادوهم بالدعوة وأسمعوهم القرآن وناظروهم على الإسلام جَهْرَةً آمنين، وظهر من كان مستخفياً بالإسلام، حتى دخل في الإسلام - أثناء فترة المعاهدة بعد صلح الحديبية - مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر.

ومن دلالات الموقف العظيمة : أن الله تبارك وتعالى أراد أن يجعل فتح مكة لنبيه فتح مرحمة وسِلْم، لا فتح ملحمة وقتال، فتحاً يدخل الناس فيه في دين الله أفواجاً، فكان صلح الحديبية تمهيداً لذلك. والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

١٥٠ - فتربصوا حتى يأتى الله بأمره !

آثر بعض المسلمين بمكة الإقامة مع الأهل والعشيرة على الهجرة إلى رسول الله ﷺ واللحاق به بالمدينة، والإيمان بالله ورسوله والمشاركة في الجهاد، فلمّا استحثهم المسلمون على الهجرة، تعللوا بقيامهم بعمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج، وهذه طاعات لها منزلتها عند الله تعالى، ولم يهاجروا، فأنزل الله تعالى قوله :

﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة / ٢٤].

(*) راجع تفسير الخازن (٣ / ٥٨).

هذا موقف يحمل دلالات هادية، تشتد إليها حاجة أمتنا في واقعنا المعاصر :

الدلالة الأولى : فقه الأولويات في الإسلام. فالأعمال الصالحة ليست كلها على مرتبة واحدة، وإنما تتفاضل الأعمال وتتفاوت درجاتها بحسب أهميتها ومنزلتها عند الله سبحانه وتعالى، وكان الصحابة - رضي الله عنهم - حريصين كل الحرص على معرفة الأولى من الأعمال، ليتقربوا به إلى الله تعالى، فكثر سؤالهم للنبي ﷺ : ما أفضل الأعمال ؟ وما أحب الأعمال عند الله تعالى؟

لكنّ بعض المسلمين لم يدرك هذا الفقه، وسوّى بين أعمال الهجرة والجهاد وبين عمارة البيت، فأنزل الله قرآنًا يصحح هذا المفهوم ، قال تعالى :

﴿ أجعلتم سقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين ۞ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون ﴾ [التوبة ١٩ / ٢٠].

وقد آثر بعض المسلمين البقاء بمكة مع الأهل والعشيرة، ومع تجارته وأمواله على الهجرة إلى المدينة واللحاق برسول الله ﷺ والمشاركة في الجهاد، فلما استحثهم المؤمنون على الهجرة، تعللوا بقيامهم بخدمة الحجاج وعمارة البيت وحاجة الأهل إليهم والخوف على أموالهم، فأنزل الله قرآنًا يرد عليهم، ويصحح لهم ويرشدهم ، قال تعالى :

﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارةٌ تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبّ إليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله فتربّصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ [التوبة / ٢٤].

وهكذا تقرر الآية بأنه على المسلم أن يجعل أمر الله في المقدمة، وألا يقدم على أمر الله ومرضاته شيئًا، وأن الركون للراحة والأهل والمال وترك الجهاد في سبيل الله، فيه نذير بسوء العاقبة والتعرض لمصير الفاسقين.

وقد أكد القرآن هذا المعنى في آيات كثيرة ؛ منها قوله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات/ ١].

فالدين من الله تعالى، وميزان الأعمال الصالحة وتفاوتها يكون بمعايير القرآن والسنة، وليس بمعايير الهوى والرؤى الشخصية.

الدلالة الثانية : هي ما أشارت إليه الآية من تحديد للأشياء التي ترتبط بها المشاعر، وجُبلت النفوس على التعلق بها والافتتان بأمرها، والتي يضعف الإنسان أمامها فيقدمها على أمر الله تعالى، فليحذر المؤمن فالأمر كله لله تعالى.

والآباء والأبناء والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة كلها نِعَم ينبغي أن تكون دافعًا لشكر المنعم وزيادة طاعته، لا أن يفتن العبد بها ويؤخر ما حقه التقديم إرضاءً لرغبات نفسه ومطامع هواه.

١٥١ – بل أجر خمسين منكم !

أتى أبو أمية الشعباني أبا ثعلبة الخُشَني، فقال له: كيف تصنع في قول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة/١٠٥].

فقال أبو ثعلبة: لقد سألت عنها خبيرًا، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: «ائتمروا بالمعروف وتناهَوْا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحًا مطاعًا وهوى متبعًا ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بنفسك، ودع عنك العوامَّ، فإن من ورائكم أيامًا الصابر فيهن مثل القابض على الجمر، للعامل فيهن أجر خمسين رجلاً يعملون كعملكم».

قيل يا رسول الله: أجر خمسين منا أو منهم.

قال ﷺ: «بل أجر خمسين منكم».

(*) أخرجه أبو داود في الملاحم (١٧)، والترمذي (٣٠٥٨)، وابن ماجه (٤٠١٤).

رضى الله عن صحابة رسول الله ﷺ، ما الذى كان يشغل عقولهم ؟ وحول اى شيء كانوا يتحدثون ويتحاورون ؟ ويجيبنا الموقف بأن القرآن قد ملأ قلوبهم وعقولهم، وأن حديثهم في مجالسهم كان فى القرآن.

ولمّا قرأ أبو أمية الشعبانى قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة/١٠٥]. لفتت الآية انتباهه، وأراد أن يتحقق من المعنى الذى فهمه منها، فسأل أبا ثعلبة الخشنى، ووافق ذلك توارد الخواطر بينهما، حيث استوقفت الآية أبا ثعلبة الخشنى من قبل، فسأل عنها رسول الله ﷺ فذكر أبو ثعلبة تفسير رسول الله ﷺ لهذه الآية.

الدلالة الأولى: أن فى هذا أسوة لنا أن تكون عقولنا مشغولة بالقرآن وفهمه وتدبره، وأن يكون حديثنا وحوارنا حول دلالات القرآن ومعانيه، ففى هذا صلاح لأحوالنا ومرضاة لربنا.

الدلالة الثانية هى : عدم ذوبان المؤمن فى تيار المعاصى والآثام فى زمن الفتن، بل على المؤمن أن يكون حريصاً على مرضاة ربه، وأن الإنسان إذا أطاع ربه فيما أمر ونهى فلا يضره من ضل بعد ذلك، وهذه حقيقة يؤكدها هدى سيدنا رسول الله ﷺ، ومن ذلك قوله ﷺ :

«لا يكن أحدكم إمعة، يقول : إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساء الناس أسأت، ولكن وطّنوا أنفسكم على تقوى الله وطاعته»[١].

الدلالة الثالثة : هى أن ثواب العمل الصالح يضاعف فى زمن الفتن، ويظهر ذلك من قول النبى ﷺ : «فإن من ورائكم أيامًا الصابر فيهن مثل القابض على

(١) سبق تخريجه.

الجمر، للعامل فيهن أجر خمسين رجلاً يعملون كعملكم» ، قيل : يا رسول الله : أجر خمسين منا أو منهم ؟ قال ﷺ : «بل أجر خمسين منكم».

وفي هذا ترغيب في الحرص على العمل الصالح في زمن الفتن، والثبات على الطاعة مهما كانت الضغوط التي من حولنا، ومهما كانت الإغراءات التي أمامنا.

الدلالة الرابعة : إشارة إلى المشقة التي تصادف الصالحين والشرفاء والأمناء في زمن الفتن، وأن السبيل للتغلب على هذه المشقة إنما يكون بالصبر والاستعانة بالله تعالى، فإذا ما تم للعبد العمل الصالح نال الأجر مضاعفاً من الله، فالثواب على قدر المشقة، وإذا طاب الغرس طاب الثمر.

١٥٢ – ابتغاء وجه ربه الأعلى

أعتق أبو بكر الصديق ﷺ سبعة كلهم كان يُعَذَّبُ في الله تعالى، منهم بلال، وعامر بن فُهَيْرة، ومنهم بعض النساء اللائي أسلمن فكن يعذَّبن لإسلامهن، فقال له أبوه أبو قحافة :

أراك تعتق رقابًا ضعافًا، فلو أنك أعتقت رجالاً أقوياء يمنعونك ويدفعون عنك !

قال أبو بكر ﷺ :

يا أبت إنما أريد ما عند الله.

فنزل قول الله تعالى :

﴿ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ * وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ [الليل/١٨ – ٢١].

(*) راجع تفسير السمرقندي (٣/ ٤٨٥).

هذا موقف إيماني عظيم، حسبه عظمة وجلالاً أن الله تعالى أنزل فيه قرآنًا يُتلى، وفارس الموقف رجلٌ كريم على الله، حبيب لرسول الله ﷺ، إنه أول من آمن وصدق برسول الله ﷺ، إنه محرر العبيد، ورفيق الرسول في الغار، أنزل الله فيه قرآنًا يُتلى في مواضع عديدة، فرضي الله عنه وأرضاه.

وأولى دلالات الموقف هي : رأفة قلب أبي بكر رضي الله عنه بضعفاء المسلمين، فهو يرق لحالهم، ويتأثر بعنائهم وعذابهم، ولم يقف الأمر عند حدود التأثر القلبي وتحرك المشاعر؛ بل ارتقى إلى مستوى العمل، فبذل ماله لعتقهم، وهذا من هدي الحبيب المصطفى ﷺ. وفي الحديث النبوي الشريف: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[1].

الدلالة الثانية : الإخلاص لله تعالى في هذا العمل العظيم من أبي بكر رضي الله عنه، فهو لا يرغب في نفع منهم، ولا في خير يعود على شخصه من ورائهم، ولذلك لما قال له أبوه : أراك تعتق ضعافًا لا يدفعون عنك، فلو أنك أعتقت رجالاً أقوياء يدفعون عنك.

أجاب أبو بكر رضي الله عنه :

يا أبت إنما أريد ما عند الله. إنه يبتغي مرضاة الله تعالى. لذلك أثنى الله عليه وعلى أمثاله في قوله تعالى :

﴿ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ * وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ [الليل / ٢٠ - ٢١].

وهذه حال من أثنى عليهم القرآن من صحابة رسول الله ﷺ، كل مقاصدهم كانت خالصة لوجه الله عز وجل.

---

(١) سبق تخريجه.

من ذلك قول الله تعالى :

﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [الإنسان/ ٩].

ويستفاد من هذا أن الإخلاص سر بركة الأعمال وقبولها عند الله تعالى، والأعمال بدون إخلاص ترجع وبالاً على صاحبها، فمن قاتل رياء، ومن أنفق رياءً، ومن عَلَّم رياءً : أخبر النبي ﷺ عنهم بقوله لسيدنا أبي هريرة رضي الله عنه : «أولئك أول خلق تسعر بهم نار جهنم يوم القيامة»[١].

هذا في مقابل قول النبي ﷺ :

«نية المؤمن خير من عمله»[٢].

الدلالة الثالثة : أن من سارع في مرضاة ربه سارع ربه في رضاه، وهذا مستفاد من قول الله تعالى : ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ [الليل/ ٢١].

فلا يُنال ما عند الله إلا بطاعته، والجزاء من جنس العمل.

الدلالة الرابعة : عموم معنى الآيات التي نزلت في سيدنا أبي بكر رضي الله عنه، فهي بشرى بمعونة الله وتأييده لكل من سلك هذا المسلك الإيماني فأعطى ابتغاء مرضاة الله، واتقى ابتغاء مرضاة الله، وصدق بكل أحواله قولاً وفعلاً هدى الله وسنة رسول الله ﷺ، فمن فعل ذلك فإنه إن شاء الله من أهل عطاء الله وكرمه في هذه الآية، والله الموفق.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٨٢)، وأصله عند مسلم (٣/ ١٩٠٥).
(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (٦٨٥٩).

١٥٣ - يَعْبُدُ اللَّهَ على حرف

قدم رجال إلى المدينة، فكان الواحد منهم يُسلم، فإن ولدت امرأته غلامًا ونتجت خيله، قال:

إن الإسلام دين صالح.

وإن لم تلد له امرأته ذكرًا، ولم تنتج خيله ذمّ دين الإسلام، وقال:

هذا دين سوء.

فأنزل الله تعالى قوله:

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ [الحج/١١].

(*) تفسير السمرقندي (٢/٣٨٧).

هذا موقف تشتد إليه الحاجة في واقعنا المعاصر، الذى طغت فيه قيم المادة والاستهلاك على حساب قيم الإيمان والأخلاق.

والموقف يظهر حقيقة غالية، هي أن الدين لا يوزن بموازين الناس والقيم المادية، الدين ليس صفقة؛ الدين أسمى من كل هذه القيم المادية، إنه من الله تعالى الخالق الحكيم. وموازين الله تعالى تختلف عن موازين البشر، فما كان من ميزان الناس بلاء ومحنة، بالصبر عليه والرضا بقضاء الله وقدره يكون منحة وعطاء في ميزان الله، فما من شوكة تصيب المؤمن ولا هم ولا غم إلا كفر الله بها من سيئاته وغفر له بها من ذنوبه.

إن أمر المؤمن كله له خير، وما ذلك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له.

وموازين الإيمان تظهر أن ابتلاء الله للعبد إنما هو من رحمة الله ولطفه، وليس البلاء دليل هوان المبتلى على الله تعالى، بل إن النبي ﷺ لما سئل: أى الناس أشد بلاء، فقال:

«أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان فى دينه صُلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان فى دينه رقة - أى هوان وضعف - ابتلى على حسب دينه، فما يزال البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض وما عليه من خطيئة»[1].

لكن الذين يأخذون الدين على أنه صفقة فإنهم ضلوا السبيل.

وكثيرا ما يقع بعض الناس فى هذا المفهوم الذى يعالجه الموقف، حيث نسمع من أحدهم: لما صليت فقدت حذائى، أو ساعتى أو نقودى، ويلبس عليه الشيطان، ويوسوس له بأن ينصرف عن الصلاة والطاعة.. سبحان الله!!

---

(١) سبق تخريجه.

هل يمتحن العبد ربه ؟! هل الدين منفعة مادية ؟!

كل هذه المعاني الساقطة تفضحها الآية الكريم وتكشفها :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ [الحج/١١].

وهذا الطبع يكون في النفوس التي لم يتمكن منها الإيمان، النفوس التي تُركت لهواها، ويكشف الله هذا الطبع ويحذر منه، قال الله تعالى :

﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ [المعارج ١٩ : ٢١].

ثم استثنى ربنا أهل الإيمان الصادق والطاعة الخالصة، فقال تعالى :

﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴾ [المعارج/٢٢].

كما يوضح القرآن الكريم وجهاً من وجوه هذا الطبع، قال الله تعالى :

﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ [الفجر/١٥ - ١٦].

وهكذا تهجم على الإنسان طبائع السوء في غيبة الإيمان، ويُفتن في هذا الخطأ الفكري؛ حيث يجعل الدين وسيلة للدنيا، لتحقيق أهوائه ورغباته.

والدين غاية. وعبادة الله حق على الإنسان ، قال تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات/٥٦].

١٥٤ - يوم يعض الظالم على يديه

قدم عُقبة بن معيط ذات يوم سفر، فصنع طعامًا ودعا إليه رسول الله ﷺ، فأبى النبي إجابة الدعوة إلا إذا أسلم عقبة، فأسلم فأجابه النبي ﷺ، وأكل من طعامه.

وكان أُبيّ بن خلف غائبًا، فلمّا حضر وعلم بالأمر، حمل على صاحبه عقبة حملاً شديداً، وقال له:

وجهي من وجهك حرام إن تابعت محمداً، ولن أرضى عنك إلا أن تأتي محمداً وترد عليه الإسلام وتصنع به كذا وكذا، فذهب عقبة وفعل إرضاءً لصاحبه أُبيّ بن خلف، فأنزل الله تعالى قوله:

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾ [الفرقان/٢٧/٢٩].

(*) تفسير السمرقندي (٢/٤٥٩).

هذا موقف يحمل دلالات هادية ونافعة:

الدلالة الأولى : أثر الصحبة في الأصحاب؛ فعقبة لما جالس رسول الله ﷺ ودعاه إلى طعامه، اشترط عليه النبي الإسلام فأسلم، ولو ظل عقبة على هذه الحال مع رسول الله ﷺ لدخل الجنة. وهذا نموذج لأثر الصحبة الطيبة، لكن الانتكاسة والانهيار جاءه من صاحبه المشرك الذي حمل عليه، وهدده بالقطيعة إن تابع رسول الله ﷺ وأمره أن يسيء لرسول الله ﷺ قولاً وفعلاً. وصنع عقبة ما دفعه إليه صاحب السوء أبيّ بن خلف، فحلت عليه اللعنة، وباء بغضب ووعيد من الله تعالى، وأنزل الله تعالى فيه :

﴿ **وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً** ﴾ [الفرقان/٢٧-٢٩].

وهكذا يؤكد هذا الموقف لنا حقيقة مهمة، وهي التي أشار إليها حديث النبي ﷺ : «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»[(١)].

وفي الحديث النبوي الشريف : «إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير؛ فحامل المسك إمّا أن يحذيك وإمّا أن تبتاع منه، وإمّا أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير إمّا أن يحرق ثيابك، وإمّا أن تجد منه ريحًا منتنة»[(٢)]. فلابد من التأثر بالصاحب.

الدلالة الثانية : سوء عاقبة صحبة الشر والسوء، حيث أصاب عقبة الندم والحسرة على اتباعه لصاحبه أبيّ بن خلف، كما وضحت الآية، وهكذا انقلبت صحبة الشر والسوء في الدنيا إلى عداوة يوم القيامة وحسرة وندامة. ويؤكد القرآن هذا المعنى في آية أخرى، قال الله تعالى :

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٠٣، ٣٣٤)، والترمذي (٢٣٧٨).
(٢) سبق تخريجه.

﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف/٦٧].

لذلك أوصت السنة النبوية المطهرة بأن نصطفى الأصحاب.

قال ﷺ : «لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقى»(١).

الدلالة الثالثة : صبر رسول الله ﷺ فى الدعوة إلى الله تعالى، وتحمّل الأذى من المشركين، وفى هذا درس لورثة الأنبياء، الدعاة العاملين، أن يتأسّوا برسول الله ﷺ فى التحلى بالصبر فى دعوتهم لله تعالى، وفى تحمل أذى المعارضين والمعاندين.

وهذا هدى قرآنى كريم، قال تعالى :

﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ [لقمان/١٧].

---

(١) سبق تخريجه.

١٥٥ – ما الفقر أخشى عليكم

بعث النبي ﷺ أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه ليأتي بمال من البحرين، فلما قدم أبو عبيدة بمال وسمعت الأنصار بقدومه، وافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ، فلمَّا صلى انصرف فتعرضوا له، فتبسم النبي ﷺ حين رآهم، ثم قال:

«أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين؟».

قالوا: نعم يا رسول الله.

فقال ﷺ:

«أبشروا وأمِّلوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم».

(*) سبق تخريجه.

هذا موقف نبوي كريم، يحمل قيمًا هادية، ودلالات نافعة.

الدلالة الأولى : حياء الصحابة رضي الله عنهم، فبعض الأنصار قد تعرض لشدة، وعلى الرغم مما بهم من شدة وحاجة إلا أن الحياء منعهم من إعلان حاجتهم، واكتفوا بالتعرض لرسول الله ﷺ بعد صلاة الفجر. والحياء شعبة من الإيمان، والحياء لا يأتي إلا بخير، والحياء كله خير.

وهذا شأن المؤمن لا يعرف الإلحاح في السؤال، بل هو ممن وصفهم الله في قرآنه :

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة / ٢٧٣].

الدلالة الثانية : رأفة النبي ﷺ ورحمته بصحابته الكرام؛ فحالهم لا يخفى عليه، لذلك لما رآهم أمامه استقبلهم بابتسامة كانت بلسمًا شافيًا لنفوسهم، وهذا من كريم خُلُقه وسماحته ﷺ، وما أحوج القائمين على الصدقات والزكاة إلى أن يتأسوا بسيدنا رسول الله ﷺ في استقبال الفقراء ومستحقي الصدقات والزكاة، بمثل هذه البسمة الحانية الودود؛ لأن هؤلاء المتعبين من الفقراء والمساكين والمرضى يحتاجون مع المال عطاء الود والمحبة ورعاية المشاعر.

الدلالة الثالثة : حكمته ﷺ في إسداء النصيحة.

فقد قدّم للنصيحة بالبشرى بقضاء حاجة كل منهم، وفي هذا ما يحقق الطمأنينة لهم مع فراغ بالهم من هَمّ مسألتهم، وفي هذا أيضًا تهيئة لنفوسهم لاستقبال نصيحة رسول الله ﷺ، ويظهر هذا من قوله ﷺ لهم :

« ابشروا وأمّلوا ما يسركم » .

ثم سارع النبي في نصيحته للأمة بقوله :

« فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم » .

وفي هذا بيان من رسول الله ﷺ أن أمته تتجاوز محنة الفقر بسلام، في حين حذر رسول الله ﷺ من بسط الدنيا وما يصاحبه من ترف يشغل الناس عن ذكر الله وطاعته، ومن يقرأ التاريخ يعلم أن الترف الزائد والانشغال بالشهوات والملذات من أقوى أسباب انهيار الأمم وإفلاسها .

وهذه حقيقة يؤكدها القرآن الكريم، قال الله تعالى :

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء/١٦] .

١٥٦ - وهم لها سابقون

قرأت السيدة عائشة - رضي الله عنها - قول الله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ [المؤمنون / ٦٠].

ثم سألت رسول الله ﷺ :

يا رسول الله، هل هو الرجل يسرق ويزني ويفعل الموبقات، ويخاف إذا رجع إلى ربه أن يعاقبه الله تعالى عليها ؟!

فقال النبي ﷺ :

«لا يا عائشة ؛ إنما هو الرجل يصوم ويصلي ويفعل الخيرات، ويخاف إذا رجع إلى ربه ألا يتقبل منه ذلك. يا عائشة: أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون».

(*) سبق تخريجه.

هذا موقف نبوى كريم، تتجلى فيه قيم إيمانية ودلالات هادية:

الدلالة الأولى : التدبر والفهم لآيات القرآن الكريم، والسؤال عما أشكل على الفهم، وهكذا صنعت السيدة عائشة - رضى الله عنها - تقرأ الآيات وتتدبر المعانى والدلالات؛ كى تنتفع بها وتهتدى بهديها، فإذا أشكل عليها شىء أسرعت تسأل رسول الله ﷺ، على نحو ما حدث فى الموقف، حيث عرضت فهمها الذى تبادر إلى ذهنها على رسول الله ﷺ.

وهذا منهج دعانا إليه القرآن، فدعانا إلى التدبر والفهم، قال الله تعالى:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء/ ٨٢].

ويؤخذ من هذا أن نهتم فى تعليم أولادنا بالفهم، فالفهم له الأولوية على الحفظ، وذلك لأن حفظ القرآن وحده دون فهم وعلم لا يرفع جهلاً. هذا مع عدم إهمال الحفظ والقراءة؛ فلذلك ثوابه عند الله تعالى.

وليت القائمين على أمر تحفيظ القرآن الكريم بالمؤسسات الخيرية أن يضموا مع جهدهم الطيب فى التحفيظ معرفة المعانى الأساسية والكلمات التى تحتاج إلى شرح أو تفسير، ويا حبذا لو نشطت جهودهم المباركة فى تدريس خلاصة مركزة عن القيم الحضارية فى القرآن، وآفاق التفكير العلمى فى القرآن الكريم، حيث تشتد حاجة الأمة إلى غرس هذه المعانى.

وحسبنا تأكيداً لكل هذه المعانى أن النبى ﷺ حين وجه الأمة إلى تعليم القرآن، عبّر عنه بالتعليم ولم يعبّر بالحفظ لأن التعليم أشمل وأكثر نفعاً، قال ﷺ : «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»[١].

---

(١) أخرجه البخارى (٦/ ٢٣٦).

كما دعانا القرآن إلى الرجوع إلى أهل الذكر، فيما أشكل علينا من فهم للآيات، قال تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل/٤٣].

وهذا منهج علمي في التعليم دعانا إليه القرآن الكريم بعيداً عن التخبط والعشوائية.

الدلالة الثانية : حكمة النبي ﷺ في الإجابة.

فقد أوتي ﷺ جوامع الكلم، فجاءت الإجابة وافية مختصرة دون تطويل ممل يُشتت ذهن السائل. ومن سمات أسلوبه ﷺ الوضوح واليسر في عرض الإجابة دون تعقيد أو إغراب.

وفي هذا أسوة من رسول الله ﷺ للمعلمين والدعاة أن يكونوا واضحين حريصين على سهولة الأسلوب وتركيزه دون تطويل ممل يشتت الأذهان.

ويظهر هذا من قوله ﷺ :

« لا يا عائشة، إنما هو الرجل يصوم ويصلي ويفعل الخيرات ويخاف إذا رجع إلى ربه ألا يتقبل الله منه ذلك. يا عائشة، أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون ».

الدلالة الثالثة : التمييز بين خوف العاصي وخوف المطيع، فسياق الآية يحدد الخوف المقصود فيها أنه من قبيل خوف المطيعين. وهو خوف من أن يكون في عملهم نقص يحجبه عن القبول، وخوفهم تعظيماً لله – عز وجل – ألا يرقى إخلاصهم في العمل إلى نيل رضا الله عن أعمالهم.

وهذا شأن الأنبياء – عليهم السلام – والصالحين، فسيدنا إبراهيم – عليه

السلام - بعد طاعات عظيمة لمرضاة الله رب العالمين، من تركه زوجه هاجر ووليده الطفل الصغير إسماعيل - عليه السلام - في أرض لا زرع فيها ولا ماء، وبطاعته أمر الله بذبح ولده، ولكن الله فداه، وبطاعة الله في رفع قواعد البيت، بعد هذا كله كان دعاؤه:

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة/١٢٧].

كذلك تجد خوف المطيعين، فبعد أن بين الله أن نهارهم مطيع متواضع، وليلهم راكع ساجد، ما رأوا أن طاعتهم ليل نهار مانعة لهم من جهنم، فكان دعاؤهم :

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ [الفرقان/٦٥].

ومن هنا أمرنا الله بالاستغفار بعد الإفاضة من عرفات، وبعد الصلاة؛ كي لا يدخل قلبَ الإنسان عُجْبٌ بعمله؛ وكي يكون الاستغفار دواء لما قد يكون في العمل من نقص، والله المستعان.

١٥٧ - أساءوا فأكثروا

أساء أناس من أهل الشرك وأكثروا، وقتلوا وأكثروا، وزنوا وأكثروا، فأتوا رسول الله ﷺ وقالوا:

إن الذى تدعونا إليه لَحَسن، لو تخبرنا أنّ لما عملنا كفارة ؟

فنزل قول الله تعالى :

﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان / ٧٠].

وقوله تعالى :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر / ٥٣].

(*) راجع تفسير السمرقندى (٢ / ٤٦٧).

من فضل الله على عباده أن فتح باب التوبة للتائبين . سبحانه وتعالى، يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، رحمته سبقت غضبه، يفرح بتوبة عبده إليه، إنه سبحانه وتعالى حليم غفور، رحيم ودود، أرحم بعباده من الأم بولدها، ومهما عظمت ذنوب العباد أو كثرت، فالله يغفرها ولو كانت مثل زبد البحر إذا تاب العبد وآمن وعمل عملاً صالحًا .

إن كل هذه الرحمات والمغفرة والود والحلم ينالها العبد بالتوبة الصادقة التي تتوافر شروطها؛ وهي :

- الندم على ما فات من المعاصي .
- العزم على عدم العودة إلى المعصية أبداً .
- الإقلاع عن المعاصي .

فإن كان الأمر يتعلق بحقوق العباد، فليجتهد العبد في قضاء هذه الحقوق على قدر استطاعته، فإن عجز وكان صادقًا في توبته تولى الله تعالى عنه إرضاء أصحاب الحقوق .

والموقف يُبين حال قوم أساءوا فأكثروا، لهم غدرات وفجرات، ورغبوا في الإسلام، إلا أن جرم المعاصي والفواحش التي ارتكبوها يقف حاجزًا أو مانعًا لهم، فسألوا رسول الله ﷺ : يا رسول الله إن الذي تدعونا إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة ؟ فنزل قول الله تعالى :

﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان / ٧٠] .

ويؤكد هذا الموقف حقائق إيمانية غالية .

الحقيقة الأولى هي : أن التوبة مفتاح المغفرة والرحمة والرضا .

والحقيقة الثانية هي : البشرى للصادقين في توبتهم الجادين في رجوعهم إلى الله تعالى بأن الله سيبدل سيئاتهم حسنات، وتبارك الله الغفور الرحيم الودود الرءوف اللطيف بعباده .

وأن يستر الله العبد العاصي فلا يفضحه بين الخلائق، فهذا فضل ونعمة، وأن يسقط الله العقوبة عن العبد المذنب بعد ستره، فهذا فضل بعد فضل، ونعمة فوق نعمة . وأن يُبدِّل الله السيئات حسنات بعد ستره وعفوه، فهذا كرم ما بعده كرم .

وهذا الحنان الإلهي والكرم الرباني يدفع العبد إلى أن يستحيي من ربه ويسارع بالتوبة الصادقة ليكون أهلاً لفضل الله ونعمته .

والحقيقة الثالثة هي : حكمة رسول الله ﷺ في الصبر على أهل المعاصي ودعوتهم برفق إلى الهداية ، التوبة دون تعنيف أو شدة، مع الدعاء لهم بصلاح الحال، وفي هذا أسوة للدعاة والمصلحين أن يتحلوا بالصبر في دعوتهم، وألاَّ يرفقوا بمن يدعونهم وأن يتعجلوا النتائج، وألا يقطعوا الأمل من هدايتهم، والتوفيق من الله تعالى .

١٥٨ - دلونى على السوق

لما تمت الهجرة إلى المدينة، وآخى النبى ﷺ بين المهاجرين والأنصار - رضى الله عنهم - وقد كان من ذلك مؤاخاة الرسول ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف من المهاجرين وسعد بن الربيع من الأنصار.

فقال سعد لعبد الرحمن - رضى الله عنهما - :

«أخى أنا أكثر أهل المدينة مالاً، فانظر شطر مالى فخذه! وعندى امرأتان فانظر أيتهما أعجب لك حتى أطلقها وتتزوجها».

فقال له عبد الرحمن ﷺ :

«بارك الله لك فى أهلك ومالك، دلونى على السوق». وخرج إلى السوق فاشترى وباع وربح.

(*) رجال حول الرسول، ص ٤٩٣.

هذا موقف يفيض بالدروس النافعة والعبر الهادية :

الدرس الأول هو : التضحية من أجل إقامة دين الله تعالى، فقد رأينا كيف استقبل الأنصار المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم وأهليهم، إنهم قدموا - عن طيب خاطر - شطر أموالهم وأهليهم للمهاجرين.

أي نفسية هذه ؟! إنه السمو في أرقى معانيه، إنها روح الأخوة التي غرسها الإسلام في أتباعه.

لذلك فاز الأنصار بمنزلة عالية عند الله تعالى وعند رسول الله ﷺ، فقد مدحهم الله في قرآنه، قال الله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال / ٧٤].

ومدحهم النبي ﷺ واختارهم، وقال : «ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به، والذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا، لسلكت شعب الأنصار . وإنكم ستلقون أثرة من بعدي فاصبروا حتى تلقوني على الحوض، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار»[١].

والدرس الثاني هو : العفة التي كانت من المهاجرين، فعبدالرحمن بن عوف ﷺ أمام العرض الكريم من سعد بن الربيع - رضي الله عنه- يقول له : بارك الله لك في أهلك ومالك . نعم هذا كرم يقابله تعفف - رضي الله عنهم - أجمعين.

الدرس الثالث : هو درس الأخوة، حيث جعل النبي ﷺ الأخوة أساسًا

(١) رواه مسلم.

تجتمع عليه الأفئدة ولا يبقى بين المهاجرين والأنصار بعد التآخى من فرق إلا فارق التقوى والعمل الصالح .

كما أن التآخى بين المهاجرين والأنصار يؤدى إلى التماسك الإسلامى، فلا ينال منه التشتت والتوزع والتفرق .

كما أن التآخى فيه روح الجماعة التى تقوى الهمم والعزائم وتنال تأييد الله تعالى، فيد الله مع الجماعة .

وإن المجتمع الذى تسوده العلاقات الودودة الحميمة القائمة على الحب والأخلاق والإيمان هو مجتمع ناجح .

وهذه قيمة زكاها القرآن الكريم، قال الله تعالى :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات/ ١٠].

وفى الحديث الشريف :

« المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كُربة فرج الله عنه بها كُربة من كُرَب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة »[١].

الدرس الرابع : هو سرعة تحول المهاجرين فى المدينة من موقع الإعانة إلى موقع الإسهام فى بناء المجتمع والمشاركة فيه، فهذا عبد الرحمن بن عوف يذهب إلى السوق ويتاجر ويربح، وهذا المعنى يؤكده قول النبى ﷺ : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفى كل خير »[٢].

وقوله ﷺ : « اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول »[٣].

---

(١) أخرجه البخارى (٣ /١٦٨، ٩ /٢٨)، ومسلم فى البر والصلة (٣٢).
(٢) أخرجه مسلم فى القدر (٣٤).
(٣) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى (٤ / ٣٣٣).

١٥٩ – ويحك يا جُبير !

عندما فتحت «قبرص» وحُملت الغنائم إلى المدينة رأى الناس أبا الدرداء يبكي، فدهشوا، فتقدم جُبير بن نُفير وسأل أبا الدرداء ﷺ :

ما يبكيك في يوم أعزّ الله فيه الإسلام وأهله؟

فأجاب أبو الدرداء :

ويحك يا جُبير ! ما أهون الخلق على الله إذا هم تركوا أمره، فهذه أمة تركت أمر الله فصارت إلى ما ترى !!

(*) رجال حول الرسول ، ص ٣٥٧.

نحن أمام حكمة بالغة وفهم عميق للأحداث واستخلاص العبر والعظات منها، وربط أمور الخلق بالخالق تبارك وتعالى.

فأول درس يوجه أشياعنا إليه أبو الدرداء ﷺ هو: الانهيار السريع والإفلاس العاجل للأمم، إنه نتيجة شيوع الفساد والترف والتخلي عن أوامر الله تعالى، وفي هذا يقول الله تعالى:

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء/١٦].

ومن هنا فقد كان أبو الدرداء ﷺ يخشى على المسلمين حين جاءتهم الغنائم واتسعت الأموال أن يُشغلوا بها عن دين الله تعالى، وأن يتنافسوا في حب الدنيا كما تنافسها الذين من قبلهم فيصيبهم ما أصاب غيرهم من الضعف والهوان، وتنتقل الغلبة من بين أيديهم إلى غيرهم.

وهذا ما حذّر منه النبي ﷺ حين قال:

«فوالذي نفس محمد بيده ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم»[١].

ومن دروس الموقف أيضًا: شؤم المعصية على الإنسان، وأنها تجعل الإنسان هينًا على الله. وفي المقابل فإن بركة التقوى والطاعة هي سبب لتأييد الله وتوفيقه ومعونته ونصره.

وشؤم المعصية يؤثر على الفرد والمجتمع والأمة، في شأن الفرد يُبين لنا ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «إذا أذنب العبد نكتت نكتة سوداء في قلبه حتى يسود القلب كله»، فذلك الران الذي ذكره الله تعالى، ثم قرأ النبي ﷺ قول الله تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[٢] [المطففين/١٤].

---

(١)، (٢) سبق تخريجه.

وتوضح السنة المطهرة أن لكل ذنب أثره السيئ، فأكل الحرام يمنع إجابة الدعاء، والظلم يؤدى إلى فقدان الأمن فى المجتمع، وضياع الأمانة يؤدى إلى انهيار المجتمع ... وهكذا.

وعلى الإجمال فربنا يحذرنا من شؤم المعاصى وسوء عاقبتها، فيقول :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه/ ١٢٤].

فكيف يُطلب ما عند الله بالمعاصى ؟

فنصر الله وتأييده إنما يكون للمؤمنين الذين صدقوا واستجابوا ولم يفرطوا فى أمر من أوامر الله تعالى. قال الله تعالى :

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج/ ٤٠].

﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم/ ٤٧].

---

(١) سبق تخريجه.

١٦٠ - علمني الإسلام يا خالد

بهرت عبقرية خالد قادة الروم، فدعاه قائد منهم يدعى «جرجة»، فسأله : يا خالد ! اصدقني ولا تكذبني، فإن الحر لا يكذب: هل أنزل الله على نبيكم سيفًا من السماء فأعطاك إياه فلا تَسُلُّهُ على أحد إلا هزمته ؟

قال خالد : لا.

قال الرجل : فبم سُميت سيف الله ؟!

قال خالد : إن الله بعث فينا رسوله، فمنا من صدَّقه ومنا من كذَّب، وكنت فيمن كذَّب، حتى أخذ الله قلوبنا إلى الإسلام، وهدانا برسوله ﷺ، فدعا لي الرسول ﷺ، وقال لي :

«أنت سيف من سيوف الله» فهكذا سُميت سيف الله.

قال القائد : هل لمن يدخل الإسلام اليوم مثل ما لكم من المثوبة والأجر؟

قال خالد : نعم.

قال القائد : علمني الإسلام يا خالد.

(*) رجال حول الرسول (٣٢٣).

نحن أمام عظمة تأخذ القلوب، نحن أمام قائد منتصر لا يعرف الهزيمة، وكم تحولت الهزائم إلى نصر على يديه، قائد له عقل بصير يقرأ المعارك ويحدد أسباب التفوق والغلبة ويتعرف على مواطن الضعف وأسباب الهزيمة، إن هذه العبقرية الحربية بهرت الأعداء، فظنوا أن الأمر خارج حدود أسباب البشر، وأن سيف خالد نزل من السماء فارتبط به النصر.

ويقف خالد بالقائد الروماني على حقيقة الأمر، حيث قال خالد : لا، لم ينزل سيفي من السماء، وإنما هو سيف كآلاف السيوف التي بأيدي الجنود.

فلما سأل القائد : فبم سُميت سيف الله ؟

قال خالد : إن الله بعث فينا رسوله، فمنا من صدقه ومنا من كَذَّب، وكنت فيمن كذَّب، حتى أخذ الله بقلوبنا إلى الإسلام، وهدانا برسوله ﷺ فدعا لي الرسول ﷺ وقال : «أنت سيف من سيوف الله» فهكذا سميت سيف الله.

لقد رد خالد الفضلَ لصاحبِ الفضلِ، وأرجع النعمة إلى المنعم وهو الله رب العالمين، ولم ير خالد لنفسه في ذلك شيئًا، وإنما هي دعوة رسول الله ﷺ وتوفيق الله سبحانه وتعالى. فما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم. لم يفتن خالد بعمله وإنما رأى توفيق ربه وفضله عليه، وهذا سلوك المؤمن حين يوفق لعمل عظيم. يقول : بتوفيق ربي، ومن فضل ربي.

وفي هذا استجابة لهدي قرآني كريم، قال الله تعالى :

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ [النحل/٥٣].

ومن دلالات الموقف أيضًا : ثمرة الإخلاص لله تعالى، فلما كانت غاية خالد ومن معه هي مرضاة الله تعالى من وراء هذه الغزوات نفع الله بها، وها هو القائد يُقبل على خالد متعلمًا، ثم يسلم.

نعم لم يكن مقصدهم من الغزوات طمعًا فيما عند الناس من دنيا أو أموال، وإنما إتاحة حرية الاختيار للناس، وإتاحة الفرصة لعرض الإسلام على الشعوب المقهورة المغلوبة على أمرها؛ لذلك بيَّن خالد للقائد الروماني أنه إن أسلم فله من الثواب ما هو أعلى وأفضل.

وإنها الدعوة إلى الله تعالى حتى في شدائد الحروب ولهيب القتال.

ولصدق خالد وإخلاصه أسلم القائد الروماني «جرجة»، وصلى لله ركعتين، وانضم لصفوف المسلمين ثم نال الشهادة بعدها.

١٦١ – قم أبا تُراب

خرج الإمام على ﷺ من عند السيدة فاطمة – رضى الله عنها – مغضبًا فاضطجع فى المسجد.

ثم أتى النبى ﷺ السيدة فاطمة الزهراء – رضى الله عنها – فلم يجد الإمام عليًا فقال لها:

«أين ابن عمك يا فاطمة ؟».

قالت هو مضطجع بالمسجد.

فذهب إليه النبى ﷺ فوجد رداءه قد سقط عنه وأصاب التراب ظهره، فأخذ النبى ﷺ يمسح التراب عن ظهر الإمام على ﷺ وهو يقول:

«قم يا أبا تراب». ثم ذهب به إلى فاطمة رضى الله عنها.

(*) ذكره الحافظ فى الفتح (٧ / ٧٢).

نحن أمام هدى كريم في معالجة ما يعترى الأسر من غضب أو نفور.. فالحياة لا تخلو من متاعب ومشكلات، وما دام الإنسان في دنيا الناس فهو في كبد ومعاناة، قال الله تعالى :

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ [البلد/ ٤].

لكن مواجهة أعباء الحياة ومشاكل الدنيا بالإيمان والطاعة خير سبيل للتغلب على هذه الصعاب وتلك المشكلات.

فالإمام علي ﷺ خرج مُغضباً من بيته، فإلى أين يذهب ؟

إلى المسجد، إلى حيث الذكر والطاعة، لم يذهب إلى صحبة سوء أو مجلس شراب؛ وإنما ذهب إلى بيت الله تعالى حيث الرحمة ومنازل السكينة، فلما ذهب الرسول الكريم ﷺ إلى بيت ابنته فاطمة - رضي الله عنها - فلم يجد عليًا، سأل فاطمة : «أين ابن عمك يا فاطمة ؟» وفي هذا تنبيه إلى أن هنالك روابط متعددة بين علي وفاطمة، وليست رابطة الزواج فقط هي التي تجمع بينهما، فهناك صلة الرحم، وقرابة الإسلام مع رابطة الزواج، وإذا ضعفت رابطة من هذه الروابط ظلت روابط أخرى قوية.

وأجابت السيدة فاطمة - رضي الله عنها - هو مضطجع بالمسجد يا رسول الله. ولم تذكر شيئًا عن أمر الغضب. وفي هذا أسوة وقدوة في المحافظة على الخصوصية بين الزوجين حتى على أقرب الناس وأحبهم.

فإن المحافظة على الخصوصية بين الزوجين فيها حماية وصيانة للأسرة من تدخل الغير، وكم من أسر انهارت بسبب كشف سترها وضياع خصوصيتها واطلاع الغير على أسرارها وشئونها.

وقد أسرع النبي ﷺ إليه فوجده نائمًا قد سقط عنه رداؤه وأصاب التراب ظهره، فداعبه النبي ﷺ وأفاض عليه من رفقه وحنانه ومودته، فبيده الشريفة

ﷺ أخذ يمسح التراب عن ظهره ﷺ وهو يقول : «قم يا أبا تراب». ثم ذهب النبي ﷺ به إلى بيت فاطمة الزهراء رضي الله عنها.

وفي هذا درس لأولي الأمر في الأسر المسلمة من الآباء والأمهات، أن يتحسسوا أمور أولادهم بعد الزواج، وأن يكونوا من الرفق والمودة في علاج ما يظهر من خلاف أو غضب دون تعنيف أو شدة لأحد الطرفين، وإنما بمراعاة قدسية العلاقة الزوجية.

كما نتعلم من رسول الله ﷺ ألا يتحيز ولي أمر الزوج لولده ويتحامل على الزوجة أو العكس. وإنما تكون رغبته الإصلاح؛ لينال من بركات الله وتوفيقه، ففي الآية الكريمة :

﴿ إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾ [النساء/ ٣٥].

فليس الأمر صراعًا بين طرفين كل منهما يريد الغلبة، وإنما هي المودة والرحمة والتسامح، قال تعالى :

﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم/ ٢١].

١٦٢ - وهل مثلي لا يغار على مثلك ؟!

خرج النبي ﷺ - ذات ليلة - من عند السيدة عائشة - رضي الله عنها - وكانت تلك ليلتها فاتبعته حيث يمضي مخافة أن يذهب إلى واحدة من زوجاته الأخريات، فوجدته ﷺ قد ذهب إلى مقابر الشهداء يدعو ويستغفر.

فعادت السيدة عائشة - رضي الله عنها - إلى بيتها تقول:

«بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أنت في حاجة ربك وأنا في حاجة الدنيا».

فقال لها النبي ﷺ:

«أغرتِ يا عائشة ؟»

فقالت - رضي الله عنها -:

«وهل مثلي لا يغار على مثلك ؟!».

(*) صحيح مسلم «كتاب الجنائز» باب: ما يقال عند دخول المقابر والدعاء لأهلها (١٠٣).

هذا موقف نبوى كريم، تتجلى فيه قيم ودروس تربوية نافعة :

الدرس الأول هو : هذا الرد الرقيق من الرسول الكريم ﷺ الذى يتسم بالود الحانى على زوجه عائشة، كيف لا وهو من مدحه ربه وأثنى عليه بقوله :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم/٤].

كيف لا وهو النبى الحريص على أمته، الرءوف الرحيم بها، فما بالنا بأهل بيته رضى الله عنهم ؟

قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة/١٢٨].

وهكذا ينبغى أن يتعلم الأزواج الدرس من رسول الله ﷺ، فلا يضيق أحدنا بمشاعر زوجه وغيرتها، وإنما ينبغى أن يرد فى حنان وودّ ورفق وعذوبة كما فعل النبى ﷺ، حيث قال للسيدة عائشة – رضى الله عنها – :

« أغرت يا عائشة؟ ».

وكم كان الرفق والود من رسول الله ﷺ لزوجه عائشة علاجًا لكثير من المواقف، من ذلك قول النبى ﷺ يومًا لها:

«إنى أعلم إذا كنت عنى راضية وإذا كنت عنى غضبى».

فقالت : كيف يا رسول الله ؟

قال ﷺ : «إذا كنت راضية قلت : لا ورب محمد، وإذا كنت غضبى قلت : لا ورب إبراهيم».

فقالت رضى الله عنها : والله يا رسول الله ما أهجر إلا اسمك[١].

وهكذا يسمو النبى بمشاعر الغيرة إلى عنان السماء بسماحته ورفقه ووده ﷺ فهو القائل:

---

(١) أخرجه أحمد (٦/٢١٣).

« خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي »[١].

والقائل : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »[٢].

الدرس الثاني هو : سرعة الرجوع إلى الصواب من السيدة عائشة حين عرفت الحقيقة التي تخالف ما جال في خاطرها من غيرة، وهكذا شأن المؤمن. قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف / ٢٠١].

ونجد هذا المعنى الإيماني في الموقف؛ حين وجدت السيدة عائشة - رضي الله عنها - رسول الله ﷺ قد ذهب إلى مقابر الشهداء يدعو ويستغفر لهم، قالت تلوم نفسها : « بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! أنت في حاجة ربك وأنا في حاجة الدنيا ».

الدرس الثالث هو : حسن الاعتذار. فالسيدة عائشة - رضي الله عنها - قدمت اعتذاراً حكيماً لرسول الله ﷺ حين سألها : « أغرت يا عائشة؟ »، فقالت - رضي الله عنها - : وهل مثلي لا يغار على مثلك يا رسول الله ؟!

صلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، ورحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت.

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب / ٣٣].

والحمد لله رب العالمين

---

(١) رواه الترمذي (٣٨٩٥)، وابن ماجه (١٩٧٧).
(٢) سبق تخريجه.

١٦٣ - ما سلطان الدنيا نريد

عندما كانت معركة اليرموك دائرة بين المسلمين والروم في الشام وصلت رسالة من عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ﷺ بعزل خالد بن الوليد ﷺ عن قيادة الجيش وتولية أبي عبيدة بن الجراح ﷺ بدلاً منه.

ولكن أبا عبيدة بن الجراح أصر على عدم إبلاغ خالد بالأمر حتى تنتهي المعركة، وبالفعل انتصر المسلمون، وبعد ثلاثة أيام تقريبًا سلّم أبو عبيدة الرسالة إلى خالد فتعجب منه قائلاً :

وما منعك من تسليمها لي حين وصلت ؟

قال أبو عبيدة ﷺ : والله يا خالد ما سلطان الدنيا نريد ولا للدنيا نعمل.

(*) رجال حول الرسول ، ص ٢٦٢ .

هذه صورة إيمانية رائعة لأصحاب رسول الله ﷺ .

ما هذه النفوس العالية ؟!

وما هذا التحول الذى غيَّر أهل القبليَّة والبداوة إلى هذا السمو وتلك الرفعة؟ إنه القرآن الكريم والنبى ذو الخلق العظيم ﷺ .

وهكذا يصنع القرآن بالنفوس والقلوب، وهكذا ربّى النبى ﷺ اتباعه .

إن الإمارة والقيادة رضاعها حُلو وفطامها مُر، وليس سهلاً أن يُنحّى قائد ذكى متفوق له انتصاراته وحكمته فى القيادة، قائد لا تعرف الهزيمة طريقًا إليه، يُنحى هذا القائد الذى يتمتع بهذه المكانة، ويصبح واحداً من الجنود والاتباع بين الصفوف، يتلقى الأوامر بعد أن كان يُصدرها، ليس هينًا على النفس أن تستقبل الأمر كما استقبله سيدنا خالد بن الوليد ﷺ، لكن الإيمان يصنع بالنفوس المعجزات، فسيدنا خالد كانت قيادته لله، وكانت جنديته لله .

فالأمر فى الحالين لمرضاة الله تعالى؛ لذلك أخذ الرسالة دون اعتراض ولا تبرم ولا ضجر، ولكن ترك العبادة وكأنه يتسلم منصبًا أعلى، إنه الإخلاص .

وموقف سيدنا أبى عبيدة الجراح ﷺ يُحلق بهذا المستوى الإيمانى الرائع، إنه لا يتعجل تسلُّم القيادة، بل تمهل فى تؤدة حتى انتهت المعركة، ثم أقبل فى إيمان عظيم يسلم رسالة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ فيسأله خالد بن الوليد ﷺ : لماذا لم تسلمها فور وصولها وأخرتها أيامًا ثلاثة .

فقال أبو عبيدة لخالد :

« ما سلطان الدنيا نريد، ولا للدنيا نعمل » .

هكذا كانت نفس أبى عبيدة التى تربت فى كنف الإسلام، وقلبه الذى كان مفعمًا بالإيمان؛ فلم يكن أبو عبيدة يسعى فى حياته لمصلحة شخصية أو رغبة نفسية ، ولذا حرص على عدم إفشاء خبر عزل خالد – فى حينه –

لحكمة بالغة هي المحافظة على وحدة الصف الإسلامي في مواجهة أعداء الإسلام، والمحافظة على خط سير المعركة، التي كانت تنتقل من نصر إلى نصر، وربما أوهن خبر العزل قلوب رجالٍ تعلقت حبًا بقائدها.

ولو أن إنسانًا في مكان أبي عبيدة – وقد واتته هذه الفرصة – لأحب أن ينسب إليه هذا النصر، ويتم على يديه هذا الشرف، لكن أبا عبيدة لم يكن يحب أن يحمد بما لم يفعل فَلْيُتِمّ خالد النصر كما بدأه، فما أبو عبيدة بالذي يعمل للدنيا أو نيل حظوظها.

ولو أن إنسانًا في مكان أبي عبيدة، لطار بهذا النبأ فرحًا، وصولاً إلى مطامعه التي يحرص على بلوغها ورغبة في أن ينال هذا السلطان، فبريق الجاه قوي وحب الزعامة شهوة شديدة.

لكن أبا عبيدة كان يريد سلطانًا آخر هو سلطان الإسلام لا سلطان الدنيا ويسعى لتمكين دين الله بين الناس، وأن تشرق شمسه على العالمين. الله أكبر. ورضي الله عن صحابة رسول الله ﷺ.

أما عن سيدنا عمر بن الخطاب أمير المؤمنين فقد خشي على قلوب المؤمنين أن تربط النصر بوجود خالد، فإذا ما غاب اهتزت ثقتهم، وشيء خطير أن ترتبط الأمة بفرد، فأراد ﷺ أن يؤكد لهم حقيقة إيمانية، وهي أن النصر للمؤمنين من عند الله سواء أكان خالد قائدًا أم كان جنديًا بين الصفوف.

كما تحمل هذه الرسالة دلالة مهمة، هي: أن الأمة ولأدة للقيادات لا يتوقف عطاؤها عند قائد واحد، وهذا يدفع الأمة إلى مواصلة رحلة الخير والجهاد في سبيل الله.

وأن الراية دائمًا مرفوعة تنتقل من قمة إلى قمة، فهي في رقي دائم.

١٦٤ - سبقني إلى أربع

جاء رجل ماكر إلى الإمام عليّ ﷺ فقال: يا علي ما بال المهاجرين والأنصار قدّموا أبا بكر وأنت أفضل منه منقبة، وأقدم منه إسلامًا، وأسبق سابقة؟!

وأدرك الإمام عليّ مكر الرجل، فقال له: يا هذا إن أبا بكر سبقني إلى أربع:

سبقني إلى الإمامة، والهجرة، والغار، وإفشاء السلام.

ويحك أيها الرجل! ألم تر أن الله مدح أبا بكر في قرآنه، فقال الله تعالى:

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الليل/٥-٧].

﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر/٣٣].

فأين عليّ من أبي بكر؟

(*) أهل البيت (علي بن أبي طالب) ص ٥٩.

هذا موقف عظيم من الإمام علي - كرم الله وجهه - تتحطم على أعتابه نوازع النفس الأمارة بالسوء وتبطل النميمة فلا يكون لها أثرا بل ويسهم الإمام عليّ في علاج هذا النمام، بهذا الحوار العقلي المقنع الذي يظهر فضل أبي بكر الصديق ﷺ وأنه أحق بالمقدمة والخلافة والإمامة.

ولو أن أمتنا وعت هذه الحقيقة وهذا الدرس، ما كان بيننا من تفرق وتمزق.

جاء الرجل الماكر النمام، في ثوب المتقربين المحبين الراغبين في علو شأن الإمام عليّ ﷺ، وأخذ يفاضل بين أبي بكر والإمام عليّ - رضي الله عنهما- بما يجعل نتيجة المفاضلة تقديم الإمام عليْ على الصدّيق - رضي الله عنهما ، واستند في ذلك إلى سبق الإمام عليّ إلى الإسلام.

ورضوان الله على صحابة رسول الله ﷺ فأخلاقهم من أخلاق حبيبهم رسول الله ﷺ تقوم على معرفة الفضل لأهله، وتقوم على الإيثار والمحبة والمودة والمحافظة على جماعة المسلمين، فالإمام عليّ ﷺ ارتفع فوق حظوظ النفس البشرية وحبها للإمارة، وألزم نفسه للتواضع مع الحب والإيثار لأبي بكر الصديق ﷺ.

ثم بدأ يبين للرجل خطأ حجته، وهذه معالجة كريمة من الإمام عليّ ﷺ.

حيث قال للرجل: إن أبا بكر سبقني إلى أربع :

سبقني إلى الإمامة، والهجرة ، والغار ، وإفشاء السلام.

ثم ردّ الرجل إلى القرآن الكريم، وقال له : ألم تر أن الله مدح أبا بكر في قرآنه ، فقال :

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾

[الليل/ ٥-٧].

وقال الله تعالى :

﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر/٣٣].

وهكذا ينبغي أن تكون أخلاق من تجمعهم المنازل العالية في الإدارة، أن يحب الواحد منهم لأخيه ما يحب لنفسه، وأن يؤثروا إخوانهم على أنفسهم، لأن هذه الأخلاق تجمع الأمة على الألفة، فلا يكون بيننا حسد ولا قطيعة، فالحرص بين صحابة النبي ﷺ كان على مرضاة الله تعالى وليس على الإمارة أو المناصب، وذلك لأنهم اهتدوا بهدى الرسول ﷺ القائل :

« ستحرصون على الإمارة وإنها لخزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها »(١).

---

(١) سبق تخريجه.

١٦٥ - المرأة والعلم

قال عروة لعائشة : يا أمتاه : لا أعجب من فقهك، أقول : زوجة رسول الله ﷺ ، ولا أعجب من علمك بالشعر وأيام الناس، أقول : ابنة أبى بكر الصديق الذى كان من أعلم الناس بأنساب العرب وشعرهم.

ولكن أعجب من علمك بالطب، كيف هو ؟ ومن أين هو ؟

فقالت عائشة :

أى عُريَّة إن رسول الله ﷺ كان يَسقم عند آخر عمره فكانت تقدم وفود العرب من كل وجه فتنعت له الأنعات وكنت أعالجه.

(٭) مسند أحمد (٦/٦).

هذا موقف يتصل بقضية من أهم قضايا المسلمين في العصر الحاضر. ويأتي هذا الموقف ليكون حكمة وبرهانًا على مكانة المرأة في الإسلام، ودورها في العلم وفي الحياة العامة.

فالإسلام كرّم المرأة بنتًا، وجعل تربية البنات طريقًا إلى الجنة، وكرّم المرأة أمًا، فجعل الجنة تحت أقدام الأمهات، وكرّم المرأة زوجة، فجعل إكرامها ميزانًا لخيرية الرجل لقوله ﷺ :

« خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي »[١].

ولم يعزل الإسلام المرأة عن الحياة العامة والمشاركة فيها كما يزعم أعداء الإسلام، بل أتاح لها المشاركة في الجهاد في سبيل الله، وفي العلم، وفي الدعوة إلى الله تعالى، وفي الحياة العامة. وكل ذلك في إطار طاعة ربها دون تفريط في هدى من هدى دينها.

ونحن – في هذا الموقف – أمام شخصية ثرية جداً.

إنها قمة من القمم النسائية التي انتفعت البشرية بعلمها ومواقفها، وحسبها أن الله تعالى أنزل فيها قرآنًا يتلى في مواقف عديدة.

إنها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها .

وعن دورها في العلم كما يظهر من الموقف فإن السيدة عائشة – رضي الله عنها – كان لها علم بالحديث، فقد روت أكثر من ألفي حديث ذكر لها في الصحيحين منها سبعة وتسعون ومائتا (٢٩٧) حديث.

وكان للسيدة عائشة – رضي الله عنها – علم بتفسير آيات القرآن الكريم، فمن ذلك سؤال عروة عائشة عن قوله تعالى :

---

(١) سبق تخريجه.

﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة/١٥٨].

فاجابت : لان النبي قد مشي بينهما، فليس لاحد ان يترك الطواف بينهما او ان يتحرج من ذلك.

وكان للسيدة عائشة – رضي الله عنها – مشاركة في الحياة العامة، فقد طلبت – رضي الله عنها – من عمر بن الخطاب ﷺ وهو في النزع الأخير أن يعين للأمة خليفة من بعده حتى لا تتفرق الأمة من بعده.

ثم يبين الموقف ان السيدة عائشة مع فقهها. وعلمها بأنساب العرب وشعرهم، تعلمت الطب، وسألها عروة عن مصدر هذا العلم.

فاجابت « بأنها استفادت من الأطباء الذين كانوا يأتون مع وفود العرب إلى رسول الله ﷺ في أواخر عمره، وكان النبي ﷺ يصيبه المرض، فكانوا يصفون له بعض الادوية، وكانت السيدة عائشة – رضي الله عنها – هي التي تقوم بتمريضه ومعالجته بهذه الأدوية، فتم لها هذا العلم.

١٦٦ - ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة

أثناء غزو المسلمين للقسطنطينية، أخرج الروم صفًا عظيمًا للمسلمين فخرج إليهم من المسلمين مثلهم، وحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم، فصاح الناس : يلقى بيديه إلى التهلكة !!

فقال أبو أيوب الأنصارى :

سبحان الله ! إنكم تتأولون هذه الآية هذا التأويل، وإنما أنزلت هذه الآية فينا معاشر الأنصار، لما نصر الله نبيه وأعز دينه قلنا : نقيم فى أموالنا نصلحها وندع الجهاد . فأنزل الله قوله :

﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة/١٩٥].

(*) راجع تفسير الطبرى (٣ / ٥٨٨)، والسمرقندى (١ / ١٩٠).

هذا موقف يصحح مفهومًا خاطئًا شاع بين كثير من المسلمين عن معنى قوله تعالى :

﴿ ولا تُلقوا بأيديكُمْ إلى التهْلُكَة ﴾ [البقرة/١٩٥].

والمعنى كما أشار ابن عباس والجمهور : لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة بترك النفقة في سبيل الله لخوفكم العيْلة.

ومن دلالات الموقف الهادية : عدم الاكتفاء بالدلالات اللغوية لألفاظ الآية في تفسير معناها، إذ إن من الآيات ما يرتبط بمواقف وأسباب نزول، وبعضها قد يكون له وجه من المعنى عيّنه النبي ﷺ، كما في قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۞ أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ [المؤمنون/ ٦٠-٦١].

فقد تبادر إلى ذهن السيدة عائشة أنها نزلت في العصاة الذين يخافون حساب الله وعقابه إذا صاروا إليه، فبين النبي ﷺ أنها في المطيعين الذين يخشون ألا تقبل طاعتهم لنقص فيها.

وكقول الله تعالى :

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة/٨١].

فقد فهم بعض الصحابة أن الخطيئة هي أي ذنب، فبين لهم النبي ﷺ أن الخطيئة هنا هي الشرك بالله تعالى.

ومن دلالات الموقف أيضًا : التضحية والفداء، فهما وراء إنجاز البطولات العظيمة، التضحية بالنفس والمال وكل غالٍ نفيس.

كما رأينا - في الموقف - هذا الجندي المسلم الذي قام بالاقتحام العجيب المدهش لصفوف الروم، وعلى هذه الروح يربي الإسلام أتباعه.

١٦٧ - دار في بلد المذنبين

اشترى رجل دارًا تحدث الناس عن حسنها وجمالها، ثم ذهب إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ ليكتب له عقد هذه الدار، فحاول الصحابة منعه، فأمرهم الإمام عليّ أن يتركوه، فكتب له عقدًا قال فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم، فقد اشترى ميت من ميت دارًا تقع في بلد المذنبين وسكة الغافلين، والدار لها حدود أربعة، فأما حدها الأول : فالموت، وأما حدها الثاني : فالقبر، وأما حدها الثالث : فالحساب، وأما حدها الرابع : فإما إلى جنة وإما إلى نار.

(*) حلية الأولياء - ترجمة الإمام علي.

هذا الموقف يعالج أموراً مهمة في حياة المسلمين، ويدعو إلى قيمة إيمانية، وفقه من فقه الأولويات، وهو : أن المصالح الفردية ينبغي ألاَّ تُقدَّم على مصلحة الجماعة، فهذا أمير المؤمنين في دار الحكم وفي مصالح الأمة، ويأتي إليه رجل ليطلب مصلحة شخصية.

إنه رجل قد سيطرت عليه شهوات نفسه، وتمكنت منه القيم الاستهلاكية، التي تعظّم من أمر المادة. فرأى الرجل أن شرفه وعزه ومجده في دنيا الناس يتحقق بحيازة هذه الدار الكبيرة الواسعة التي يتحدث الناس عن حسنها وجمالها.

لقد رأى الإمام عليّ ﷺ أن الرجل قد تحول عن قيم الإيمان إلى القيم الاستهلاكية، وبدلاً من أن يعتز بإيمانه، وبدلاً من أن يعتز بالفضائل والمكارم ليوافق قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات/١٣]، جعل يُشغل بأمر الدنيا في مجلس العلم والإيمان حتى صار من الغافلين، إنه يطلب من الإمام علي ﷺ وهو المشغول بأمر الدولة وهموم الدولة وشئون المؤمنين - أن يوثق له وأن يكتب له عقد هذه الدار، وأحب الإمام علي ﷺ أن يجعل من ذلك موعظة غالية تنتفع بها الأمة، فقال: اتركوه يأتي ، ثم دعا بالقلم ودعا بالحبر الذي يكتب به ودعا بما يكتب فيه من ورق أو رقاع أو جلد أو نحو ذلك. ومعلوم أن من يريد كتابة عقد عليه أن يسأل عن بيانات أساسية لهذا العقد؛ مثل : اسم المشترى، واسم البائع، وأن يسأل عن حدود القطعة، وأن يسأل عن ثمن القطعة وما إلى ذلك من معلومات أساسية؛ كي تكتمل بيانات العقد، لكن الإمام عليًا ﷺ دون أن يسأل عن شيء من دوافع وعناصر العقد أخذ يكتب :

بسم الله الرحمن الرحيم، اشترى ميتٌ من ميتٍ داراً تقع في بلد المذنبين وسكة الغافلين، والدار لها حدود أربعة، فأما حدها الأول: فالموت، وأما

حدها الثاني : فالقبر، وأما حدها الثالث؛ فالحساب، وأما حدها الرابع؛ فإما إلى جنة وإما إلى نار.

فقال الرجل : يا إمامنا ! تكتب لي عقد دار أم عقد مقبرة ؟

فقال له : يا هذا :

النفس تبكي على الدنيا وقد علمت	أن السلامة فيها ترك ما فيها
لا دار للمرء بعد الموت يسكنها	إلا التي كان قبل الموت يبنيها
فإن بناها بخير طاب مسكنه	وإن بناها بشر خاب بانيها
فاعمل لدار غداً رضوان خازنها	والجار أحمد والرحمن ناشيها

وأود أن نتأمل نص هذا العقد الذي كتبه علي ﷺ :

قد اشترى ميتٌ من ميتٍ داراً، في الحقيقة أنا أتحدث الآن وأنا حي ميت والمستمع حين يستمع إليّ الآن حي ميت، لكن الله تعالى وحده هو الحي الذي لا يموت، فمآلنا جميعاً إلى هذه النهاية، إلى الموت، فأحبّ الإمام عليّ أن يوقظ الرجل من غفلته وأن يذكره بهذه النهاية التي سيصير إليها، فكتب: اشترى ميت من ميت داراً تقع في بلد المذنبين، فالدنيا لا ينفك الإنسان فيها عن خسارة، وأقسم الله على هذه الحقيقة ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ [العصر/ ١-٢].

ولا سلامة من هذا الخسران إلا بالإيمان والعمل الصالح، لقوله عز وجل: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر/٣]. ثم ذكره الإمام بالحدود الأربعة لهذه الدار من : الموت، والقبر، والحساب، والنهاية، التي تؤول إلى جنة أو نار، فاعترض الرجل حيث إنه لم ينتبه بعد فقال: أتكتب لي عقد دار أم عقد مقبرة ؟ ونصحه بأن الناس تؤول

إلى هذه النهـاية، وأن السـعيـد والمـوفق هو الذى يعـمل لغـده، ويعـمل لمستقبله، والمسـتقبل للمؤمن لا يتوقف عند حدود الدنيا فقط في شقة أو سيارة أو رصيد من المال، إنما يمتد إلى الجنة، يمتد إلى ما عند الله من خير وبر، وهكذا تكون الموعظة، ورضى الله عن إمـامنا ، ونفـعنا الله بعـمله والله الموفق.

١٦٨ - سبيل النصر

لما كان يوم بدر، وجاء الكفار في غرور وزهو بعددهم وعدتهم، واستهانوا بأمر المسلمين لقلة عددهم وعدتهم وأجمعوا أمرهم على استئصال الإسلام ونبي الإسلام من الوجود.

وتضرع النبي ﷺ إلى ربه قائلاً:

«اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض».

فأنزل الله آيات ترسم طريق النصر للمؤمنين، قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال/٤٥ - ٤٦] .

---

(٥) السيرة النبوية (٢ / ٢١٠).

هذا الموقف يحتوي على خمسة توجيهات ربانية لأهل الإيمان إذا أرادوا أن يفوزوا بالنصر على أعدائهم، يقول الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ .

هذا نداء لأهل الإيمان الذين يرغبون في النصر على أعدائهم.

التوجيه الأول : هو قوله تعالى : ﴿ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ﴾، والثبات ينبغي أن يُفهم على حقيقته، وأمرُ الله لنا بالثبات معناه أن تأخذ بأسباب هذا الثبات، والله سبحانه بيَّن لنا هذه الأسباب التي تجعلنا من أهل الثبات والصمود حين قال :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال/ ٦٠].

فالضعيف لا ثبات له أمام القوي، والجاهل لا ثبات له أمام العلم، والفقير لا ثبات له أمام القوة الاقتصادية المتكاتفة؛ فينبغي أن يفهم أهل الإيمان الثبات المطلوب منهم على وجهه الصحيح، وهو أن يأخذوا بأسباب الثبات؛ حتى يتمكنوا من الثبات أمام عدوهم.

أما التوجيه الثاني فهو قول الله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة/ ١٠].

عرفت الأمة في أوقاتها المعاصرة الذكر اللساني القولي؛ أن الواحد يجلس ويقول مائة مرة، أو ألف مرة : سبحان الله، والحمد لله ، والله أكبر، ونحو ذلك، وهذا طيب، وهذا مطلوب، ولكن ينبغي أن يفهم المؤمن أن ذكر الله لا يقتصر عند حد الذكر اللساني القولي، وقد بينت كتب التفسير وكتب اللغة أن القرآن

الكريم أرشد إلى دلالات كثيرة من معنى ذكر الله تعالى، من بينها الذكر العلمي بإحياء هدى القرآن الكريم ، وإحياء سنة رسول الله ﷺ؛ فحين تكتمل فينا الأسوة والقدوة سنكون من أهل الذكر الحقيقي، مثلاً في العمل حينما نتكلم عن معايير الجودة في الإسلام؛ فهذا لون من ألوان الذكر العلمي. وحين نعرف معنى الإتقان في العمل؛ فهذا لون من ألوان الذكر العلمي أيضًا. أن يكون لنا الإسهام في الاكتشاف العلمي والمصالحة مع كون الله تعالى الذي وصلنا الله به؛ فإن التخلف العلمي جريمة في حق الإسلام والمسلمين في حياتنا المعاصرة، فالذكر العملي يمتد إلى هذه الشئون كلها.

التوجيه الثالث : يقول ربنا مبينًا أسباب التماسك وعدم الانهيار أمام الشدائد والمحن : ﴿ **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا** ﴾.

إذا أحبت الأمة أن تجتمع إلى شيء يجمع شملها ويوحد أمرها، فهو القرآن الكريم وسنة رسوله ﷺ، وأن تبتعد الأمة عن التنازع فكفانا فرقة، كفانا تمزقًا وتشتيتًا، إن أهل الباطل اصطلحوا واجتمعوا على باطلهم، فأولى بأهل الحق أن يتحدوا لحماية حقهم وصيانته.

التوجيه الرابع هو قوله تعالى :

﴿ **وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا** ﴾ أي : تضعفوا ﴿ **وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ** ﴾ أي : قوتكم.

التوجيه الخامس قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ والصبر هنا ليس كما يفهم البعض أنه شيء سلبي كالاستسلام ونحو ذلك، إنما الصبر قوة في التحمل لإنجاز طموحات وآمال الأمة، هكذا يوجهنا الله تبارك وتعالى إلى أسباب النصر؛ كي يتأتى للأمة أن تكون في المقدمة.

إن المحن البشعة التي تصيب الأمم يتخذ منها العقلاء دافعًا للتصحيح، وينبغي للأمة أن تهتدي بهدى القرآن الكريم، وأن تعمل بأسباب النصر التي

أمر الله سبحانه وتعالى بها؛ فالقرآن موجود، ورب القرآن موجود، والسنة موجودة، والذى غاب عن منظومة التفوق ومنظومة التقدم هو الإنسان القرآنى الذى يعمل بالقرآن، ويتخلق بالقرآن، ويتأدب بالقرآن، ويتأسى بنبى القرآن، هذا وبالله التوفيق.

١٦٩ - الكيف قبل الكم

جلس عمر بن الخطاب ﷺ يومًا مع أصحابه فقال لهم : تمنوا .

فقال أحدهم :

أتمنى ملء هذه الدار فضة أنفقها في سبيل الله .

وقال الآخر :

أتمنى ملء هذا الدار ذهبًا أنفقه في سبيل الله .

وقال عمر :

أتمنى ملء هذه الدار رجالاً مثل أبي عبيدة ابن الجراح ، ومعاذ بن جبل ، وسالم مولى أبي حذيفة أستعملهم في سبيل الله .

(*) رجال حول الرسول، ص ٢٦٤ .

هذا الموقف يؤكد حقيقة إيمانية حضارية تشتد إليها الحاجة في ظروف أمتنا المعاصرة، وهي أن حاجة الأمة إلى بناء الرجال مقدم على حاجتها المادية من مال ونحو ذلك.

فقد تمتلك الأمة الثروات المادية لكنها لا تمتلك حضارة ولا تقدمًا ولا تسيدًا للعالم، إن نوعية الرجال هي التي تنجز الحضارة وتبني الأمة وتجعل لها المقدمة بين الأمم.

لذلك رأينا عمر بن الخطاب ﷺ لا يتمنى كما تمنى الآخرون ذهبًا أو فضة ينفقها على فقراء المسلمين، ولكن تمنى رجالاً لا ككل الرجال، وإنما من صفوة الرجال كأبي عبيدة بن الجراح أمين الأمة، ومعاذ بن جبل سفير النبي ﷺ ونحوهما.

وهذا درس قيم نتعلمه من هذا الموقف، هو أن نقدم الكيف على الكم.

لقد ذمّ القرآن الكريم الأكثرية إذا كان أصحابها لا يعقلون، أو كانوا جهلة لا يعلمون أو كانوا من الجاحدين الذين لا يشكرون فضل ربهم، من ذلك قوله تعالى:

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت/٦٣].

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر/٥٧].

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة/٢٤٣].

في مقابل مدح الله القلة إذا كانت صالحة عاقلة، يقول الله تعالى:

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ [ص/٢٤].

وفي هذا الإطار ينبغي أن نفهم أن الإسلام يعتني ويعظم شأن النوعية والكيفية ويقدمها على الأكثرية.

ومن هذا المنطلق نفهم الحديث النبوي: «تناكحوا تناسلوا تكاثروا فإني

مباه بكم الأمم يوم القيامة»(١).

فالرسول ﷺ لن يباهي الأمم بالجهلة ولا بالفسقة وإنما يباهي بالعاملين النافعين.

وفي تاريخ الأمة - من الأحداث والوقائع - ما يؤكد حقيقة أن الفئة القليلة - حين تصح توعيتها ويعتني فيها بالكيف - تتفوق وتتقدم وتسيطر على الكثرة الكثيرة التي لا علم لها ولا عمل، قال الله تعالى :

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة/٢٤٩].

ولقد نصر الله الفئة المؤمنة الصادقة في بدر، وكاد المؤمنون يخسرون المعركة في حنين - حين نظروا إلى الكم وقدموه على الكيف وغرتهم الكثرة وأصابهم غرور الكثرة، قال الله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا ﴾ [التوبة/٢٥].

وهكذا كان فهم الصحابة يقدمون الكيف على الكم: بعث عمر بن الخطاب عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- لفتح مصر، ثم طلب ابن العاص من ابن الخطاب مدداً، فامده باربعة آلاف ومعهم اربعة، قال عنهم : الواحد منهم بالف، فالعبرة بنوع الرجال وقدراتهم ومواهبهم لا باعدادهم أو أحجامهم.

وروى عن عمر ﷺ انه جلس يومًا مع بعض الصحابة في دار واسعة فقال لهم: تمنوا. فقال أحدهم: أتمنى أن يكون لي ملء هذه الدار دراهم من فضة انفقها في سبيل الله، وتمنى آخر ان يكون له ملؤها ذهبًا ينفقه في سبيل الله. أما عمر فقال: اتمنى ملء هذه الدار رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبي حذيفة أستعملهم في سبيل الله. والحديث النبوي

(١) تفسير القرطبي (٥/ ٣٩١).

الشريف يؤكد هذا المعنى، قال رسول الله ﷺ :

« يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ».

قالوا : أومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟

قال ﷺ : « بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله فى قلوبكم الوهن ».

قالوا : وما الوهن يا رسول الله ؟

قال : « حب الدنيا وكراهية الموت »(١).

وفى عصرنا كثر عدد المسلمين فى العالم حتى جاوز المليار وربع المليار من البشر؛ ولكن حالهم كما ترى.

إذًا المهم هو النوعية والكيف.

وأيضًا فى مجال العمل يربى فينا الإسلام الإتقان والاهتمام بالنوعية، قال رسول الله ﷺ : « إن الله كتب الإحسان على كل شيء »(٢). فى الأعمال والعبادات يطالبنا الله بالنظر إلى النوعية، فرب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش، ورب قائم ليس له من قيامه إلا التعب والسهر، وقال النبى ﷺ : « ركعتان بتدبر وتفكر فى جوف الليل خير من قيام الليل بلا تدبر ولا تفكر »(٣).

وفى العلم واستذكاره لا يترك الإنسان مسالة ويُشغل بغيرها إلا بعد إتقان الأولى فهمًا ومعرفة؛ حتى يتنامى العلم بدقة دون تشويش أو تضليل.

وهكذا لو فقه المسلم هذه القاعدة الإيمانية القرآنية؛ لتحقق له التميز والتفوق – فى عصر العولمة – فى إنتاجه وعمله، والنبى ﷺ يقول :

(١) سبق تخريجه. (٢) أخرجه مسلم (٣/١٥٤٨).
(٣) راجع كنز العمال (٢١٤٢٦).

«المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف»(١).

وقال الله تعالى : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة / ١١].

وقال ﷺ : «اليد العليا خير من اليد السفلى»(٢).

ولما رأى الرجل جالسًا فى المسجد وقد انقطع للصلاة والصيام وليس له عمل سأل عمن يطعمه ويسقيه وينفق عليه ، فقالوا : أخوه ينفق عليه . فقال النبى ﷺ : «أخوه خير منه»(٣).

وقد سُئل ﷺ عن أطيب الكسب فقال : «عمل الرجل بيده، وكل بيع مبرور»(٤).

---

(١) ، (٢) سبق تخريجه.
(٣) الطبرانى فى الكبير والأوسط، ورجاله ثقات قاله الهيثمى فى المجمع (٤ / ٦١).
(٤) رواه أحمد ٤ / ١٤١.

١٧٠ - ولكن أوهمتها

خرج البخارى رحمه الله تعالى يطلب الحديث من رجل ، فرآه قد هربت فرسه ، والرجل يشير إليها برداء كأن فيه شعيراً ، فجاءته فأخذها .

فقال البخارى :

أكان معك شعير ؟

فقال الرجل :

لا . ولكني أوهمتها .

فقال البخارى :

لا آخذ الحديث ممن يكذب على البهائم .

(*) السمير المهذب (٤ / ٦١) .

هذا موقف يظهر أهمية الأسوة والقدوة وبخاصة في فضيلة الصدق. لقد رفض البخاري أن يأخذ الحديث ممن أوهم فرسه بأن معه شعيرًا كي تأتي إليه. وفي هذا غاية التحري والحرص في أخذ حديث رسول الله ﷺ، وهذه دقة في الأمانة العلمية التي أرسى قواعدها الإسلام الحنيف، ولقد ذم الإسلام خيانة الأمانة العلمية فجعلها جريمة يحاسب الله عليها، وجعلها من صفات النفاق، قال النبي ﷺ : «آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»(١).

والصدق فضيلة أمرنا القرآن بها، قال الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة/١١٩].

وبين النبي ﷺ ثمرات الصدق وفوائده :

الأولى : هي أن الصدق باب الجنة، قال النبي ﷺ :

«عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا»(٢).

الثانية : ما أخبرنا به النبي ﷺ أن الصدق يورث راحة الضمير والقلب، قال النبي ﷺ : «الصدق طمأنينة والكذب ريبة»(٣).

الثالثة : الصدق طريق إلى البركة في الكسب وزيادة الخير، قال النبي ﷺ :

«البيِّعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا مُحقت بركة بيعهما»(٤).

---

(١)، (٢) سبق تخريجه. (٣) راجع إتحاف السادة المتقين (١٠/٨٥).

(٤) البخاري (٢٠٧٩)، ومسلم (١٥٣٢).